الشمس التى وراء القمة

قصص قصيرة





١٩٩٧

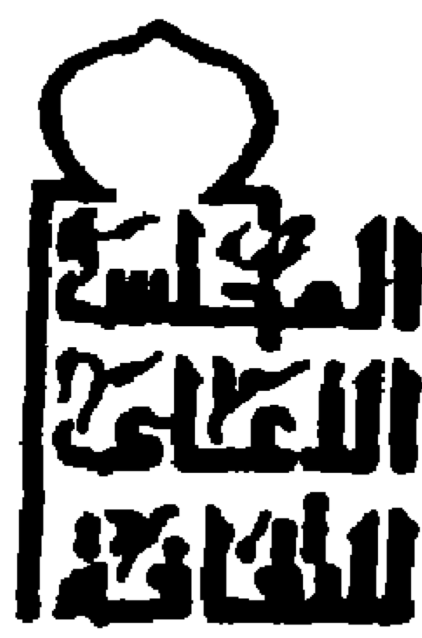
الشمس التى وراء القمة

المجلس الأعلى للثقافة

الشمس التى وراء القمة

قصص قصيرة

نازك الملائكة



١٩٩٧م

١٤١٨ هـ

تمهيد

حينما سعدت بزيارة الأستاذ الفاضل الدكتور جابر عصفور أمين عام المجلس الأعلى للثقافة رحّب بطبع المجموعة القصصية «الشمس التى وراء القمة» للشاعرة نازك الملائكة، ضمن منشورات المجلس، واقترح على كتابة المقدمة لها خلال شهر ولكنى طلبت منه إعفائى لأسباب عديدة، ورجوته أن يقوم بهذا العبء بدلاً منى، فاعتذر بكثرة الواجبات الملقاة على عاتقه التى أقدرها وأشكره على تأديتها غير أنّه وعدنى بتحقيق رجائى إذا وسعه الوقت.

ثم فوجئت بضرورة السفر إلى أبو ظبى لتسلّم جائزة الإبداع الشعرى[1] للمؤلفة نيابة عنها لانحراف صحتها فكلفت ابنها الدكتور البراق بالإطلاع على ما كتبت من رؤوس أقلام وسطور وإضافة ما يراه من خواطر بعد إعادة قراءته للقصص وتقديمها إلى الأستاذ الدكتور جابر حسب الاتفاقية بدون أى تأخير. ثم جرى لى من الأحداث ما سبّب تأخيرى قرابة ثلاثة شهور بين عمّان الأردن وبغداد عدت بعدها إلى القاهرة فأطلعنى – البّراق – على مسودة المقدمة والعقد الذى كانت الظروف الطارئة القاسية سبباً فى تأخير تنفيذه. ولذلك آثرت الحفاظ على قول العرب، مردداً، لا يترك الميسور بالمعسور، لعرض تلك الخواطر المشتركة على القارئ الكريم بعد إلقاء نظرة عاجلة عليها. والله من وراء القصد، وهو بكل شئ عليم.

- ١ -

من المسائل المزمنة التى ترددها ألسنة الكتاب وأقلامهم عبر تاريخ الأدب ونقده لاختلافهم فيها، هى مسالة الصلة بين القصة القصيرة وقصيدة الشعر. فان الحروف المشتركة بين كلمتى القصة والقصيدة من ناحية المخارج الصوتية - وهى القاف والصاد والتاء المربوطة تدلنا على مدى الارتباط بين اللفظين فى الجذر اللغوى، ثم أن كلاً منهما تعبير عن الذات يتمثل فى الخيال والأسلوب ولكن بعد تفرعهما ونضجهما أصبح لكل واحد منهما خصائص تفرِّق بينهما فكانت الحبكة الفنية فى الأحداث مثلاً من شرائط القصة وكان التزام الوزن والقافية الموحدة من ميزات القصيدة.

فهل التزمت القاصة بتلك السمات فى القصة أو أنها خرجت عليها كما خرجت على شعر الشطرين المتساويين ووحدة القافية بما أطلقت عليه اسم - الشعر الحر - فكان هذا الخروج تجديداً، وعُدَّ هذا التجديد إبداعاً؟

الحق أنها جددت فى هذا الفن فأبدعت فيه شكلاً أقرب إلى السيرة الذاتية ولكنه غيرها. إنه شئ جديد يجمع بين مزايا الفنين: القصة والسيرة معاً.

ومن المعروف لدى نقاد القصة أنها تعبير عن حياة القاص - كما أشرنا لذلك آنفاً - أكثر من الرواية والمسرحية وأنه مهما يحاول أن يخفيها على القارئ باختراع أشخاص تصور جوانب من الحياة والناس فإن شخصيته تبرز له من ثنايا السطور ومن وراء أسماء الذين اخترعهم. فهل استطاعت الأديبة أن تخفى شخصيتها فيما كتبت من أقاصيص قصيرة ورواية[٢]، وفى هذه المجموعة بالذات؟

ولئن إختفى ضمير المتكلم وهو – الياء وأنا – وحل بدله ضمير الغائب فان اهتمامات الأدبية وطموحاتها وأهدافها التى كتبت عنها ونظمت فيها تكشف عن صاحبتها وبخاصة الذين قرء وا لها من شعر ونثر: فإن حقوق المرأة ومساواتها بالرجل، والوحدة العربية، وحرية المواطن، ومقاومة الاستعمار بكل أشكاله الاقتصادية والثقافية والسياسية، وإنقاذ فلسطين من براثن الصهيونية العنصرية اللاإنسانية – وأمثالها، كل هذه لا تغيب عن ذهن صاحبة هذه المجموعة القصصية، ولكنها تتردد على ألسنة أشخاص ابتكرت أسماء هم، وكان للمرأة النصيب الأوفر بين تلك الأسماء

ومهما يحاول الأديب سواء أكان شاعرا أو ناثراً أن ينفصل عن نفسه الواعية فيغوص فى أعماق اللاشعور فإنها تفرض وجودها عليه فى الحالين، وفى أكثر ما يقوم به من قول أو فعل، تارة علانية وأخرى بشكل خفى لأن الأحداث التى مرّت فى حياته وبخاصة فى مرحلة طفولته وصباه قد نقشت حروفها على صفحات ذاكرته الملساء واختزنتها خلاياها الحساسة فلم تستطع التجرد منها أو الانفصال عنها بتاتاً وربما على تلوينها أو إضفاء شئ فنى إليها بما يملك من مواهب طبيعية أو مكتسبة نتيجة لتكوينه الخَلْقى والعضوى، أو تعليمه المدرسى أو تدريبه المنزلى.

وهذا ما سنشاهده ونلمسه فى أقاصيص الأديبة جميعها فإنها مرتبطة ارتباطاً وثيقاً فى المنزل الذى ولدت فى إحدى غرفه والوطن الذى نشأت وعاشت على أرضه، والقوم الذين انتسبت إليهم، ثم فى العقيدة التى تدين بها. «فكيف يجوز لإنسان يملك حق الحياة ويدافع عنها لنفسه ولا يدافع عنها ويحميها بالنسبة لغيرة» – كما تقول فى إحدى محاضراتها العامة؟[٣]

بالإضافة إلى ذلك فإن القاصة قدمت لقارئها وبخاصة إلى المعنيين فى

دراسة حياتها وألوان ثقافتها صورة مزدوجة: الوجه الأول لهذه الصورة هو نمط حياتها المعاشية. أين وكيف نشأت إلى أن اشتهرت بما قرضت من شعر وكتبت من نثر، والوجه الثاني خيالها الواسع البعيد وآراؤها ورؤاها في الحياة والناس حتى النبات، وكيف ينبغي أن يتعايشوا وينظروا إلى الوجود ومعجزة الله الخالق في كونه وتكوينه ليعم الحب ويتعاونوا على البِرّ ليسعدوا جميعاً.

وعلى الرغم من قدرتها على التخيل بوصفها شاعرة فإن من الواقع ما يفوق الخيال من حيث القدرة على الإبداع الفني وإثارة كوامن القارئ ونزعاته الإنسانية وبخاصة في فن القصة التي هي في الحقيقة وصف لواقع الحال، واقع ما يشعر به الكاتب القاص، وما يحسّ به نحو البيئة من حوله بأسلوب شائق يثير مشاعر القارئ وينمي نزعاته الإنسانية الكامنة لأنه يجد فيه وصفاً لجانب مهم في حياته أو تحليلاً لظاهرة مخيفة أو خفية في مجتمعه.

-٢-

ومثل الكثير من الشعراء هامت المؤلفة الشاعرة في صباها في كل واد بحثاً عن الإيمان واليقين والانتماء وفي شبابها الأول يئست من الدنيا وقنطت من وجود لم تفقه مغزاه ولكن يأسها ما كان سلبياً كسولاً بل دافعاً قوياً حثها على البحث عن الأرض الصلبة التي أيقنت بوجودها في قرارة موج العدمية القاتم. وهكذا خلال الخمسينات شدّت رحالها أكثر من مرة لتنهل المعرفة من الجامعات الأمريكية - برنستون، ومادسن وسكونسن - وقد تضاعفت ثقافتها - كما تقول في مذاكراتها - عشر مرات بسبب هذه الدراسة واستفاد شعرها منه إذ تنوعت مواضيعه وعمقت أنغامه. ولكنها

سرعان ما شعرت بالغربة فالاغتراب أكثر مما سبق وذلك بعد عودتها إلى العراق المحافظ فقدْ خبرت الحياة فى مجتمع متقدم زاهر، ورأت بأم عينها مزايا الحرية التى حرمت منها المرأة الشرقية وخاصة العربية لقرون طويلة.

إن القدرات اللغوية للمؤلفة كشاعرة ونزعاتها كقاصة قد تضافرا وانتجا خصوبة هذه النصوص حيث يتراء ى لنا فيها نقيضان، وهما الاغتراب من الوطن لظروف اجتماعية وسياسية واقتصادية، والبحث عن قيم ومجتمع يمكن الانتماء لهما، والأول منهما كتبت فى شعرها عنه الكثير وعانت نفسها الحساسة من تأثيره. فى قصة - ياسمين - حيث ترحل البطلة «وداد» إلى الولايات المتحدة ثم تعود بعد أربع سنوات، من هنا نلاحظ أن أشجان الغربة التى قاستها الشاعرة خلال إقامتها فى أمريكا طوال هذه الفترة تحولت إلى اغتراب بعد وصولها إلى مرباها فى بغداد فصارت تنظر إلى أفراد أسرتها بمنظار يختلف عما كانت عليه قبل سفرها وكذلك كان أهلها ينظرن إليها. فكأنها تريد أن تقول: لا ترسلوا أبناء نا العرب إلى الغرب فإن مآلهم الإحساس بالغربة عند غيابهم والاغتراب بعد عودتهم. وفى الفقرة التالية تصف إحساسها والتناقضات التى تتصارع فى أعماقها بلغة أقرب إلى الشعر منه إلى النثر، إذ تقول:

«ماذا يصنع البعد بنا؟ فى أمريكا حسبت أنه يقوم بعملية محو بطئ لما حملناه معنا من عالمنا القديم. إنهم يحسبون أننا نكتسب كثيراً من حياتنا فى الخارج بدون أن يتخيلوا الثمن الذى ندفعه. إن حياة البعد المنفصلة هذه ليست كلها مباهج، وتكاليفها الشعورية فى الغالب باهظة، بعضنا يدفعها فى الخارج وبعضنا يدفعها فيما بعد. إننا نعود إلى الوطن وقد تغيّرت وتراكمت فى أنفسنا

طبقات جديدة، أجنبية الطبيعة تترسب في خلاياها وجوه غير مألوفة، وأصداء عبارات من مجالس مجهولة، ورؤى أماكن بعيدة ودروب تتلوى في مزارع تختلف عن مزارعنا، وغرف في بنايات لا تشبه بناياتنا».

وهذه اللغة تنتقل بيسر بين الغربة - والصور الحسية المجازية التي تعبِّر عنها عبر استعارات يرجع بعضها إلى علم طبقات الأرض. وفي هذه القصة - ياسمين - تبقى الطفلة - بقدر ما هي شخصية واقعية أو خيالية - رمزاً لسعي البطلة إلى التأقلم في عالم الأسرة الشرقية وتجربة قدرتها على ذلك.

وللشعور بالاغتراب أكثر من صورة في هذه المجموعة. هنالك مثلاً غربة الشاعر الروحاني المرهف في عالم مادي يحكمه قانون المال، وهذا هو موضوع قصتها - ظفائر السمراء عالية - حيث تروي الأديبة بأسلوبها الأدبي الشائق صفحة من حياتها في عهد الصبا المبكر حين كانت العائلة تسكن داراً واسعة على الطراز القديم، ذات أبهاء وأواوين وغرف في أحد أحياء بغداد المعروفة باسم - العاقولية - وإن لم تذكر اسمها.. وكما عالجت في - ياسمين - مشكلة تأثير البيئة الثقافية على المغترب فإنها في هذه القصة أثارت مشكلة الطبيعة البشرية ونزعتها الجشعة إلى الثراء والتملك والتنافس على الأولوية، والسبق في الحصول على الثروات وأنها تنشأ مع الإنسان منذ الصغر ثم تنمو معه، وقد اختلقت لذلك عدة أشخاص من أفراد العائلة واختارت لنفسها اسم ندى واختلفت عنهم لأنها كانت تعيش طبيعة الشاعر الخيالي الزاهد الذي لا يأبه للحلي وأدوات الزينة إلا بمقدار دلالتها على صانعيها وحامليها.

أما قصة - منحدر التل - فإنها تعبِّر عن الاغتراب السياسي إذ تتناول نكبة فلسطين التي ابتليت بها الأمة العربية والمسلمون وحقوق الإنسان منذ

أكثر من نصف قرن علي يد الصهاينة الغزاة. والقصة ترسم للقارئ صورة قلمية لمأساة عائلة واحدة من آلاف العائلات الفلسطينية التى كانت تعيش فى إحدى القرى عند منحدر التل سعيدة راضية على فقرها ثم فاجأها المحتلون برصاصهم ومدافعهم فشردوا أهلوها ثم أحرقوا ديارها واستولوا عليها. ولقد أجادت الكاتبة فى رسم هذه الصورة القلمية المحزنة التى جاء ت على لسان لبنى بطلة القصة فى أسلوبها البيانى الشائق ومشاعرها المتأججة فجمعت بين الواقع المرئى المحزن والخيال الشعرى المؤلم. وليس هذا بغريب على الشاعرة: فقد ولدت وربِّيت فى أحضان والدة كان أكثر من نصف ديوانه ا« **أنشودة المجد** » فى مأساة فلسطين.

ومن وسائل التعبير عن الاغتراب وعدم القناعة بالوضع الراهن والحياة اليومية الرتيبة الأمنيات التي كانت تراود بطلة قصة «رحلة فى الأبعاد» التى تحلم بيوم يتحقق لها فيه مشاهدة أوائلنا. كيف كانوا يعيشون وهل تتفق تقاليدهم وألوان حياتهم وعاداتهم بما رواه التاريخ عنهم؟ والقصة تعبر أولاً عن رتابة الحياة اليومية المملة، ثم عن تجربة غريبة تقع للبطلة ذات يوم إذ تحقق لها هذا الحلم الذى كان قد ملأ كيانها ليل نهار وشغل عقلها صباح مساء وما كانت نائمة لترى حلماً، وما كانت يقظة تماماً ليغيب عنها ما رأت وإنما غابت عن الوعى واستغرقت فى رؤيا ورحلت إلى الوراء ألفاً وأربعمائة عام وسرحت بذهنها وروحها حتى رأت نفسها فى العصر الجاهلى وبقيت تراقب ما شهدت نصف ساعة وما أن انتبهت حتى سجلت ما سمعته وحاورت زوجها بخصوص ما شاهدت: فقد سعَدتْ برؤية وجه امرئ القيس الذى لم يره إنسان غيرها فى هذا العصر. رأته شاباً يافعاً مرحاً يجرى على فرسه ضاحكاً والريح يعبث بشعره الطويل المنسدل على كتفيه. ثم

استمرت تحكى لزوجها بقية ما رأت وسمعت وهو يناقشها: أليس هذا حلماً؟ فأجابته: إننى واثقة كل الثقة أننى لم أكن نائمة وراحت تصف له لقاء امرئ القيس بحبيبته «عنيزة» وما سمعت منهما وهو يطاردها فتهرب منه قائلة: «فضحتنا لا أم لك.» ويغضٍّ النظر عن دلالة انتقاء اسم الأم(*) بدلاً من الأب، فان القصة على كل حال تعّبر عن ملل البطلة بحياتها الاجتماعية، وهو الدافع النفسى للرحلة الغريبة التى تصفها.(٤)

ومما يلفت نظر القارئ فى هذه القصص ليس تصويرها للانعزال ومعاناة الفرد، بل تقديمها لإمكانية ولوج عالم آخر نابض بحب الحياة مفعم بالإيمان والانتماء ففى هذه المجموعة تدرك البطلات – والشاعرة كذلك – أن الحزن واليأس إنما هو حب للذات، إنه جرح نرجسى لم يندمل منذ الطفولة، ولذا تلاحظ هدى بطلة «الشمس التى وراء القمة»: «أن الفرح قدرة مبدعة واسعة تستكنه الوجود كله، أما القدرة على الحزن فهى دائماً ضيقة الحدود وفردية.» ففى هذه المجموعة تتجاوز القاصة بالفعل تلك الحدود والتجارب الضيقة، تاركة وراء ها فردية الاغتراب، متجهة نحو شمولية الترابط مع الطبيعة والكون.

إن القصة «إلى حيث النخيل والموسيقى،» كما يدل عنوانها، تقدم صورة للانتماء للطبيعة عبر العلاقة المميزة بين بطلة القصة نهى والبيئة التى تعيش فى وسطها. فهى تحيا فى منزل وسط غابة من البساتين التى لا ينقطع فيها صوت «ابن آوى» ليلاً لقلة البيوت فيها. وهى تؤمن بأن النخيل والأشجار التى تعيش فى وسطها إنما هى كائنات حية تحس وتفهم وتسرد لسامعيها الأدلة ليشاركوها فى هذا الاعتقاد. وقد يرفض بعض القراء شدة هذا

* حيث كان الشائع الذى يتناقله العرب فى الثناء على شخص لا نظير له بين الناس هو قولهم: لا أبا لك لذا: قال شاعرهم: أعمى يقود بصيراً لا أبا لكم قد ضل من كانت العميان تهديه

الارتباط بين الإنسان والطبيعة، إلا أن ابتعادنا فى هذا الزمان عن بساطة الطبيعة وعدم اكتراثنا بها إنما هو دلالة أخرى على اغترابنا فى الكون الذى نعيش فيه. وهكذا تذكرنا بطلة القصة بأن الكون ينبض بالحياة، وأن حياتنا إنما هى جزء من حياته:

«لقد خُلق الكون حساساً، كل ما فيه يشعر وينبض ويحيا حتى الأشياء الجامدة ألا تنبض الذرات فى داخلها كما تنبض قلوبنا؟» وهذا الترابط بين الكائنات يبدو فى موت بطلة هذه القصة بعد قطع النخلة التى تحبها وترتبط بها حياتها.

أما قصة – قناديل لمندلى المقتولة – فقد تكون أكثر ارتباطاً بحياتنا السياسية لأنها تسجل حدثاً وطنياً مؤلماً وقع فى أوائل عهد الشاه الإيرانى المخلوع محمد رضا بهلوى، حيث أمر بتحويل مجرى نهر «السيبة» إلى إيران الذى ينبع فى أراضيها ويسقى مدينة مندلى التى تشتهر بأحسن الفواكه ولا سيما البرتقال والرمان والتى تقع بالقرب من الحدود بين إيران والعراق وبالقرب من بغداد. فجفت سواقيها وتركها أهلوها حتى أصبحت كما تحكى القاصة على لسان أحد سكانها «لا تصلح للبيع فلا يدفع فيها أحد ديناراً واحداً لأنها مدينة بلا ماء والناس فيها عطاشى والحكومة تمنع الكلام فى هذا الموضوع. «وليس من الغريب أن هذه القصة التى كتبت منذ أكثر من ثلاثين عاماً تصوّر ما يقلق الكثيرين من المفكرين فى بلادنا حالياً: أى أزمة المياه المقبلة مع القرن القادم فى الشرق الأوسط فالقاصة تطرح فى هذه الأقاصيص أكثر من قضية تتمتع بإنسانية شمولية تفوق اهتمامات مرحلة زمانية بعينها.

الرؤية التى تقدمها هذه المجموعة القصصية إذاً هى أن كل موجود فى

العالم يرتبط بعضه ببعض بصلة الاعتماد المتبادل. وأساس هذه العلاقة السليم هو الحب، ولكن ليس بمعناه المبتذل فى غرام الرجل بالمرأة والعلاقة الجنسية ورموزها الشائعة التى تتكرر فى الأعمال الأدبية من شعر ونثر حتى ما عادت تبعث فى النفس سوى الملل والسأم.

ولما احتدم الخلاف بين المعنيين فى دراسة الإنسان وتكوينه، حول دوافع العلاقات الاجتماعية بين الجنسين وعوامل بقائها وأهدافها، أخذت تتسائل: هل هى المصالح الشخصية، المنافع الذاتية المتبادلة من مال أو شهرة وغيرها من زخارف الدنيا، أم هو الجنس وإشباع رغبة الجسد بما يحس به من لذة، أو البنون لما ينجم عن ميلادهم من متع وزهو وأنس ومساعدة فى الدنيا ثم امتداد لحياة الوالدين بذكرهما بعد وفاتهما إلى غير ذلك من دوافع وأهداف؟ ثم أجابت بما رأته كائناً حولها حسب نظرها وما ينبغى أن تكون عليه العلاقات حسب رأيها: فالارض التى تسكنها مجدبة قفراء من الحب لاعتقادها بأنه ما اجتمعت الوسيلة والغاية فى مطلب من مطالب الحياة مثلما اجتمعت فى الحب فإنه الوسيلة إلى بلوغ السعادة التى ينشدها الإنسان فى الدنيا. ولكن الحب هنا يختلف عن الجنس وليس مرادفاً له. الجنس هو لذة الجسد بينا الحب هو لذة الروح وإن شئت فقل: إنه اللذة فيهما معاً. وقد جاء على لسان هدى بطلة - الشمس التى وراء القمة -: إن علاقة الحب بين الرجل والمرأة واسعة الأبعاد ضاربة فى أعماق الروح، علاقة نبيلة كلها شعر وموسيقى وحياة، وحتى لو كان فيها جانب جنسى فإنه يأتى عرضاً نتيجة للتفاهم والود وليس أصلاً ولا مقصوداً لذاته كما يتصور العوام. الحب فى هذه القصة ينضج حين يأتى الطفل للدنيا ويتعهد الوالدان برعايته. وفى هذه العلاقة الثلاثية ترى الكاتبة المخرج من الانعزالية

والاغتراب. الحب إذاً يعني احترام الحياة والأحياء ومساعدة كل ما هو حي. فبهذا تتوسع حدود النفس وتقوى أواصر علاقاتها بما حولها.

-٣-

وهذه الرؤية الخاصة للوجود كترابط الكائنات وعنايتها لبعضها بعضاً تختلف عن رؤى أخرى مثل نظرية دارون الذى يدعى أن كل ما فى الكون يتصارع بعضه مع بعض بلا تعاون سوى ما هو ضروري تماماً من أجل البقاء، وكذلك وجهة نظر ماركس الذى ادعا أن علاقات الأفراد ببعضهم البعض وبالكائنات الحية الأخرى إنما هى علاقات استغلال مادى بشع . هذه النظريات الشائعة هى ما تنتقده هذه القصص ضمنياً أحياناً وبصراحة فى أحيان أخرى. وهذه الرؤية الجديدة إنما هى رؤية نسائية لأن مثلها الأعلى هو علاقة الأم بطفلها الذى تضحى فى سبيله – العلاقة التى تجمع بين الرجل والمرأة، وبينها وبين الطبيعة، فى قصة – الشمس التى وراء القمة –.

وإن كان بعض هذه القصص مثل «ياسمين» و «منحدر التل» و«قناديل لندلى المقتولة»، قد نشر فى مجلة الآداب البيروتية، وأثار ضجة فى عالم الأدب إبان نشرها، وتناولها النقاد بالمدح والقدح، كل حسب رؤيته، فهى جميعاً، ما نشر منها وما لم ينشر، لا تزال تحتفظ بذات الحيوية والقدرة على إدخال القارئ إلى عالم غريب قلّ أن رسمه أحد بهذه الحساسية: عالم العراق فى الثلاثينات، فلسطين عام ١٩٤٨، وحتى النزوح إلى العصر الجاهلى فى قصتها – رحلة فى الأبعاد –، إنها جميعاً تمثل رحلة فى أبعاد مؤنثة حول العلاقات بين المرأة وجسدها، المرأة والطبيعة، المرأة والرجل، المرأة والطفل فى قصة – الشمس التى وراء القمة.

لهذا السبب يبدو لنا أن الوقت حان لجمع هذه القصص ونشرها في كتاب واحد يفيد منه القارئ لأن المرأة – كما نعرف – ترى ما حولها في العالم وتحس به بطريقة تختلف كثيراً أو قليلاً عن رؤية الرجل وإحساسه، وأن القارئ المهتم بقضية المرأة والأدب سيجد في هذه القصص ثراء يصل بها إلى صف الأدب النسائي العالمي: إذ أنها تقدم وجهة نظر نسائية معاصرة لعالم يشمل الرجل ولكنه يرتبط بالطبيعة والأطفال، بدون أي إجحاف في حق أي من الجنسين وتعميم أحكام فردية عليهما.

وإذا كان مما ينبغي على مقدم أي كتاب أن يبدي رأيه ورؤيته بإيجاز في محتوياته تسهيلاً للقارئ وتشجيعاً له على قراءته فإن هذه المجموعة مما ستختلف في مضمونها وأغراضها وأسلوبها الآراء لاختلاف النظرة إليها بعد قرائتها أكثر من مرة باستيعاب.

ولو سأل سائل ما هي السمة الغالبة التي تتحلى بها هذه المجموعة القصصية والتي تتجلى بوضوح في التعبير عن نفسيه كاتبتها واتجاهاتها لقال كل قارئ بإمعان: إنه الحب أولاً، حب الإنسان لأخيه الانسان ثم حبه لسائر الحيوان وحبه لكل ما يجرى في عروقه دم الحياة حتي النبات بل الجماد. أما ثاني السمات فهو الشعور بالاغتراب حيث بحثت عن الحب من حولها فلم تجد آثاره وثماره بين الناس وإنما رأت الظلم والجشع نتيجة البغضاء والكراهية والحسد هي النزعات الشائعة في التعامل بين الناس.

أخيراً نتمنى أن تنجح هذه القصص في التواصل مع فكر القارئ وعاطفته، وأن يجد فيها ما يمتعه ويسليه، وكذلك ما هو مفيد له فكرياً وروحياً، ومن الله التوفيق.

د. البراق عبد الهادى

أبو البراق
د. عبد الهادى رضا

الهوامش

١- هى جائزة مؤسسة البابطين للابداع الشعرى عام ١٩٩٦.

٢- للمؤلفة رواية بعنوان ظل على القمر فى أربعة فصول وفى ٢٤٢ صفحة من القطع المتوسط مخطوط بقلمها عام ١٩٧٧.

٣- من محاضرة ألقتها الادبية فى كلية الملكة عالية فى بغداد بعنوان «المرأة بين الطرفين السلبية والاخلاق.» وقد نشرت فى كتابها التجزيئية فى المجتمع العربى.

٤- ونحن نأسف لضياع بقية الحوار الجاهلى فى النسخة التى بين أيدينا بسبب فقدان النسخة الاصلية حيث تعرض منزل الأدبية فى بغداد للسرقة عام ١٩٩٦.

ياسمين

«تحية ومحبة للصغيرة الغالية : نسرين»

عندما غادرت العراق الى أمريكا للدراسة منذ خمس سنين، كانت قد ولدت لنا في المنزل أخت جديدة اقترح إياد الذى كان يبلغ من العمر اثنتى عشرة سنة، أن نسميها «ياسمين» تكريماً لشجرة زرعها فى حديقتنا، ومن غير إياد يزرع أى شىء في بيتنا؟ إن الحديقة معبده. وكان أبى يحب أن يسمى الطفلة سعاد لتكون أسماؤنا على التوالى وداد وإياد وسعاد وبذلك يرضى نزعة السجع التى تشيع فى بعض الأسر العراقية، غير أن أمى نصرت فكرة إياد وقد أيدتها أنا الأخرى . كان يكفى أن يرى المرء حماسة هذا الصبى العزيز واختلاج شفتيه للفكرة التى تخايله حتى يرقّ ويودّ لو حقّقها له.

كان فى أختى الجديدة شىء يجتذب القلب وقد أحببت أن أتريث فى بغداد وأرجىء سفرى ولو شهراً لأتعرف إليها وأتزوّد لفراق طويل غير أن موعدد سفرى كان قد حدد وهكذا وجدتنى ذات فجر أُلوِّح بيدى للمرة الأخيرة إلى أبى وإياد وقد حضرا لتوديعى فى المطار. ولم يكن عمر ياسمين إذ ذاك يزيد على أسبوعين.

ماذا يصنع البعد بنا؟ إننا فى البداية نتمسك بكل ما أحضرناه معنا من الأرض القديمة التى فتحت ذراعيها وأسلمتنا للمسافات. نحن نتعلق بأشياء

مثل عدد أشجار الدفلى فى حديقة الشارع أمام منزلنا وطعم الشاى الخاص الذى يصنع فى بيتنا ولا نرى له مثيلا فى الوجود، ووجه ياسمين الصغيرة التى ملأت القلب أيّاما ثم خفت صوت بكائها وراء المحيط. إننا نطبق أكفنا على كل هذا ونقسم ألا نغفل عنه ولا ندع النسيان يسرقه منا. ولكن الحياة الجديدة تتناولنا بسرعة وتسلمنا لأصناف لاعهد لنا بها من المشاغل والظروف والوجوه وسرعان ما ننسى حتى أننا ننسى. وفى بداية السنة الثانية نشعر فجأة كم نحن بعيدون عن كل من أحببنا، وتفاجئنا الحقيقة الكبرى : لقد تغيّرنا.

أربع سنوات من هذا ... كيف كان يمكن لى ألاّ أغفل عن ياسمين ؟ وكان إياد يذكرها لى فى رسائله بين الأخبار الأخرى التى تهمه: شجرة السرو التى التوى عنقها، نخلتنا التى أحرقها البرق، شجرة التوت التى لم تعط ثمراً هوائياً هذا العام.... وياسمين التى تكبر بسرعة ويزداد ولعها بقطتنا «سيرس» وهكذا.

وكنت أرسل إليها هدايا من الملابس واللعب بين الحين والحين وكنت أضع صورة صغيرة لها على مكتبى، غير أن هذه الومضات الخاطفة فى الصلات لم تصل ما تفصله المسافات بيننا، فما كنت أملك فى نفسى أكثر من ارتباط تقليدى بأخت لى لا أعرفها، ولم استشعر تماماً ذلك الحنين الذى تبعثه فى النفس الألفة والمجاورة.

ولم يكن هذا يقلقنى. ألست راجعة إلى العراق؟ إن اسبوعاً واحداً إلى جوارها سيجعلنا نتبادل المحبة على أتم ما تتبادلها أختان فما الداعى إلى القلق والاستعجال؟

ثم عدت إلى بغداد ذات خريف.

وفى غمرة الفرح باللقاء لم أتذكر ياسمين. وحين انصرمت الدقائق الأولى أقبل علىّ إياد يحملها بين ذراعيه: طفلة سمراء مرهفة التقاطيع ذات جدائل سود تتهدل على كتفيها وقد ألبسوها «بنطلوناً» ايطالياً أزرق يشد حول ساقيها النحيفتين بأشرطة مضفورة. كانت باختصار طفلة عذبة وقد وضعها إياد بين ذراعىّ قائلاً فى بعض عتاب ولوم: «أراك قد نسيت ياسمين ألا تسألين عنها قط؟»

ياسمين !

منذ تلك اللحظة الأولى باتت أختى هذه شغلى الشاغل.

لقد لاح علىَّ وكأن غيابى الطويل فى أمريكا قد جمع فى نفسى كثيراً من المحبة والشوق وسرعان ما تفجرّتُ حين عدت إلى منزلنا. أما ياسمين فقد رفضت منذ البداية أن تمنحنى صداقتها فما كدت أتناولها من إياد وأقبلها حتى راحت تدفعنى بكلتا يديها وهى تصيح بلهجة طفولية: «إذهبى... لا أريدك!» واضطرت أمى إلى أن تأخذها وتحاول إعادة الاطمئنان إليها باخبارها أننى أختها الموعودة من وداد التى طالما سمعت عنها. وعندما رأت أمى خيبتى بسبب هذا الصدود غير المنتظر من أختى قالت لى ملاطفة: «إنها لا تعرفك بعد. وستألفك تدريجياً.» غير أن الأيام بدأت تكذب أمى فإن ياسمين لم تغيّر موقفها منى....

أما أنا فقد سلكت المسلك الطبيعىّ فى مثل هذه الحالة: أخت صغيرة لطيفة أقابلها أول مرة وأتعلق بها، فأروح أبذل كل جهدى للتعرف إليها والارتباط بها. وهكذا رحت أغمرها باللعب والأشرطة والحلوى وكل ما تحب، وكانت شؤونها تلقى عناية بالغة منى. غير أن جهودى لم تزدها إلا توتراً. فكانت تحفظ مسافة دائمة بينى وبينها وتنظر إلىّ فى حذر وكأنى غريبة،

وبقى قلبها الصغير مغلقاً أمام مفاتيحى كلها لا يختلج بعاطفة واحدة من عواطف الأخوة التى أتفجر أنا بها. وكان أفراد أسرتنا يتأثرون حين يرون مجهوداتى كلها تفشل فى اجتذابها ففى ختام كل محاولة كنت أسمع العبارة نفسها من ياسمين تردّدها فى عناد وتحدّ: «اذهبى... لا أريدك!».

ولم أعدم تفسيراً للموقف. رحت أقول لنفسى إن الحبّ الاخوى ليس معنى نظرياً بالنسبة لطفلة فى الرابعة كما هو بالنسبة لنا نحن الكبار وإنما لابدّ له أن ينبت كما تنبت البذرة.

وقد نشأت ياسمين فى هذا المنزل طوال أربع سنين وألفت أفراده حتى القطةَ «سيرسى» . كانت ترى أوجههم كل صباح وتتلقى حنانهم ورعايتهم فبادلتهم الحب ورأت فيهم مملكتها الصغيرة السعيدة، ثم جاء وا بى فجأة وسألوها أنْ تدخلنى فى رعاياها. لماذا؟ لأننى أختها . أهذا منطق مقبول عندها؟

إن ياسمين لم تضع لى مكاناً فى مملكتها قط ولم تحسب لمجيئى حسابا . وهكذا وصلت متأخرة فاذا القلب الذى انتظرت منه صفاء الأخوة قد تحول الى حصن كتبت فى مدخله كلمة «ممنوع».

***

ماذا يصنع البعد بنا؟ فى أمريكا حسبت أنه يقوم بعملية محو بطىء لما حملنا معنا من عالمنا القديم. ولم يتح لى إذ ذاك أن أدرك الجانب الأهم من صنيعه بنا. إن البعد لا يُنْسينا حسب وإنما يضيف إلينا أيضا. وقد كان أول من جعلنى أفطن إلى هذه الحقيقة المهمة هو أختى العنيدة ياسمين . فإذا كانت السنوات الأربع الماضية التى قضيتها فى الخارج هى كل رصيدها من العمر فإن هذا يفسر معاملتها لى وكأننى غريبة عنها. ولكن ...

مامدى ما تفصلنى هذه السنوات عن أمى مثلاً؟ عن إياد ؟

أنهم يحسبون أننا نكتسب كثيراً من حياتنا فى الخارج، دون أن يتخيلوا الثمن الذى ندفعه . إن حياة البعد المنفصلة هذه ليست كلها مباهج، وتكاليفها الشعورية فى الغالب باهظة. بعضنا يدفعها فى الخارج، وبعضنا يدفعها فيما بعد، إننا نعود إلى الوطن وقد تغيّرنا وتكوّنت فى أنفسنا طبقات جديدة أجنبية الطبيعة، تترسب فى خلاياها وجوه غير مألوفة، وأصداء عبارات من مجالس مجهولة، ورؤى أماكن بعيدة ودروب تتلوى فى مزارع تختلف عن مزراعنا، وغرف فى بنايات لا تشبه بناياتنا.

لقد عشنا ماضيا له شوارع أخرى غير شارع الرشيد ، وألفنا وجوهاً لا صلة لها بوجه إياد، وعلينا الآن أن ننزع هذا الماضى من حياتنا نزعاً قاطعاً، فليس من أحد هنا يشاركنا إياه. كل ماضٍ آخر لنا يستطيع أن يحيا فى حاضرنا ماعدا ماضينا الأمريكى هذا فنحن ملزمون بأن نخلعه ونرميه فى لحظة واحدة. إن أهلنا وأحبّاء نا ينظرون إليه فى ريبة وحذر تماماً كما تنظر ياسمين إلىّ. إنهم يعتقدون أن علينا ألا نتغير، ويعاملوننا وكأننا لم نتغير . ويكون هذا أول ما يصدمنا ونحن ندخل المنزل ونبحث عن ارتباطاتنا القديمة. ونحاول أن نفعل ما يريدون ، فننزع ماضينامن أجلهم ولكننا سرعان ما ندرك بأن هذا الماضى ليس ورقة ملصقة على سطح أنفسنا بحيث يسهل نزعه. وإذا نحن نزعناه أفلن نكون أشبه بمنزلنا الحلو هذا إذا نحن قرّرنا فى لحظةٍ أن ننزع منه ياسمين؟ إن ياسمين هى المعادل النظرى لهذا التغير فى حياتى . أليس عمرها أربع سنين؟

ثم بدأ إحساس آخر أفظع ينمو في نفسى دون أن أشخصه أو أناقشه. أترانى وحدى التى تغيّرت؟ أما تغيّر أبواى وإياد أيضا ؟ لقد تسلل الزمن

بيننا وفصلنا. وياسمين التي لا تريدني في البيت هي عنوان هذا الفاصل فهي تجسّد في حياة أهلي كل ما لا أعرفه. وماذا أعرف؟ كانوا يحدثونني في رسائلهم عما يسمونه بالأحداث الأساسية وهي عادة أتفه الأشياء، أما الجوهر فماذا أعرف عنه؟ أربع سنوات من الصمت ثم أعود فأجد ياسمين في الرابعة. ترى لو كان لهذا التغير في أهلي صوت أما كان يصيح بي «اذهبي.. لا أريدك» تماما كما تصيح ياسمين؟ ولعله بدأ يصيح فعلا... أو هكذا أحسست.

***

مهما يكن فقد تعلقت بياسمين تعلقا يفوق التصور بحيث بات برودها إزائي يعكر صفائي ويشعرني بالغربة في بيتنا. وقد واصلت محاولاتي لتقريب المسافة بيني وبينها، وكنت أحيانا - حين تفشل أساليبي كلها في اكتساب صداقتها - أشعر بالضيق فأقول لها في حنق:

- ياسمين، أني لا أحبك، هل تسمعين؟

وكان يخيل الي أن موجة من الانفعال تسري في صفحة وجهها في هذه الحالات، وأن عينيها تختلجان لحظة ولكنّها سرعان ما تتمالك وتردّ متحدّية:

- لماذا لا تعودين إلى أمريكا إذن؟ لقد قلت لك إنك لست أختي وإنني لا أحبك.

وقد أخذت هذه المصاولات بيني وبينها تزداد يوماً بعد يوم وتدخل أحيانا طوراً جدّياً. وكانت أمي لا تخفي عجبها من أنني لم أتعلم في الخارج أن أكون أقل عاطفية فأمتلك القدرة على إدارة المواقف بدلا من الاستسلام لها. وكانت فوق كل شيء لا تدري كيف أكون قليلة الصبر إلى هذا الحد، وقد قالت لي مراراً إن مسألة حب الطفلة لي لا يمكن أن تعالج بهذه العصبية

وإنما تتطلب شيئا من ضبط النفس ريثما تألفني الصغيرة وتكف عن الشعور بأنني غريبة في البيت . ولكني بدأت أضيق بملاحظات أمي وأردها إلى «التغيّر» فيها. أتراني حقا غريبة هنا؟

غير أني مع ذلك واصلت محاولاتي الودية دون أن يداخلني اليأس من ياسمين . إنها أختي وأنا أحبها ولابد لها أن تبادلني المحبة يوماً. كنت أجيئها بلعبة بعد الظهر ثم أخاصمها على مائدة العشاء، وكان يؤذيني أشد الإيذاء أنها تتقبل اللعب وترفض الاقبال عليّ . وكم مرة احتج أبي على أنني أعكر جو المائدة باثارة معارك كلامية مع الطفلة. وكنت أحيانا أغيظها بأن أسحب صحنها من أمامها فتحني رأسها وتسكت رافضة الكلام أو التعليق أو حتى الاحتجاج . وكان كل هذا يضايق أمي التي بدأ صبرها يفرغ ولم تعد تدري كيف تحل هذا الاشكال القائم في الأسرة فلا ياسمين تحبني ولا أنا أكفّ عن التعلق بها.

والحق أن الصراع بيني وبين الصغيرة كان يشبه الحرب، وكان واضحا لكل فرد في البيت أن ياسمين تجد نوعاً من اللذة في عبارتها «اذهبي ، لا أريدك». وأما أنا فلم أعد أراها كما ينبغي أن أرى طفلة صغيرة مشاكسة وإنما تحولت في نظري الى إنسان مدرك يدري بما يصنع . باتت تلوح لي مبهمة، منيعة، وكأن سنواتها الأربع جدران قلعة حصينة تفصل بيني وبينها وتتركني واقفة وراء الأسوار . بات عالمها يكبر ويكبر حتى يلوح لي وكأنه الدنيا . وكان يغيظني أن الآخرين لا ينظرون جدّيا إلى الموضوع كما أنظر ... وقد يبتسمون و «يداهرونني»(١) مع أني متأثرة إلى أعماق نفسي.

ولم أكن أعقد معها هدنة قط ، وكثيرا ما كنت أمازحها باقتراحات مخيفة كأن أقول : «ياسمين! ما رأيك في أن أعطيك لهذا العامل الطويل وأسأله أن

(١) (يداهر) باللغة البغدادية يشاكس عامدا في محبة ودونما غرض سيء.

يبنيك في الجدار؟ إنك ستلوحين حلوة هناك». أو اقترح عليها أن أربطها الى المروحة الكهربائية فى سقف غرفتى وأتركها تدور . ولعلها كانت تدرك أن هذا مزاح، ولذلك كانت ترد ببرود وكأن مزاحى لا يستهويها : «أمى لا توافق». وكانت أمى تعاتبنى على هذا المزاح غير الفطن مع طفلة فى الرابعة من العمر . غير أنى لم أعد أفكر فى أن أكون «فطنة». كان برود ياسمين نحوى يغيظنى حتى أنسى أبسط القواعد . وهكذا مضت المعاكسات فى الجانبين تزداد حتى ضج أبى بالشكوى وبات يقول إنه لا يدرى حقا أينا هى الطفلة أنا أم ياسمين؟

***

ومضت أشهر دون أن يتغيَّر الموقف وبقيت مملكة ياسمين مقفلة فى وجهى حتى جاء الصيف ووقع حادث مؤثر غريب لا أنساه قط .

كانت ياسمين ترفض دخول غرفتى وقد خابت محاولاتى فى هذا الصدد جميعاً. وقد حدث بعد ظهر يوم حار أن دخلت غرفة أمى فوجدت الطفلة نائمة، وكان التيار الكهربائى فى المنزل قد انقطع لخلل فيه فتوقفت المروحة الكهربائية وعرقت الصغيرة عرقاً شديداً لم أحتمل أن أتركها تعانيه. وقد خطر لى أن أحملها الى غرفتى التى تتصل بجانب من الدورة الكهربائية لم ينقطع التيار فيه. وتذكرت فوراً أن ياسمين لا تحب غرفتى فليس من الحق أن أستغل نومها لأرغمها على دخولها، وقد اتهمت نفسى بأننى أستفيد من فرصة انقطاع التيار لآخذها الى غرفتى وأسعد برؤيتها هناك ولو نائمة. غير أن وجود حجة ظاهرية تبررها مصلحة الصغيرة نفسها قد أسكتت صوت (ضميرى) . إن كل ما أريده هو راحتها . وبعد أفليس فى إمكانها أن تنادر غرفتى عندما تستيقظ؟ إنى لن أكون سجّانا.

وهكذا كان، ووقع الحادث المبهم الذى لم أصل إلى تفسير مقنع له حتى اليوم . لقد كان واحداً من تلك الأحداث العابرة التى تلوح تافهة غير أنها فى الواقع ترتبط بصميم الأشياء فى حياتنا وسلوكنا ، كما أنها تترك فينا انطباعا عميقاً، وقد تغير مجرى حياتنا.

أذكر أن أمى لم تكن فى البيت فى تلك الظهيرة فقد صحبت أبى فى بعض الشؤون ، وأحسبها لو كانت موجودة لما وافقت حتى من أجل مصلحة ياسمين، أن آخذها إلي غرفتى وهى غافية مادامت بيننا هذه الحرب. ولكنّ الصدف التى قررت أن يقع الحادث أبعدت أمى عن البيت . لقد أرقدت أختى على سريرى وجلست أرقبها فى غبطة. كان وجهها مكتسيا بتلك الراحة المشرقة التى ترتسم على وجه طفل صحى نائم. وسرعان مارحت أقرأ وقد اطمأننت إلى أن كل شيء على ما يرام، وعندما انصرفت ساعة بدأت أستطيل نومها وأتخيل أنه امتد أكثر من المعتاد. غير أننى ردعت نفسى عن إيقاظها وقررت أن أمنحها نصف ساعة أخرى. ولكن نصف ساعة أخرى لم توقظ ياسمين .. لقد استمرت نائمة.

وبدأت أضيق . أى نوم ثقيل ، ياإلهى! ورحت أناديها باسمها وأمر بيدى على شعرها محاولة إيقاظها، ولكن بلا جدوى وعندما لم تتحرك بدأت أندهش فحملتها عن السرير وأجلستها على ركبتى وأنا أتوقع أن تفيق فوراً وتصيح بصوت مثقل بآثار النعاس : «دعينى.. لا أريدك» ولكن ظنى لم يتحقق وإنما مالت الصغيرة برأسها فى ارتخاء تام على كتفى وواصلت النوم. واعترانى قلق غامض عليها فجأة ، ورحت أشك فى طبيعة هذا النوم الغريب، ومن ثم فقد أعدتها إلى السرير وذهبت أبحث عن إياد لآخذ رأيه فى الموضوع. وقد وجدته فى الحديقة يرش الأشجار : وعندما لخصت له القضية

ابتسم ابتسامة ذات معنى وقال دون أن يلتفت كثيراً : «ماذا ؟ ياسمين أيضا؟ لماذا لا تدعينها تنام قليلا ؟ إنها تحتاج إلى النوم ». وقد غاظنى تعليقه غير أننى قررت مع نفسى أنه ربما كان مصيبا، فقد لعبت الطفلة كثيرا ولعلها تحتاج إلى مزيد من النوم.

وعدت إلى غرفتى أحاول القراءة من جديد على مقربة من الطفلة النائمة. ومضت عشر دقائق أخرى ثم لحظت شيئاً أعاد إلى القلق . لقد راحت حركة غريبة تختلج على جفنيها المطبقين، وكأن البؤبؤين خلفهما يتحركان حركة دائرية، وجَسَسْتُ كفها فإذا هى باردة كالثلج. ولم أعد أتردد. إن الصغيرة مريضة ومن الحماقة أن أردع قلقى ، ورحت أحاول إيقاظها من جديد واستعملت كل أسلوب فلم أنجح.

وأخيراً حملتها فى اضطراب وغادرت غرفتى إلى ردهة البيت وهناك لقينا إياد، وعندما رآها مرتخية على ذراعى لاح على وجهه قلق حاول أن يكتمه وتقدم نحوى بلا تعليق، وتناولها بين ذراعيه وجلس على أقرب كرسى وراح يلاطفها محاولا إيقاظها.

ولكن محاولاته لم تأت بنتيجة : لقد همس باسمها، لقد داعب جدائلها، لقد هزها من كتفها قليلا ، لقد أجلسها،.. مددها... سدى . إن ياسمين نائمة نوما غريبا يشبه الموت وهى ترفض أن تشعر بوجودنا، وسواء عندها أأرقدناها أم أجلسناها، وشعرت بألم عاصف يأخذ بنفسى، وخنقتنى دموع ترفض أن تتحدر ولم أعد أحسن التفكير . ألم يكن الأجدر بى أن أدير قرص التلفون واستدعى طبيب الأسرة ؟ وقد كان إياد أكثر جلدا منى فوضعها على ركبتى ونهض يستدعى أقرب طبيب. وفى طريقه إلى الباب تطلع إلى وجهى وحين رأى شحوبى قال لى فى رفق: «لاتخافى . أظنها

مصابة بإغماء».

لاتخافى! أيحسبنى خائفة؟ أنى أوشك أن أجن. لقد وقع لها هذا لأننى أخذتها إلي غرفتى وإذا حدث لها شيء فسأكون أنا المسئولة، أنا التى أحبها كل هذا الحب.

كانت الدقائق العشر التالية أهول لحظات حياتى وقد وتّر الانفعال الشديد خيالى فراحت صور شتى تتلاحق أمام عينى فى انتظام، وبرزت إلى سطح ذاكرتى حادثة صغيرة من طفولتى كان النسيان قد غلفها فى ثناياه سنين طويلة، فلم أتذكرها إلا فى تلك اللحظة الحرجة. تلك الدمية التى اشتروها لى وأنا صغيرة جدا، وكانت تتحرك بواسطة نابض فى داخلها، وفيما أنا ألعب بها وأرقب حركاتها توقف النابض فهمدت فجأة. لقد أحسست برهبة غامضة تجتاح نفسى وكأننى قتلت إنسانا ولم أفهم كيف وقفت الدمية فرحت أبكى صارخة فى هلع وأقبلت أمى على صراخى فوجدتنى فى حالٍ من الرعب يرثى لها . ماذا جاء بهذا الحادث الى ذاكرتى؟ وتطلعت إلى ياسمين الشاحبة شحوب الموتى وأحسست بالشعور القديم عينه، الحياة التى همدت وتوقفت حركتها بين يدى، أترى كابوس طفولتى قد تحقق؟ إنها ليست دمية هذه المرة وإنما هى أحب الناس وأعزهم . وانبجست دموعى وراحت تتحدر.

ولاح لى وجودها على ركبتى مؤلماً.. لقد كانت ترفض أن أحملها عندما كانت مملوءة بحرارة الحياة فلأهنأ الآن بها وهى هامدة زرقاء الشفتين. لقد كنت من الأنانية بحيث آليت أن أنال محبتها حتى لو كلفنى ذلك أن أخونها وهى نائمة فأسرقها إلى غرفتى. ألا يجوز أنها مرهفة الحسّ بحيث تمرض حين ترغم هكذا؟ ألا يجوز أنها تموت بإرادة خفية لا تفسرها تحليلاتى التى

أظنها مفتاح كل لغز؟ أتراني حسبت أن النائم لا يشعر بما حوله؟ أو ليس محتملاً أن تكون شعرت بأنها في غرفتي فتمردت بهذا الشئ، الإغماء أو الموت أو ما لا أدرى؟

وبقيت الوساوس تأكلني ولم يبد على الطفلة أى لون فى ألوان الحياة. وفى هذه اللحظة سمعت صوت أمى فأسرعت نحوها وقد لمع فى قلبى أمل عظيم. إنها أمى، أمها ولابد أن تنقذها. إذا كان حبى أنا لا يقوى على إيقاظها فلاريب فى أن حب أمى أقوى. وما كادت أمى ترانا حتى تغيّر وجهها وأدركت بإحساسها أن شيئاً خاصاً قد وقع. ومازلت أذكر الرنة الغريبة فى صوتها وهى تسأل: «مالها؟» وجاء جوابى فى صوت متوسل لا تفسر عبارتى نبرة البكاء فيه: «إنها نائمة....» ثم غصصت.

أكان وجود أمّى هو التأثير الفعلى فى أن الصغيرة بدأت تعود للحياة؟ لقد راحت تتنفس تنفساً عميقاً أولاً، ومالبث حتى استحال إلى تنهدات طويلة ونشيج محزن وآهات استمرت دقائق. ثم فاجأتنا بأن فتحت عينيها الواسعتين وراحت تحدق فينا وكأنها لا تعرف أيا منا. وأخيراً راحت تحدق فى الفراغ فوق كتف أمى تحديقاً ملياً ومالبثت أن صرخت صرخة عالية طويلة ودفعت أمى وبدأت تقف وتنظر إلى أعلى مواصلة الصراخ. وفى هذه اللحظة العصيبة انهار هدوء أمى وصاحت «طفلتى تموت. اركضى واستدعى الطبيب» وركضت حافية إلى حيث التلفون وعندما بلغته وقفت جامدة لا أدرى ما أصنع إنها تموت إذن،... وكان جسمى يرتعش وذهنى فارغاً.

وفى هذه اللحظة دخل إياد يصحبه طبيب من جيراننا فى الحى. وأفاقت ياسمين تماما بعد نصف ساعة وقد أخبرنا الطبيب أنها كانت مصابة بنوبة صرع.

... ...

... ...

وأما أنا فقد شعرت بإعياء شديد وانقباض فانسحبت إلى غرفتى وأغلقت بابها من الداخل. لم يكن فى وسعى أن أحلل شعورى غير أننى كنت أعانى فى داخل نفسى من شيء ما، شيء لا أستطيع تشخيصه ولا أظننى مررت به من قبل. لقد وضعت رأسى على مكتبى وبكيت دقائق دون أن أدرى لماذا تماما ولم أدر أيضا كيف غفوت وأنا فى وضعى غير المريح ذاك، ولكننى حلمت...

كان المكان كبيراً شاسعاً أشبه بمحطة قطار أمريكية مما يوجد فى المدن الكبيرة. وكانت معى حقائب ثقيلة، كثيرة . ثم أقبل انسان لم أميزه فى الحلم ووقف يكلمنى دقائق. وحين ذهب والتفت لم أجد حقائبى. كان مكانها فارغاً حين نظرت ولسبب ما أخافنى هذا الفرا غ، ولاح معارضا للمكان الذى كانت تملأه حقائبى العديدة. ورحت أبحث فى المحطة عن حقائبى، أصعد سلالم وأهبط أخرى، سلالم تجرى فى دوائر كابوسية الطبيعة . وكنت أرى حقائبى من بعيد كل مرة فائق من أننى سأصلها بمجرد أن أدور حول التواءة السلم. ولكن الدرجات كانت تنتهى فجأة بجدار يبزغ من الفرا غ وينتصب أمامى . أو يسلمنى السلم إلي انحناءة لولبية هابطة تجعل حقائبى أبعد مما ظننت . ثم انتهى إلى قاعة انتظار ويقف فى طريقى حمال زنجى طيب فيدلنى بلطف على حقائبى ولكنى حين أذهب إليها عبر السلالم أفقدها فى اللحظة الأخيرة ، ثم راحت الجدران تضيق وتتعاكس ، والممرات تتعقد وتطول والسلالم تشتبك وأنا لا أصل الى أى مكان قط . وكان المكان مملوءاً بالناس وكانوا يدلوننى مبتسمين على الطريق ويساعدوننى فلا يجدى هذا حتي فرغ صبرى ورحت اتصبب عرقاً ولم أعد أستطيع الكلام . ثم دوّى

شىء هائل وكأن قطارين قد اصطدما، واستفقت .

كان كابوسا ولا شك بسبب التواء عنقى وأنا نائمة على المكتب .

غير أن البكاء والنوم أعادا إلى شيئا من الهدوء وصفاء الذهن ، وفى الدقائق التالية واجهت نفسى مواجهة حقة وقد بزغ أمامى إدراك من ذلك الصنف الذى يغير الحياة أحيانا. إن القضية قد أصبحت واضحة . أنا مولعة بأختى وهى لا تطيقنى، وقد بلغت الأمور نهايتها العظمى هذا المساء ، وبات على أن أنسحب فوراً قبل فوات الأوان . لا معاكسات منذ اليوم ولا حلوى ولا دمى ،لا محاولات لادخالها غرفتى . ألم يثبت لى بعد أن الصرع أهون عليها من صحبتى؟

وماذا بعد ؟ هل يسرنى حقاً أن أرغمها إرغاماً على أن تحبنى؟ وما قيمة أخوة لا تنبثق انبثاق الأزهار حين تمس كؤوسها حرارة الشمس ؟ لقد رأيت ياسمين أول مرة فامتلأت بها نفسى وفاضت وتدفقت فلماذا لم تمتلئ نفسها بى قط ؟ لا ريب فى أن أخوّتى المبسوطة الذراعين كانت تتجه إلى ثلج وأنا لا أدرى . إن ياسمين هذه، على عذوبتها وجمالها، مرمر جامد لا تحركه صداقتى ، وسدى أحاول أن أعتصر قطرة حنان من هذه الصخرة.

أنا عاطفية؟ جائز. هذا ما تقوله أمى على الأقل . أم ترانى لا أحسن معاملة هذه الطفلة الغريبة الأطوار؟ لقد استنفذت الوسائل كلها وها أنا أدرك أنها عقدة مستحيلة ليس فى يدى أنا حلّها،.. إنها حاجز مستعص لا أستطيع أن اتخطّاه، أشبه بذلك الجدار الأصمّ الذى يبزغ من الفراغ فى أعماق الحلم.

وحين اقتنعت بأن فهم ياسمين شىء مستحيل بدأت أشعر بالهدوء . إنه ولا ريب شىء مريح أن نعلم أن مفتاح الأشياء المستعصية إنما يكمن خارج

حدود إرادتنا وجهدنا، واللحظة التي نصل فيها الى هذا الإدراك هى التى تحررنا من سطوة تلك الأشياء ومن طغيانها وتأثيرها فينا. وهكذا بدأت أحس أننى استقلٌ عن ياسيمن وخيّل إلىً أنّ فى إمكانى أن افترض أنها غير موجودة فى المنزل وكأنها لم تولد قط .

وما كدت أصل إلي هذه النقطة حتى شعرت بالسكينة تهبط وتبسط جناحها على روحى . إن فى وسعى الآن أن ابتسم إنى حرة.

***

وهكذا بدأت فى حياتى المنزلية فترة جديدة ، فلم أعد اقترب من ياسمين أو أكلمها لغير ضرورة محتومة، وكان هذا صعبا فى الأيام الأولى فقد ألفت أن أنشغل بها بحيث عزّ علىّ أن أبعدها عن تفكيرى فجأة. غير أنى واصلت هذا الفطام النفسى الصارم ورفضت أن أتساهل مع نفسى، ومالبث الألم حتّى بدأ يخف ويسير نحو التلاشى. وأما ياسمين فلم يبد عليها أن أى شىء قد تغير فى دنياها، على العكس، لقد باتت أوفر صحة ومرحا، ولاح عليها أنها مرتاحة لا ينقصها شىء، ومضى أسبوعان ..

وقد حدث فى هذه الفترة أن صبيّة عزيزة من أقاربنا قد ابتلعت، خلال نوبة ضحك، دبوسا كانت تلعب به فى فمها. ومالبث الفحص الشعاعى حتى كشف عن نتيجة غريبة. وإذا الدبوس قد استقر فى رئتها اليسرى وبدأ التنفس يصبح مؤلما . واستدعى الأمر عملية دقيقة تجرى فى لندن فورا . ولم يكن أهل الفتاة يحسنون الانجليزية فوقعوا فى إشكال وقصدونى يرجون فى إلحاح أن أصحبهم إلى إنجلترا لإجراء العملية . وجمعت حقيبتى الصغيرة على عجل ووجدتنى بعد يومين فى مطار بغداد بصحبة الفتاة وأمها .

وحين أزف الوداع ووصلت إلى ياسمين ترددت : هل أقبلها كما أقبل الآخرين ؟ وتذكرت حادث الصرع فردعت نفسي واكتفيت بأن أسلم عليها بعبارة صغيرة ثم أستدير متأثرة أكاد أبكى . إنها أختى على كل حال ، ومن السخف أن أعاملها هكذا فى لحظة وداع. ومن يدرى؟ لعلنا لن نلتقى ثانية قط ؟ ولم ترد ياسمين على تحيتى وإنما أخفت وجهها الصغير فى كتف أمى ولم ترفعه حتى غابت عن بصرى.

لم تطل إقامتى فى لندن أكثر من شهرين ، فقد نجحت العملية التى أجريت فور وصولنا، بعد إجراء الفحوص الأولية وبتنا نرقب المريضة تشفى يوما بعد يوم وهو أمر ترك لنا مجالا للتفكير فى الشؤون الأخرى الأقل أهمية ، وكان إياد يكتب إلى مرتين فى كل أسبوع وقد لفتت أخبار ياسمين نظرى . كان يخبرنى أنها باتت قليلة النشاط لا تتحرك كثيرا ولا تقبل على الأكل بشهية كما اعتادت . وسرعان ما ظهرت عليها أعراض الحصبة ، وكانت إصابتها شديدة وحين شفيت أصبحت كثيرة البكاء شديدة الإلحاح علي الأشياء الصغيرة حتى عجزت أمى عن إعادة الاشراق القديم إليها.

وكانت هذه الأنباء تؤلمنى وتقلقنى فأود لو كنت فى بغداد لأساعد بشىء ما على إدخال الفرح إلي نفسها. وقد أدركت إدراكا عارضا أن صوتها وهى تردد عبارتها الثابتة «اذهبى لا أريدك» كان ألطف من هذا الصمت الموحش فى شرفة المستشفى الوطنى بلندن ، ولم يخطر لى قط أن الطفلة مستوحشة من غيابى عن المنزل وأن وحشتها تبلغ هذا الحدّ . فقد رأيت من صدودها ونفورها ما جعلنى لا أحلم مطلقا أن تودّنى يوماً . لقد بات الوصول إلى القمر فى نظرى أقرب منالا من أن نكون أنا وهى أختين.

وفى ذات صباح تلقيت رسالة كبيرة من أمى وجدت فيها تفصيلا لأنباء

هزتني ولاحت لي غير معقولة . لقد بدأت ياسمين تسأل عني وتتخذ غيابي ذريعة لمواصلة البكاء ، والإلحاح علي طلب الأشياء الممنوعة عنها . ثم انفجرت ذات صباح وقالت بلهجة عصبية إنها لا تحب أحداً في البيت بمقدار ما تحبني أنا ، مَنْ أمي ؟ مَنْ أبي ؟ من إياد ؟ من (سيرسي)؟ وفي الأيام التالية باتت تسأل بلا انقطاع عن موعد عودتي إلى المنزل ، ثم سألت في تفجر طفولي رائع أن يكتبوا إليّ ويخبروني أنها تحبني أشد الحب وتريد أن أعود إلى البيت...

أي وقع قد كان لهذه الرسالة في نفسي : لقد وددت لو طوى الأسبوعان المتبقيان من إقامتي في لندن لأعود وأرى بنفسي معنى أن نكون أنا وياسمين على صفاء، لقد عشت معها في صراع مستمر تسعة أشهر من أجل أن تحسّ بأنني أختها وهاهي أخيرا تتفجر هذا التفجر الرائع .

***

في المطار يوم عودتي، كان وجه ياسمين أول وجه لمحته وراء السياج بين المستقبلين ، وتقدمت منها وتهيّبت أن أندفع وأحملها . وعندما ناديتها باسمها أخفت وجهها في كتف أمي التي كانت تحملها – تماما كما فعلت يوم سفري – وقال لها إياد في انفعال : «ياسمين ! هاهي وداد قد عادت كما أردت ... سلمي عليها ». ولم يجد هذا معها، ولم ترفع رأسها. ووجفت نفسي . إنها مازالت تنفر مني ولابدّ أن يكونوا خدعوني. ولكن لا ، لقد عيل صبر إياد فتناولها بقوة من أمي وأسلمني إياها. ولم تمانع ولكنها أخفت وجهها في كتفي وأبت أن ترفعه أو تقول لي أي شيء . على أنني لمحت طرف ابتسامة على صفحة وجهها . وانتبهت فجأة إلي أنها – لأول مرة منذ عرفتها – لم تصح «اذهبي لا أريدك» وبدأت أهدأ وأطمئن. ألم أعرف بعد أن

أصغر الأشياء وأبسطها تعنى بالنسبة لهذه الصغيرة القوية الشخصية أكبر المعانى؟

لقد حملتها وركضت بها فى المطار نحو الباب ، نحو البيت وقد نسيت حقائبى كليا . ولم أخجل من سخف منظرى وأنا أحمل هذه الطفلة وأركض وفى المكان كثير ممن يعرفوننى.

(١٩٥٨)

ظفائر السماء عالية

قال الصغير أسعد وهو يصفق في مرح :

– يا أولاد ، يابنات، أمي غير موجودة والبيت خالٍ، فلماذا لا نباشر في البحث عن الكنز؟

وسقطت كلمة الكنز على الصغار سقوط المطر على شجرات عطشى، وتعالت الأصوات من كل جهة:

– الكنز ، الكنز ، هيا نبحث عنه .

وصفّقوا جميعا إلا ندى فقد وقفت حائرة تحدّق في أوجه رفقائها من الأقرباء. أحسّت دون أن تدرى لماذا، أن قلبها قد انقبض. وتساءلت في نفسها: أتراها رهبة هذا البيت الكبير المتمادى في القدم، بزاوياه المظلمة، وأقبائه وأواوينه؟ هذا البيت الذى يزرع الكآبة في نفسها دون أن تشخّص مبعثها؟ بيت العائلة هذا الغريب الغامض الذى تجوبه الملائكة، والذى طالما سمعت عنه الحكايات المثيرة؟ وقالت لنفسها: «الكنز؟ وأين سنبحث عنه؟ ومن قال إن له أى وجود؟» ورأت نفسها تعبر عن أفكارها بصوت مسموع:

– جمال ! لا تشترك معهم في هذا العبث الصبياني. أنا أظن أن هذا الكنز أسطورة جميلة يكفينا أن نستمتع بقصتها في ليالي الشتاء وليس أكثر .

وخطا جمال نحو ندى أقرب أفراد الزمرة إلى نفسه وقال :

– متشائمة على العادة ياندى. لقد سمعتُ أبوىَّ وعمّاتى يقولون مراراً عديدة إن فى هذا البيت كنزا لا يعرف أحد موضعه وقد تحدر من الأجداد . وفى وسعنا نحن أن نبحث عنه . ومن يدريك أننا لن نكون الذين نعثر عليه؟

وردت عليه مجيبة:

– إنهم يقولون أشياء كثيرة، منها مثلا أن فى هذا البيت ملكاً صالحاً. كلكم تعرفون هذه القصة طبعاً.

وسأل مجدى مندهشا :

– ملك صالح ؟ عجيب، من قال هذا ؟ أنا لم أسمع به قط حكاية الكنز سمعتها مراراً، فمن يقول بوجود ملك صالح؟ اتجهت الأنظار إلى ندى وساد صمت إذ اندفعت تقول، وفى صوتها رعشة خفيفة لم يلاحظها الصغار:

– طبعا هناك ملك صالح . لقد قصت علىَّ عمتى فهيمة مراراً أنها رأتْهُ . كان يخرج من «البيتونة» أقصد الواحدة التى تنامون فيها صيفا يا مجدى . وهذا الملك لا يخرج إلا وقت الغروب، قالت عمتى أنه طويل القامة مشرق الوجه ينبعث من جبينه نور ويرتدى عمامة وجبّة نظيفة . يخرج ويأتى إلى حوض الماء ويتوضأ ، حتى إذا لاحظ أن عمتى قد رأته، خفض وجهه إلى الأرض وأسرع بالانصراف.

وصاح مجدى:

– كلام خرافة ياندى، هل تصدقين هذا ؟

– وأنت ؟ إذا كنت لا تصدّقه ، فلماذا تصدّق حكاية الكنز؟ كانت ندى فى أعماقها تخاف هذا الملك الصالح . ولم تكن فى الواقع تجرؤ على رفض تصديق ظهوره . وتذكرت عشرات المرّات التى كان يرعبها أن تسير وحدها فى المنزل الكبير عند الغروب فإذا سقطت ورقة جافة من أشجار النارنج فى

وسط الدار أجفلت وتلفتت ظانّة أنها خطى الملك الصالح الخفيفة الهادئة وهى تتبعها.

وصاح الصغير أسعد:-

- بالله عليكم، دعونا من هذا الملك الصالح. إن فى هذا البيت كنزاً فلنبحث عنه. تصوّروا أية سعادة سيحسّ بها أبى إذا ما عثرنا على كل ذلك الذهب وتلك المجوهرات ووضعناها بين يديه!

صفق الأولاد كلهم: أشرف وجمال ومجدى وخولة وإسماعيل وعبد الكريم وإنعام. إلا ندى فقد انكمشت وأحسّت بالكآبة تعتريها ثانية، دون أن تدرى من أين تطلع هذه الكآبة. كانت تحس دائماً أن بيتهم هذا تسرى فيه روح خفيّة. ربما كان جو القدم ورهبة الأجداد الذين سكنوه هو الذى يرعشها، فهى تستوحش كلما هبط المساء، وراح يخيل إليها أن الغرف تقذفها بالظلمات المسكونة. وقد اعتادت أن تبتعد فى سيرها عن الجدران كأن لتلك الجدران نفساً حيّة. كان سلوك ندى نحو كل مافى هذا المنزل ضرباً من الخشوع الطفوليّ المبهم الذى تحار فيه هى نفسها.

وصاح أشرف، أكبرهم، وهو يصفّق بيديه مرتين:-

- هيا، هيا، مالكم تقفون ولا تتحرّكون؟ إلى المطبخ أولاً. فأنا أظن أنه أفضل مكان يفكّر الأجداد أن يخفوا كنوزهم فيه.

وعاودت ندى الرعدة. المطبخ! أهو مطبخ ياإلهى أم قبو مظلم كبير يبنى فيه العنكبوت؟ كان امتداده المتطاول يبدو لها بلا نهاية فهو شاسع ومخيف. وطالما تساءلت ندى: لماذا أراده الجد الأعلى طويلاً هكذا؟ كل ما تعلم أنها تخاف المرور أمام هذا المطبخ فى الليل وترتعش وترتعد وتجرى. أما الأولاد الآخرون فاندفعوا فى ضجيج إلى المطبخ. نزلوا السلم قفزاً وركضاً، ونزلت

ندى في آخرهم ثم تجمعوا أمام تلك الفوهة الرهيبة ووقفوا جامدين لا يتحركون. لم يكن أحد منهم يريد الاعتراف بأنه يتوجس خيفة من دخول المطبخ الذى هجرته العائلة منذ زمن بعيد فلا أحد يطبخ فيه وإنما يستعملون غرفة في الطابق الثاني في مكانه. وانبرت خولة المنكّتة المرحة دائماً فقالت وهي تضحك:-

- يا أولاد: كم من أفعى ناعمة ممدودة اللسان تختبئ في هذا المطبخ. وإذا ما توغلتم بعيداً في ظلماته فستجدون في استقبالكم والترحيب بكم سبع عقارب.

وهتف عبد الكريم أخوها بصوته الطفولي:-

- أنت تمزحين يا خولة. ولكن تذكرى كم عقرباً قد لدغ خالتي فهيمة في هذا المطبخ.

عند هذا تقدم أخوهما إسماعيل الذى ألفه كلهم جريئاً مقداماً متقحماً لا يخشى شيئاً مطلقاً، فضلاً عن أنه عنصر الفكاهة والمرح بينهم دائماً، ذلك على الرغم من كآبة غريبة تكمن في تقاطيع وجهه الأسمر الشديد السمرة. صعد إسماعيل على درج السلم فصار مشرفاً على المجموعة كلها وصاح بلهجة خطابية فخمة:-

- أيها الأخوان! الظلام أمامكم، والعقارب والحيات وراء كم فأين المفر؟ أما والله إنه لابدّ من الوصول إلى هذا الكنز العظيم، وسأكون أوّل من يدخل المطبخ. فمن شاء أن يتبعني فليتبعني.

قال ذلك وقفز إلى الأرض وشقّ طريقه بين المجموعة ركضاً ودخل المطبخ واندفعوا كلّهم وراء ه إلاّ ندى التي بقيت واقفة وقالت لنفسها: ليس هذا أول مسلك غريب من إسماعيل ولعلّه إنما يدخل المطبخ بحثاً عن العقارب التي

يغرم بها. فكم من مرة ضبطناه صامتاً وحيداً وقد أدخل سبّابته فى أى ثقب يجده فى جدران هذا المنزل العتيق. ونسأله: يا إسماعيل، لماذا لا تشاركنا الحديث؟ فيردّ دون أن يضحك إنه يبحث عن العقارب. ما ترى سر ولعه بالعقارب؟ ولماذا كان هو الوحيد بيننا الذى اهتمّ عندما سمع أن قشور الباذنجان لو تركت فى علبة مغلقة شهراً تولدت منها العقارب. فقد قام باجراء التجربة وانتظره شهراً وفتح العلبة وكان حزنه بالغاً عندما لم يجد أية عقارب.

صاحت خولة من أعماق الظلمات فى المطبخ:-

- ندى! لماذا لا تدخلين معنا هنا؟ تعالى ولاتخافى.

وتقدمت ندى بحذر وخطت إلى داخل المطبخ. ولم تر أولاً أى شئ لشدة الظلام، وعندما ألفت عيناها العتمة رأت إسماعيل يحرّك طستاً كبيراً صدئاً مملوءاً بالتراب والأحجار.

وقال أسعد:-

- انتبهوا، ربما كان الكنز مدفوناً تحت هذه الأحجار. وهذا القدر المدوّر الكبير ماذا فيه ياترى؟

ووجدت ندى أنها أصبحت ترى بوضوح فتبصر كل الأشياء العتيقة المكدسة فى الجزء المظلم من المطبخ مما قد خلّفه أجداد لا علم لأحد بهم ولا بتفاصيل حياتهم. وشعرت ندى من جديد بإحساس غريب هو مزيج من الخشوع والدهشة والكآبة والحيرة أمام المجهول. خيّل إليها أن هذه الأوانى المعدنية والحجرية والفخارية تنطق بلغة لا تفهمها. وكان يبدو لها أن ليس لأحد الحق فى أن يلمسها. إنّ لهذه الأشياء مالكين وإن كانوا قد ذهبوا ولم يعد لهم حضور. وأحسّت ندى أول مرة فى حياتها بمعنى ذهاب الإنسان

وزواله. وإلى أين رحل هؤلاء الأجداد الذين خلفوا أشياء هم الصامتة هذه؟ إنهم قد ماتوا جميعاً، ماتوا ياندى، وحتى كنزهم المزعوم تركوه وحللنا نحن مكانهم وامتلكنا أشياء هم. وشعرت البنت الصغيرة بأن جسمها اقشعرّ وأن الحزن تسرب إلى نفسها.

وخلال ذلك كان الأقارب الصغار قد قلبوا أشياء كثيرة فى المطبخ بعد أن رقدت ساكنة عدداً غير معلوم من السنين. وعندما لم يجدوا شيئاً قال مجدى:

– يا إخوان! لا أظن جدّنا الحاج عطا يخفى ذهبا هنا. لعله دفنه فى سرداب السنّ؟

وعند هذا الاسم الأخير صدرت من الصغار كلهم شهقات خوف وهمهمات. وقال جمال:

– إذا كان الكنز «هناك» فلا أمل لنا. فلم يعرف قط أن دخل هذا السرداب أحد منذ أربعين سنة. قالت أمى مراراً أن العمة مريم قد أقفلت السرداب وأخفت مفتاحه لأن زوجها المسكين قد مات من الرعب فيه. ومنذ ذلك التاريخ البعيد لم يعد أحد يقترب منه.

وصاح إسماعيل مستهزئاً:

– هراء. أنا لا أخاف وعندى الاستعداد الكامل لا قتحامه فوراً.

وظهر الرعب على وجه أخته خولة وقالت وهى تشهق:–

– إسماعيل! إنك لمجنون. والله لو فعلتها لأخبرنّ أبى.

إنك لن تخرج حياً من سرداب السنّ.

وقال جمال وكأنه يريد أن يقفل باب المناقشة:

– لا تتخاصموا ياجماعة، فالسرداب على كل حال مقفل، وأنا فى الحق لا

أعتقد أن جدّى أخفى كنزه هناك. مارأيكم لو صعدنا إلى غرفة العمة زكية للبحث فيها؟

وهتف مجدى على عجل بلهجة قاطعة وهو ينفض يده من تراب «طاسة» مدورة كانت فى يديه:

– لا، لا، لا كنز هناك. وأفضل مكان للبحث هو «كبشكان» العمة فهيمة.

– لا هذا ولاذاك. أقصد الواحد المهجور الذى لم نره يفتح قط دائما نرى من نافذته خيوط العنكبوت ونسمح عنه الأقاصيص وردّ أشرف

– كلا، لو كان فيه كنز لما بقى مقفلاً كل هذه السنين، يا جماعة. لا أظن أجدادنا يخفون كنوزهم فى هذه الأماكن المهجورة. فلنبحث فى الغرف المأهولة. أظن غرفة نوم أمى أفضل مكان يوضع فيه الذهب. لعلنا لو حركنا السجادة فيها لوجدنا تحتها علامة تدلنا على مكان الكنز؟ إن هذه السجادة تنتمى إلى القرن التاسع عشر ونحن الآن فى عام ١٩٣٢

وقال جمال محتجاً:

– ولكنّ أمى ترفعها وتنظفها وتعيد فرشها كل شتاء.

– صحيح ما تقول. غير أن أمى مثل سائر الكبار لا تلاحظ العلامات التى قد تكون على الأرض. ونحن الصغار أكثر ملاحظه وأدق رؤية. هيا بنا إلى غرفة أمى الكنوز يكتشفها الصغار الأذكياء.

ولاح أن الجميع اقتنعوا. ولعلهم وجدوا فى هذا الحل مهرباً مما يجزعون منه وهو دخول الغرف المهجورة التى ينبعث منها غبار القدم وتعشش فيها عناكب المجهول. تلك الزوايا الموحشة المقفلة المليئة بأشياء لم يستعملها أحد منذ عشرات السنين. مهما يكن، فقد اندفعوا كلهم صاعدين إلى حيث غرفة النوم الكبيرة.

ولم يكن فى هذه الغرفة ما يخيف. غرفة واسعة مفروشة جدرانها منقوشة نقوشاً قديمةجميلة لاحدّ لدقتها وروعة ألوانها. ويتصدرها سرير الأبوين العالى الكبير. وعلى كل جدار منها، عند السقف، آية قرآنية مكتوبة بالخط الثلثى مثل «إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً» ومثل «ادخلوها بسلام آمنين». وتحفّ بالغرفة «روازين» ملونة بالنقوش. وكانت ندى تتذكر كلما رأت هذه الروازين المستطيلة تلك الليالى الجميلة التى كانت تضاء فيها بالشموع الكثيرة. وفى أعماق الليل يوقظ الكبار الأولاد للاحتفال بلحظة (دوران السنة) أو عيد النوروز. كانت هذه الليالى ترتبط فى ذاكرة ندى برائحة الكافور المحترق مع لهب الشموع. كما تقترن بخشخشة النقود، لأن الأهل كانوا يضعون فى يد كل صغير وصغيرة قروشاً قليلة ويسألونهم أن يحركوها فترن وتهسهس وهو أمر يبعث على التفاؤل، راجين أن تعطيهم السنة القادمة نقوداً كثيرة تنقذ الأسرة من العوز والعسر اللذين تعانى منهما فى هذا البيت البالى الكبير.

وراح الصغار الملهوفون يبحثون فى خبايا «الروازين» وتحت السجادة العتيقة وتحت السرير. صارت الغرفة كأنها خلية نحل فالكل يتحرك ويبحث وصاحت إنعام الصغيرة شقيقة ندى: «هذا هو الكنز. انظروا.» والتفوا حولها فوجدوا ورقة بالية تلف شيئاً ما. وأمسكوا أنفاسهم وفتحوها بأيد منفعلة فإذا فيها قطعة قماش قديمة تحتفظ بها أم أشرف تذكاراً من والدتها المتوفاة. وقال عبد الكريم الصغير:

– قلبى يحدثنى أن هذا الكنز لن يكون إلاّ فى «الأرسى» هيا بنا إلى هناك.

واندفعت الموجة الصبيانية كالريح الهوجاء. وبدأوا يقلبون كل شئ فى هذا «الأرسى»... لم يجدوا شيئاً. وصاح أشرف – يا جماعة. هذه الفجوة

الكبيرة الواطئة فى الجدار.. ألا تلفت النظر؟ فكروا. ما الهدف من وجودها هنا؟ ولماذا بناها الأجداد منخفضة هكذا؟ ولم كانت فارغة؟ ما رأيكم أن أدخل فيها وأبحث؟

قال مجدى متحمساً:

- إن سريرى يغطيها، هل نسحبه؟ وهتف جمال:

- طبعاً نسحبه. والحقيقة إن وجود هذه الفجوة الكبيرة غريب مع أنه لم يسبق أن لفت نظرنا أبداً.

وتعاونوا فى اندفاع محموم وجروا السرير الحديد، وقفز أشرف فى الفجوة ولامس رأسه سقفها وهتف وصوته يأتى مختنقاً:

- ياأولاد، يابنات، إن فى السقف فتحة غريبة جداً لم يسبق لنا أن اكتشفناها مطلقاً. هل ترون أن أدخل يدى فيها لأرى ما بداخلها؟ وصاحت خولة وهى جادة هذه المرة:

- احذر يا أشرف. لعل فيها عقرباً.

وانتهزها أخوها إسماعيل:

- يالك من جبانة. إنك لا تفكرين إلا فى العقارب والرعب يملك نفسك. هل نضيع الكنز خوفاً من عقرب؟ إذا لم تمدّ يدك يا أشرف فأنا مستعدٌ أن أفعل ذلك بدلك وسكت أشرف لحظات ولاح أنه أدخل رأسه فى الفتحة وأمسك الآخرون أنفاسهم وفجأة قال وصوته يأتى من بعيد

- أرى شيئاً كبيراً كالصخرة فى الداخل. انتظروا. لابد من أن أدخل يدى وأسحبه... يا إلهى... ما هذا؟ أنها صرة ضخمة فيها أشياء ثقيلة. ألا تسمعون؟ إنها تخشخش.

جاءت أصوات مختلفة: اسحبها ياأشرف. جرها بيدك. أسرع يا أشرف.

ماذا تنتظر؟ وأجاب أشرف

– إنها ثقيلة وبعيدة عن متناول يدى. صبراً. ها. بدأت تتحرك من مكانها. آه...آ... يا الله!

وفجأة أخرج يده وفيها صرّة كبيرة من قماش فخم مخطط ولكنه بالى الألوان من طول القدم. وتخاطفتها الأيدى المشتاقة وسرعان ما حملوها إلى السرير. وراحت الأيدى تتسابق فى فك العقد والأربطة حتى انفتحت الصرة وشهق الجميع ووقفوا مصعوقين مبهورين ساكتين وخدودهم تشتعل وعيونهم تومض بأشعة خاطفة. وكان أسعد أول من صاح:

– الذهب. الكنز. عثرنا على الكنز.

لقد لمعت أمام الأعين المندهشة غير المصدّقة مجموعة من القلائد الذهبية المحلاة باللؤلؤ، والخواتم ذات الفصوص الياقوت والأسورة، والزناديات، والخلاخيل الفضة المزينة بالشذر الأزرق، والظفائر. كان كل ذلك من الذهب الخالص. ذهب، ذهب كثير ومجوهرات تخطف البصر.

وحين زال أثر المفاجأة الأولى علا الضجيج بينهم وراح أسعد يرقص ويغنى

وجدنا الكنز، وجدنا الكنز.

وقال أشرف:

– انظروا، ما أجمل هذا السوار. أنه محلى بفصوص الشذر الزرقاء.

أما خولة فقد حملت فى يدها مجموعة من الظفائر الذهبية وهتفت مبهورة محمرة الوجه:

– ياالله! ما هذه ؟ إنى لم أر لها شبيهاً. من ترى كان يلبسها؟ وكيف تلبس؟ وأين؟

وكانت ندى قد رأت مثلها عند سيدة جارة للأسرة قالت إن زوجها أهداها لها عند زواجهما. وتذكرت أنه كان لهذه السيدة شعر أشقر طويل.
وقالت ندى لابنة عمتها خولة:

– هذه ظفائر تعلق بالشعر كل منها تجدل مع جديلة لبنت لها شعر مسترسل. ومن أعماق القلب هتفت خولة:

– يا إلهى، كم كنت أتمنى أن يكون لى شعر سبط طويل لألبسها ومع قصر شعرها حاولت تعليق إحدى الظفائر برأسها فسقطت من يدها على الأرض.

واختلجت ندى ورجعت إلى الوراء حطوة. قالت لنفسها:

– فظيع أن تلهو خولة وتسقط الظفيرة على الأرض. إنها ولا ريب ظفائر جدّتنا الحلوة عالية. وأعانتها هذه الظفائر على أن ترسم للجدّة الغامضة الجميلة صورة شعرية، فهى فى ذروة شبابها النضير، تتمخطر فى هذا المنزل، وقد تدلت فى شعرها الأسود المسترسل هذه الظفائر الذهبية الباهرة. وعلى العادة ارتفعت ندى بخيالاتها الصبيانية إلى آفاق روحية عالية. فقد كانت الجدّة عالية لدى ندى، المثل الأعلى للجمال والغموض والوداعة والسمو إلى مالا تدركه الصبية بسنواتها العشر

وطالما حلمت بها في الليالى الطويلة وهى مستلقية على ظهرها مفتوحة العينين. طالما تجسّمت عالية أمام خيالها شابة سمراء هندية مثل أمها، صغيرة الفم مدوّرة الوجه طويلة الشعر تلمح عيناها بسواد لا مثيل له. كان فيها، فى خيال ندى، سحر الهند بغاباتها وجبالها وغموض البحر بأمواجة الزرقاء اللانهائية. لأن السمراء عالية، كما تروى الأقاصيص العائلية التى سمعتها ندى من العمات الكبيرات، قد جاء ت من البحر، ولكم كانت ندى

تتعطش إلى رؤيتها. طالما سألت عنها الكبار فى الأسرة وجلست طويلاً تتسقط أخبارها فى ليالى الشتاء. وكانت تتحرق إلى رؤية ثوب من ثيابها الموشاة بالألوان الجميلة الساخنة القادمة من الهند.

وصاحت خولة:

– ندى، كيف تسرحين بذهنك ولا ترين جمال الظفيرة على شعرى؟

وبلهجة حالمة معاتبة همست ندى وصوتها مبحوح من الانفعال:

– إتركيها. لا تمسّى قداستها. إنها ولاشك ظفائر جدتنا عالية.

فلقد كان لها شعر أسود طويل منسدل علي كتفها. وكان هذا الذهب يلائم وجهها الأسمر ويعطيه إشراقاً وبريقاً.

ضحكت خولة وقالت:

– يا بنت خالى. إنك لا تنتهين من أحلامك بجدتنا عالية.

وفجأة مدت خولة كفيها وأمسكت بينهما وجه ندى وهزّتهُ عدة مرات وضحكت وهتفت:–

– أين تسبحين؟ فى أى ملكوت؟ لقد كانت حبيبتك جدتنا عالية يرحمها الله عجوزاً شمطاء ملحاحاً. ولو عاشت بضع عشرة سنة أخرى لأدركتها أنت نفسك ورأيت غضون وجهها الذابل وانحناء ظهرها وارتعاش يديها.

قالت هذا وقهقهت، واستفزّ ذلك ندى وجعل وجهها يحمر وتصيح:

– وهل رأيتها أنت لتقولى هذا؟ تذكرى أنك أصغر منى عاماً. ألقى هذه الظفائر، ألقيها بالله عليك يا خولة. إنها يجب ألا تلمس.

خلال ذلك كان «الأرسى» فى هرج ومرج. كل صبى وصبية يحمل فى يديه قطعة ذهب ويهتف بحماسة حيناً، ويهدأ حيناً. كانوا جميعاً فى هستريا من الذهول والفرح، وجوههم مبهورة محمرة وهم يتصايحون

ويدورون فى «الأرسى» الصغير. وأخيراً قال جمال

– اسمعوا يا أولاد. يجب أن نتعقل وندرك ما حصل. إن هذا الكنز كان – كما قال أبى مراراً – ضائعاً مفقوداً منذ سبعين عاماً أو أكثر. وقد كان جدى الحاج عطا نفسه يتحدث عن وجوده في البيت. وقد يئس آباؤنا وأمهاتنا من البحث عنه. ونحن اليوم قد عثرنا عليه، عثرنا عليه، أتفهمون معنى هذا؟

وعاد أسعد إلى الرقص المضحك وقال:

– اعترفوا جميعاً بأننى أنا الذي اقترح عليكم البحث عنه. الفضل لى، الفضل لى، الفضل لى.

وتوقف عن الرقص والغناء وقال:

– تذكروا أن أمى ستعطينى مكافأة كبيرة عندما تحضر.

وهتف أشرف:

– هراء يا صغير. أنا الجدير بالمكافأة لأننى الذى أستخرج الكنز من الحائط. وبيدى هاتين سحبت الصرّة وأسلمتكم إياها.

فالفضل لى لا لك.

وانبرى عبد الكريم وصاح محتجاً:–

– أما كنتُ أنا من اقترح عليكم البحث هنا في هذا الأرسى؟ أنتم قد تخبطتم طويلاً فى المطبخ وغرفة عمتى أم أشرف. ولولا فكرتى هذه لكنتم الآن أمواتاً فى سرداب السنّ.

قال ذلك وضحك بصوت عال ثم دقّ على صدره وصاح:

– الفضل لى، أنا عبد الكريم.

وعلى العادة كان المعتدل هو جمال الذى راح يقول:

- يا جماعتنا، لا تتنازعوا. الفضل لنا كلنا بمجموعنا، وسيكافئنا أهلنا مكافأة كبيرة. هاتوا قطع الكنز كلّها وأعيدوها إلى الصرّة، ولنجلس جميعنا في حراسة ثروتنا العظيمة هذه. إن اللصوص قد يداهموننا ويسرقون كنزنا كما تعلمون.

وجلسوا على الأسرة جميعاً، وراحوا يهزّون أرجلهم المدلاة في انفعال. وانتقلت ندى إلى عالم الحلم. لعلّ جدتها عالية غاضبة الآن، تطلّ في ضيق من عالم الموت. إنهم قد ابتذلوا ظفائرها التي رقدت آمنة في مخبأها كل هذه السنين. ثم خطر لندى خاطر. ماذا لو ظهرت هذه الجدة الجميلة الليلة في المنزل كما كان يظهر الملك الصالح والتقطت ظفائرها ومضت...؟ يا ألله... ليتها تدعني أراها لحظة واحدة.

وسأل أشرف وهو يفكر:

- ماذا ترى سيصنع أبي عندما نضع بين يديه هذا الكنز الليلة؟

تراه سيحقق فكرة معمل الثلج الذي يحلم بإنشائه؟

أما جمال فقد تساء ل:

- وهل يصح أن تبيع العائلة هذه القطع التذكارية البديعة؟

ووجدت ندى في هذا السؤال تشجيعاً لها على الكلام الذي كانت تخشاه، فإن الآخرين يعاكسونها لأنها حالمة وغير عمليّة. ولكنّ عبارة جمال شجعتها فقالت:

- مستحيل أن يبيعوها. إن فيها عطر الماضي الذي عاشه أجدادنا.

من يدرينا أن هذه الحلي لم تجي من الهند؟

ولم يفوت مجدي الفرصة وضحك وقال:

- رجعنا إلى خيالات ندى. قال من الهند. لعلك أيضا تتوهمين أنها كانت

مع والد جدتى عندما غرقت به السفينة فى المحيط الهندى وهى فى رأيى قصة أسطورية ولا حقيقة لها، يا أولاد! هل تصدّقونها؟

وانبرى أشرف يردّ بقوة:

– إنها ليست قصة خيالية. لقد غرقت به السفينة حقاً وتعلق بخشبة عائمة مدة عشر ساعات، حتى انتشلته سفينة أخرى وحملته إلى الهند. هذه أشياء نادرة الحدوث ولكنها ليست مستحيلة.

سخر مجدى وأزاح بيده خصلة شعر متدلية على جبينه، وأكد ثانية أن هذه خرافة لا تصدّق. أما ندى فعاودها الإحساس بأن تاريخ العائلة ملئ بالأسرار. وهاهم قد تركوا لأحفادهم هذا البيت وهو كله معميات وطلاسم. قالت لنفسها:

– إننا نسكنه منذ ولدنا ومع ذلك لا نعرف عنه إلا القليل. هناك غرف كثيرة وكبشكانات مغلقة منذ زمن بعيد، وكأنها الغرفة رقم أربعين فى تلك القصة من ألف ليلة حيث يعلقون الفتيات الجميلات من أهداب عيونهن. وهناك سرداب السن الرهيب الذى لا نعرف عنه إلا أنه شديد العمق تحت الأرض وقد مات فيه زوج العمة مريم من الرعب، وكلما مررنا به زلزلنا الخوف، وأحياناً نطل من الكوة الصغيرة التى نصبوها فى أعلاه، فلا نرى إلا الظلمات المخيفة، لا شئ غيرها.

وفى هذه اللحظة سمعوا الباب يقرع. وانتفض الكل كأن شيئاً مثيراً قد وقع. وقفز جمال راكضاً وصاح:

– إنها أمى، جاء ت أمىّ.

واندفع الجمع كلّه نحو الباب. ولم تتحرك ندى. وعندما خلا المكان اقتربت من الكنز ووقفت خاشعة أمامه. كانت تريد أن تبكى، لا تدرى لماذا؟ ومدت

يدها لتلمس الذهب ولكنها سحبتها مرتعدة. كان هناك شئ يبعث التهيب فى نفسها ويمنعها من اللمس. وبدأت قطرات من الدمع تترقرق فى أهدابها. وبكت بالفعل كعادتها كلما انفعلت. وخجلت من دموعها ومسحتها قبل أن يندفع الجمع عائداً إلى الغرفة. وصاح مجدى:

– حسناً فعلتياندى. كيف تركنا الكنز وركضنا كلنا؟ إنك كنت الحارسة. ولكن ماذا كنت تفعلين؟

وقالت خولة وهى تغمز بعينها:–

– تحلم بجدتها المحبوبة عالية، وتتخيل الظفائر الذهب متدلية من شعرها الأسود الطويل.

وسألت ندى ومازالت الدموع فى أهدابها:

– ولكن أين جدتى؟ ألم تجئ ؟

وأجابها جمال:

– أمّى؟ لا. إنه بائع النفط طرق الباب. وبهذه المناسبة، هل ترون من الحكمة أن نفاجئ أمى بالخبر؟ أم الأحسن أن نتفق على خطة؟

قال إسماعيل:

– بل المفاجأة، المفاجأة. مالكم لا تحبون المغامرات يا بنى قومى؟ إنى أحب أن أرى كيف سيكون وجهها عندما نباغتها بأننا قد عثرنا على الكنز المفقود منذ مائة عام.

وراحوا يتدارسون الموقف. وأصرّ أشرف وجمال وخولة على أن الأوفق التريث فى نقل النبأ العظيم إلى أم أشرف عندما تعود وأخيراً تنازل إسماعيل عن إصراره ووافق الكل على الخطة.

ولكنّ أم أشرف عندما جاء ت ودخلت المنزل رأت الكل واقفين فى الممر

أمام باب البيت. ولعلها رأت الانفعالات المتوهجة فى خدودهم، واللمعان الحار فى عيونهم فقد اعترتها الحيرة وسألت:

– ياأولاد، مالكم؟ إن هناك شيئاً تخفونه عنى. قولوا ماذا حدث؟ واندفعوا كلهم يتكلمون معاً

– لا شئ ياأمّى،... عمتى ليس من شئ مهم.... جدّتى لقد كنا نلعب... ادخلى يا أمى، ادخلى. إسماعيل، دعها تمر.

كانت العبارات متقطعة، انفعالية، مبهورة. وكان الكل يتحركون ويتراكضون حول أم أشرف. وصعدت إلى غرفتها فدخلوا وراء ها بمجموعهم. كانوا يجرون خلفها وأمامها عبر الممرات و«الطارمات» وتوقفت عن المسير، والتفتت إليهم وقالت بخوف:

– يا شياطين! هناك شئ مهم تخفونه عنى. قولوا ماذا؟ إنى قلقة.

وصاح أسعد باندفاع جارف:–

– أمى، لقد عثرنا على الكنز.

وأيده عبد الكريم:

– أجل يا عمتى. والله لقد وجدناه. الكنز الذى تبحثون عنه منذ ثمانين سنة.

وتصايح الباقون بلهجة غاضبة مؤنبة:

– أسعد، عبد الكريم. ما هذا السخف؟ ألم نتفق على عدم إخبارها؟

أما أم أشرف فقد شحب وجهها وصاحت بلهجة شكوى تدل على حزن له ماضى طويل:

– أى كنز يا أبالسة؟ وهل فى هذا البيت البالى كنوز متبقية؟ إنهم لم يتركوا لنا إلا الجدران العتيقة والغرف المقفلة المملوءة بالأحجار لا شك فى

أنكم تدبرون لى مـأزق بهـذا الذى تقـولونه. مـاذا تراكم فـعلتم فى غـيـابى؟ أخبرونى فوراً.

قال جمال:

– لا تجـزعى يا أمى واسـتـريحى. إنك قـد لا تصـدقين مـا نقـول ولكنه الحقيقة. لقد عثرنا على الكنز الذى تبحث عنه العائلة.

عند هذا قالت أمّه:

– هراء، هراء، فليس فى هذا البيت كنوز.

وقال أشرف:

– أنت لا تصـدّقين لطول اليـأس، ولكن تعـالى مـعنا يا أمّى إلى الأرسى لترى الذهب بنفسك.

صاحت الأم وهى تشهق:

– ذهب؟ أتقولون ذهب؟ يا ويلى إن كان ما تقولونه حقاً.

تعالوا وأرونى.

واندفعت أم أشرف مسرعة والأولاد يجرون ويتراكضون حولها فى انفعال شديد وترتفع الهتافات:

– قف، إسـمـاعيل، أنا أريهـا إياه... كـلا دعـوا الأمـر لى،... أسـعـد، لا تسبقنى، أنا أكبر منك سناً... عمتى، انتظرى حتى نخرجه من المخبأ.

وكان أشرف أول من أخرج الصرة من تحت السرير، ثم قلب كل ما فيها من ذهب على الفراش. عند هذا سقطت أم أشرف على السرير وصاحت فى انزعاج واضح:

– كنز يا سذّج؟ ويحكم لما صنعتم. إن هذه القطع الذهبـيـة أمـانة عندى أعطتنى إياها أم خليل لأحفظها لها خوفاً من اللصوص فى منطقتهم. وما

كان يخطر لى أبداً أنكم ستعثرون عليها. أما إنكم اشياطين.

ولكن أم أشرف بدأت، بعد زوال المفاجأة، ترى الجانب المضحك من الموضوع فراحت تضحك وتضحك وتداعب الصغار. كانت تمازحهم وتلاطفهم فلا يستجيبون. لقد غمرتهم خيبة حزينة على الحلم الباهر الذى تساقط تراباً. إنهم إذن لم يجدوا الكنز فيا ضياع الأمانى والأفراح. يا فرحة لم تتم. وإذن فليس هناك مستقبل من الغنى والثروة للأسرة. وسرعان ما أدركت أم أشرف إحساس هؤلاء الصغار، ومرارة الواقع الذى اصطدموا به، فامتلأ قلبها عطفاً عليهم وقالت:

– يا أحبابى، يا أعزائى، لا تصدّقوا أن في هذا العصر كنوزاً. كان ذلك فى قصص ألف ليلة وليلة. وما من ثروات مدفونة فى بيتكم البالى هذا. وحتى لو تألمتم وحزنتم فلابد لكم أن تجابهوا الواقع. نحن فقراء وليست لنا كنوز.

ولكنّ الأولاد واصلوا كآبتهم وصمتهم. واستمروا جالسين على الأسرة وعلامات القنوط واضحة فى حركاتهم كلها. حتى أرجلهم المتدلية لم تعد تتحرّك.

وتسللت ندى من الأرسى إلى الخارج حيث «الطارمة» الواسعة المطلة على باحة المنزل. كان الغروب قد بدأ يظلم. وأحسّت الصبية بحاجة إلى البكاء المرّ. وبالفعل راحت تبكى. هى أيضاً خابت كما خابوا ولكنّها تعلم أن خيبتها تختلف عن خيبة الآخرين. فهى قد فقدت الحلم الذى عاشت تحلم به: سرّ واحد من أسرار هذا البيت الغامض، الغريب، المجهول. ظفيرة واحدة من ظفائر الحبيبة عالية. لقد امتلأت أمسيتها بهذه الظفائر وأعطتها كنوز السر، وفتحت لها عوالم مسحورة، نوافذ تطل على بحار الأحلام.

وإذا جدتها أم أشرف تجئ وتكسر الغصن الأخضر فى قسوة بالغة. إنها قد اغلقت نافذة المجهول، يا ألهى، لماذا تخيب الأحلام هكذا دائماً؟ لماذا؟ لماذا؟

بدأ الظلام يحلك فى باحة المنزل. ولاحت شجرات النارنج راكدة راكدة لا حركة على أغصانها. وصارت اللواوين والمطبخ والحمام المهجور تقذف ظلاماً مخيفاً. وشعرت ندى أنها تحتاج إلى جمال الذى يكبرها بعام واحد، من بين الصغار فهو الوحيد الذى يفهمها وفى لحظة استجاب الله لرغبتها وجاء جمال ووقف إلى جوارها وقال

– ندى! إن من السخف أن نجزع لما حصل.

كان يحاول أن يسترجع ذاته ويعين ابنة أخته العزيزة على العودة إلى الواقع. وأدركت ندى أنهما لن يستطيعا أن يزيحا الظل من نفسيهما هذا المساء. وكانت فى هذا الإدراك أكثر واقعية منه.

وشهدهما الليل الجديد يجلسان كئيبين على الدكة الخشبية القائمة فى أول الأرسى، صغيرين، حائرين يفكران أول مرة فى حياتهما أن الحياة قد تكون مرارة خالصة أحياناً. عندما يتكسر الحلم إلى عشرين شظية.

واستمرّ الصغيران صامتين، ومرّت الظلمة وداعبت رأسيهما.

كانت صامتة هى الأخرى مثل جمال، مثل ندى، مثل البيت الكبير الغامض كله.

ومرّت نسمة باردة حركت غصناً فى شجرة النارنج فسقطت نارنجة كبيرة على الأرض. ثم ساد صمت كامل.

(١٩٧٤)

منحدر التل

كنا متجمعين فى الغرفة الكبرى، أبى ملتفّ بعباء ته وبيده مسبحته يلعب بحبّاتها ويردد بين الحين والحين :

ـ لا حول ولاقوّة إلاّ بالله.

ومن بعيد كانت تأتينا أصوات رصاص متناثر يشتدّ حيناً ثم يخفت . فعلى حدود قريتنا يربض اليهود، وقد بدأ حديث الرحيل والجلاء يصبح جدّيّاً بالنسبة لنا لأول مّرة أصبحت جدران بيتنا تبدو لى وكأنها تصمت وتبرد وتدير وجهها عنى ... يجب أن نرحل عن قريتنا قرية أبى وقرية عامر وسميّة وهدى . نرحل إلى مستقبل مبهم تخفيه الظلال . يؤكد ذلك لنا صوت ابن عمتى البدين كمال وقد عاد منذ دقائق يلهث من قرب الحدود وأقسم لنا أقساماً مغلظة أنه شهد بعينيه سعيد البستانى العجوز قتيلاً هو وابنته فاطمة أبشع قتلة . ثم قال لنا بانفعال إن الجيران يجمعون الثمين فى مقتنياتهم ويرحلون، وسرعان ما سوف تخلو القرية فلا بدّ لنا أن نتخلى عن كل أمل فى البقاء . وخطر لى أن كمال يكذب على عادته، فما ألفنا منه الصدق إلا نادراً . غير أن الرصاص الذى كان ينثال فى الظلمات كذّب أملى هذا ، وارتفع صوت أبى فى لهجة إذعان وتسليم :

ـ لابدّ من الرحيل إذن . سميّة، هيئى لكل منا بطانيّة ووسادة فقد نضطر إلى أن ننام فى الحقول . ورأيت وجه أختى سميّة يشحب ولكنها لم تتكلم .

المشكلة دائما مشكلة أختي الصغرى هدى التي صاحت بلهجة متأججة

ـ بابا، أو حقاً؟ هل سنرحل ..؟

وأجابها ابن عمتي بلهجة قاطعة وصريحة:

ـ طبعا ترحلون، لا مفرّ من ذلك. إن القرية مكشوفه جنوباً، وفي مساء الغد ـ على أبعد تقدير ـ لن يمكن لكم أن تغادروا لأن هذا البيت سيكون في أيدي اليهود وانهارت أعصاب هدى وارتمت فيِ حضنيِ باكية بصوت عالٍ . وشعرت بأنني أريد أن أبكي معها أحرّ بكاء، غير أنني صررتُ بأسناني ورحت أربت على كتفها ونظرت في وجه كمال وتمنيت لو أنه كان يكذب علينا هذه المرة أيضاً . فهل نترك قريتنا، مسقط رؤوسنا وبيتنا الحلو الصغير وكرومنا المتعرّشة على النوافذ العتيقة ؟ وأصحاني شهيق هدى وارتعاشها، أختي التي ستَتشرّد وهيِ فيِ الثالثة عشرة.

وقالت سميّة فجأة وقد أفاقت من المفاجأة وانتصبت بثباتها المألوف:ـ

ـ بطانية ووسادة لكل واحد . وأنت يا كمال؟ أتذهب معنا؟

كلا . كمال لايريد أن يذهب. إنه يريد أن يقاتل . وعجبت له في نفسي . مالذي يربط مثله إلى قريتنا؟ لقد كان طوال حياته إنساناً هوائياً عابثا، مروّج إشاعات، وخالق مشاحنات. وما كان فيه شيء يُحَبّ إلا قلبه الطيب وحنانه الفائض، فكيف ترى انقلب جندياً غيورا على فلسطين كلها؟ أما إنها لمعجزة . لقد هذبته المأساة على شكل مذهل .

وجاء أخي عامر وجلس إلى جواري وأخذ بيد هدى . ولاح في صوته جفاف رغم ولعه الشديد بهدى :

ـ عزيزتي، يجب أن تكوني كبيرة وتكفيّ عن البكاء . إن أمامنا الليلة سيراً طويلاً على الأقدام ولابدّ لك من الشجاعة .

ولكن هدى زادت نشيجا وكررت السؤال بصوت أعلى :

ـ ولكن هل نرحل حقاً؟ أنترك بيتنا

وفي هذه اللحظة بدأ أبي يبكي وينتحب . إن هناك شيئا لا يحتمل في بكاء رجل شيخ. ونهض عامر وغادر الغرفة على عجل . أما هدى فسكتت عن بكائها وركضت إلى الغرفة المجاورة وجاء ت أبي بكوب ماء، وهدأت القاعة بدخول سميّة وهي تحمل مجموعة من البطانيات والوسائد، ألقتها في وسط الغرفة . ذلك وجه الواقع يطلّ علينا ، ولابدّ لنا أن نحدّق فيه ونسكت عواطفنا . ونهضت لأساعد سمية على ربط الأشياء بحبل . واعترض كمال:ـ

ـ لاتربطيها. إن كلاً منكم سيحمل بطانيته ووسادته .

ـ وصاحت هدى بانفعال:

ـ والفرس؟ ديدى؟هل نتركها هنا ؟

وتلكأت ثم أضافت :ـ

ـ لليهود؟ إنهم سيقتلونها بقنابلهم

قالت ذلك ثم ارتمت على كتف أبي وعادت إلى النشيج . وربت أبي على رأسها وقال لها وهو يبكي معها:

ـ لاياغاليتي. سوف تأخذين ديدى معك .

وسألت سميّة متى نبدأ الرحيل؟ فأجاب كمال إننا ننتظر صافرة الانذار فقد حددت السلطة العربية نقطة على الحدود إذا تخطاها العدوّ وجب على السكان العرب أن يرحلوا. وساد الصمت دقائق وابتعد كل منا عن الآخر مسافات . وجلست سمية صامتة لا يبدو عليها أيّ شيء . ماذا تراها ستفعل بكتبها العديدة؟ إننا ندري بأنها أعز شيء لديها، وليس في وسعها

أن تحمل منها شيئاً. ولكنى لم أجرؤ على سؤالها خوفاً من أن نبكى كلّنا . فماذا نترك من بيتنا وماذا ندع؟ كل ما هو لنا الآن من ذكريات وأشياء سوف يغيب عنا مدة لا نعرفها . لعلنا سنغيب شهرا؟ سنة؟ لعل أشياء نا ستصبح ملكا لسوانا؟ وفي مثل هذه الساعة من مساء الغد ستكون غرفتنا هذه باردة يدوسها غرباء لم نفتح لهم الباب ولم نبادلهم قط أيِ شيء وأدرتُ رأسيِ وتمنيتُ لو أن هدى عادت إلى البكاء لعلّ الغرفة تكون ملكا لى لحظات أخرى . إنما نمتلك غرفنا وبيوتنا لأن أصوات أهلنا تتردد فيها، ولو بالكباء والعويل . وحين يتبدد الصوت تصبح الجدران موحشة وتطردنا من الجنة .

وفجأة خطف فى نفسيِ شعاع . من قال إننا سنرحل؟ ألا يجوز أن يتغيّر الموقف فجأة؟ إن صافرة الإنذار هذه قد لا تنطلق قط، ومن يدرى أن نجدة ما من الجيوش العربية لن تأتى لتحمى قريتنا؟ أما يقال إن الجيش المصرىّ يرابط جنوباً على مسافة خمسين كيلومترا؟

وقاطعتنى ضجة مفاجئة خارج بابنا ، وصوت عامر يرتفع بينها. وقبل أن أتبينّ أىّ شيءٍ قفزت هدى كالغزال وهى تصيح :

ـ جاء سمير ونادرة

وقبل أن ينجلي الموضوع قال أبى متشائماً وهو يضرب بيديه على ركبتيه:

ـ ياإلهى، ولديِ وأسرته يجيئوننا لاجئين.

وكان ذلك حقاً، لقد جاءونا من القرى المجاورة التى كنا نحسبها آمنة. وسرعان ما أخبرنا سمير أن العدوّ أحرق مزرعتهم وأنهم تركوها ولم يستطيعوا إنقاذ الفرسين والبقرات الثلاث فكان صياحها وهلعها يقطع نياط القلب . والتفتنا فجأة إلى باسم الصغير، ابن أخى، وكان واقفاً عند الباب

بانكسار فلم يألف أن يأتينا ولا نطير فرحا برؤيته وأسرعتُ إليه وحملته على ركبتى فرأيت فى وجهه خوفا مستجيراً فرحت ألاطفة وأحاول جهد طاقتى أن أنسيه المشاهد المحزنة التى رآها وكنت أحسب أن صياح الحيوانات قد آلمه فهو طفل حسّاس جداً عادة غير أن هلعه كان ينبع من جهة ثانية:

ـ سعاد، هل تخافين من ابن آوى؟

ـ إنه حيوان مزعج يا عزيزى، ولكنا يجب ألاّ نخاف منه وقد قالت: على عجل وبلهجة قاطعة:ـ

ـ إنيِ أخاف منه. بابا يقول إنه يأتى أحيانا الى حوض الماء فى مزرعتنا ويشرب. وعندما يعوى وأسمعه أخاف وأخفى رأسى تحت الوسادة .

كان يتكلم بفزع . وخطر لىِ أن رعبه من صياح البقرات المسكينة التى حاصرتها النيران قد تحول إلى ذكريات خوفه من ابن آوى فالأطفال يمزجون بين ذكرياتهم وعواطفهم وكأن الوجود يبدو لهم أكبر من أن ينقسم إلى تفاصيل . وتذكرت حادثاً من طفولتى عندما احترق صديقى جهادِ وراح يركض فى صحن الدار وثيابه تشتعل فاستولى علىّ الرعب ورحت أبكى وأصرخ حذائى ، حذائى سيحترق» . هذا عين ما يقع الآن لصغيرنا باسم . وفجأة قال سمير:

ـ على كل حال ، لقد أخبرنى الجنود العرب على الحدود أن العدوّ قد تراجع مسافة عن هذه القرية

وحدثت ضجة بيننا وأحطنا به نسأل . يا إلهى . إذن كان ذلك الشعاع الذى لمع فى قلبى صادقا؟ إذن لن نرحل عن قريتنا . والليلة على الأقل سأنام فى غرفتنا أنا وهدى، وسألمس وسادتىِ بخدّى وأرى عريش العنب من النافذة، ويصهل الفرس ويبدد السكون بصوته المألوف، وأسمع ديكنا يوقّت

بحرارة وحماسة ساعات الليل البطيئة: ولاحظنا فجأة أن الرصاص قد انقطع فقوّى ذلك آمالنا وأسند فرحنا . ومرّ بنا الخفير وبشرنا بانسحاب الجيش اليهودى وعندما سألناه عن مصدر الخبر قال إن الناس كلهم يتحدثون به . وفجأة رحت أنا أبكى أول مرّة وتدحرجت دموع حارة غزيرة على وجهى فنهضت وفتحت النافذة لأتنفس بحريّة، فرأيت القمر مشرقا وبساتين البرتقال مغرقة بفيض من الضياء .

نصف الليل ، وكمال ينصرف إلى منزله المجاور طالباً إلينا أن ننام لننال قسطاً من الراحة بعد كل تلك الانفعالات . وفى غرفتى قلت لنفسى إن قريتنا مازالت ملكاً لنا . ومن النافذة التى تطل على الساحة الخلفية رأيت هدى، أختى الحبيبة تتسلل لتطمئن على راحة فرسها المحبوبة ديدى . ونام الآخرون إلا سميّة التى تقع غرفتها هى وعامر فوق غرفتى، فقد بقيت أسمعها تتحرك وكأنها تقوم بعمل متواصل . وطُرّق باب غرفتى وأطلّ عامر برأسه وفى يده فرشاة الأسنان:

ـ سعاد . لقد انداح العدوّ حقاً. جاء الخفير الآن وأعلمنى بذلك .

وسألته أن يطلب إلى سميّة أن تنام . ثم أطفأت الضوء وسقطت فى غفوة عميقة مطمئنة.

* * * *

كان صوتاً موحشاً طويل النبرة يقطع السكون ويتكرر . وأفقت من نومى فزعة وسمعتُ نقراً عصبيًا على زجاج النافذة: «سعاد ، سعاد، استيقظى»

وفركتُ عينى ومددت يدى إلى زر الكهرباء وأشعلته . ثم فتحت النافذة القائمة إلى جوار سريرى:

ـ سميّة، ماذا حَدَث؟

وسمعت صوتها يرتعش

ـ إنها صافرة الإنذار.

ولم أفهم أول وهلة، وتبلّد إحساسى وذهنى . صافرة الإنذار؟ من أجل ماذا ؟ ولكنى تذكرت بعد لحظة . وأدركت أننا سنرحل ولم ألق أية أسئلة وإنما نهضت فوراً ورحت أغيّر ثيابى. لاح لِي الرحيل الآن طبيعياً ومعقولاً . ورأيت بعين الخيال قافلتنا تتسلقّ التلال الموحشة المجاورة، وأهمّنى أمر أبى الشيخ فحرت كيف سيسير تلك المسيرة الطويلة . وجاء عامر راكضا وصاح بى:

ـ هل انتهيت ؟ أين هدى؟ إن الوقت ضيقّ والرصاص يقترب.

ثم ذهب على عجل كما جاء . كنت أعمل بسرعة ولكن حزنى كان بطيئا يتبع مقياساً آخر . وسقطت عينى على مختلف الأشياء فى غرفتنا. كل ما جمعته منذ طفولتيِ وأعطيته من نفسى وذاكرتى. لا! هذا ليس لى ولست أملك أكثر من البطانية والوسادة. إن علىّ أن أساعد فى حمل طفلىِ أخى فهما أثمن من كل شىء يُحْمل .

ثم عادت صافرة الإنذار تصرخ صراخاً مفزعاً أشد مما صرخت أوّلاً، واختلط بها دوىّ رصاص وقنابل وأحسست بقشعريرة باردة تسرى فى ظهرى . ولاح لِي السؤال بليدا: لماذا يأتى اليهود ويأخذون أرضنا وبيوتنا فى أعماق الليل؟

وجاء ت هدى وهيِ تحمل أسامة الابن الأصغر لأخى .

كانت مبتسمة ، عالية الروح ، وكأن دنوّ ساعة المحذور قد أزال دموعها . وسألت إن كان هناك ماتساعدنيِ به فأرسلتها إلى نادرة زوجة أخى . لقد آثرت أن أكون وحيدة لحظات قبل أن نرحل . ولم آخذ من غرفتى إلا قرآنا

ذهبيًا ذا سلسلة كانت أمي قد أهدتني إياه في آخر سنة من حياتها. فشددته حول عنقي وغادرت الغرفة بعد أن أطفأت الضوء. ووقفتُ في الباب وتساءلتُ: هل أقفلها؟ وكأنني نسيت أنها لم تعد ملكي. ولكني أخيراً أقفلتها. كانت الأكرة باردة جداً وقد تراكمت رطوبة الليل عليها. وشعرت وأنا أغلق الباب أنني أقفل قفل فلسطين كلها وأقف مطرودة من الجنة. وألصقت خدي المشتعل بالخشب البارد. وتحدرت عبرات ساخنة على وجهي وسالت في عنقي ودخلت في سلسلة القرآن. وداخلني شوق مفاجيء إلى أمي التي ماتت من عشر سنين وسمعت نفسي أبكي وأكرر: «ماما ... ماما ...» وارتفع صوت خطوات خفيفة سريعة خلفي فالتفتُّ. ذلك باسم الصغير وقد ارتدى ملابسه كاملة وأقبل عليَّ:

ـ سعاد، لماذا تقفين هكذا؟

كان صوته دافئاً، مملوءاً بالحنان. ترى يستشعر طفل عمره أربع سنوات ألم الرحيل؟ وانحنيت وحملته بين ذراعي وأنا أشعر أن مجيئه في تلكم اللحظة كان عناية إلهية، أو كأن أمي تستجيب لهتافي. وحين شعر بدموعي على وجهه لاحت نظرة خوف عليه وسألني متردداً:

ـ لماذا تبكين؟

ولم أجد شيئًا أردّ به فقلت له:

ـ لأنني يا عزيزي هنا وحدي.

فما كان منه إلا أن طوقني بذارعيه الصغيرتين وهتف:

ـ ولكنني جئت إليك. إنني أحبكّ.

وأخرجت المفتاح من الباب وسرتُ. وبقي باسم ساكتاً ونحن نخترق القسم الخارجي من المنزل. وقلت لنفسي إن كل الاشياء التي سنتركها هنا

هينة ما دام هذا الصغير سالماً آمنا ومادمنا أحياء جميعاً لم يقتل منا أحد والحمد لله. إن عليَّ الآن أن أحرص على سلامة هذا الصغيرالبرىء الذى لايدرى على حافة أى مستقبل مظلم يقف الليلة ونحن نغادر وطننا هاربين

ورأيت أهلى متجمعين في الظلام ينتظروننى .. كان كل منهم يحمل بطانية ووسادة تحت ذراعه، وقد جاء كمال مودّعاً ومساعداً . كان الفرس مسرجاً وقد حملوا عليه بعض الطعام والماء وملابس للصغيرين. وأنزلتُ باسم إلى الأرض وقال أبى مصدراً أوامره على عادته:

ـ تعاونوا على حمل الأشياء ولاتثقلوا الفرس، سمير، أنت سوف تحمل باسم .

وانبرى باسم وقال بلهجة عصبيّة محتجة:

ـ وأنا ماذا سأحمل ياجدّيِ؟

لقد أصرّ على أن يحمل شيئا ما هو أيضاً . وكنا ندريِ أنه عنيد والوقت ضيق، فقررنا أن ننزل عند رغبته . واقترحت أمّه أن يحمل فرسه الخشبى الصغير، ولكنهّ رفض ذلك بإباء وأراد أن يحمل شيئا نافعا يساعدنا به .. وسرعان ما صاح

ـ عرفت يا ماما . سأحمل زجاجة أسامة. ألن نسقيه الحليب عندما يجوع فى الطريق؟

وقالت أمّه بلهجة صارمة:ـ

ـ كل شىء إلا هذا،لن تحمل الزجاجة أنت . إنك سوف تكسرها فيبقى «أس أس» جائعا.

وكانت مفاجأة لنا أنّ باسما انفجر يبكى بكاء صارخا وأنحنى أبى وحمله بين ذراعيه:

ـ ولكن ما بك يا حبيبنا؟ ألم نقل إنّ الولد العربى لايبكى أبداً؟

وأجاب وهو يواصل البكاء وكلماته تنقطع:

ـ إن الولد العربيّ ... يساعد الناس ... فلماذا لا أساعدكم ؟ وهمست نادرة لي؟

ـ لقد بدأ يصبح حساساً منذ غادرنا منزلنا وسمع صراخ الحيوانات ورأى الحريق. خير لنا أن نجازف ونعطيه الزجاجة إن هناك واحدة أخرى احتياطية، سأضعها فى خرج الفرس.

وشعرتُ بحرقة ألم تعبر فيِ قلبيِ، الصغار إذن يشعرون بألم الرحيل وإن لم يدركوا ذلك تماماً . أترى باسم يبكى من أجل الزجاجة حقا؟ أم أنه يتعلل ليبكى الرحيل ومشهد التوديع؟ وفى هذه اللحظة ذهبت إليه أمّه بالزجاجة ومرّت بسبابتها على خدّه وجرفت قطرات الدمع عنه وقالت له وهى «تدلّعة»:

ـ هل هو يبكى حقاً؟ تراه صغيرا مثل أسامة إذن؟ هانحن نعطيه الزجاجة على كل حال ولسوف يساعدنا على حملها لأن الولد العربى، كما قال لنا جديِ، يساعد الناس . إنه ولد باسل .

وشهق الصغير شهيقاً متقطعاً وكأنه عاصفة قد بدأت تهدأ ثم تنهد وقال بلهجة جازمة:

ـ إنى كبير

ـ ولكنّك لن تكسر هذه الزجاجة. هل تعد ماما؟

قالت ذلك وقدمتها له فتلقّفها بلهفة وقال:ـ

ـ كلا . سأمسكها بيدىّ الاثنتين.

ثم أطبق أصابعه السمراء على الزجاجة. ولعل هذا المشهد قد استثار عواطف كمال فاندفع ينشج وقال بصوت مخنوق بالعبرات

ـ اذهبوا ، يحرسكم الله . إني باق هنا وسأقاتل. ولسوف تعودون كلكم قريباً. هذه أرضنا وحقولنا ولن نعطيها لليهود. وردّ أبى بلهجة متشائمة:ـ

ـ إن شاء الله.

وانهال وابل من الرصاص فى تلك اللحظة من نقطة قريبة وفزع الفرس فصهل عالياً ووقف على قائمتيه الخلفتين، وتدحرج الحصان الخشبى وانكسر الى قطعتين . وصاح أبى:

ـ كل لحظة نقضيها هنا تقربنا من الخطر فلنرحل فوراً . أين سميّة؟ لماذا لم تحضر بعد؟

وأسرعت إلى غرفتها فى الطابق الثانى فرأيتها تقفل حقيبة يدوية صغيرة وفي ملامحها أسىً عميق لم أر له مثيلاً سابقاً فى وجهها وقالت وكأنها تعتذر:ـ

ـ لم أحتمل أن أترك كل كتبى هنا فحملت أهمّها .

ـ سميّة، عزيزتى، إن الكتب تعوّض . ولسوف تثقلك هذه الحقيبة وتعرقل سيرك.

وقالت سميّة ثائرة وهى تكاد تبكى:ـ

ـ الكتب تعوّض؟ حقاً ولكنّ هذه كتبى أنا يا سعاد وبين صفحاتها، على كل سطر فيها، وكل حاشية حياتى. وما من شيء يعوّض حياتى.

ولم يكن لنا وقت نناقش فيه فساعدتها على إقفال حقيبتها وقلت لها بحزم:

ـ هيابنا إن العدو يقترب بسرعة .

وانطلقت قافلتنا فى الظلام . كنا نسير على عجل ، كل يحمل بطانيته ووسادته فى صمت . ويممنا نحو الجنوب، صوب قطاعات الجيش المصرى .

تسـعـة أشـخـاص سـيكونون منذ هذه اللحظة بلا مـأوى ولا أرض إن وقع خطانا هنا موحش لأن هذه أرض فلسطين التى لم تعـد لنا، وظلا لنا تجرّ نفسها وراء نا جراً. ولاحت لى أشخاص أهلى هياكل مهمومة محنية الظهور فكأنها تحمل عذاب المشرّدين منذ بدء الخليقة. وسمعت ضجة قريبة، فاذا جيراننا قد بدأوا يخرجون . كل أسرة تحمل فانوساً صغيرا مضاء . ولاحت لى الفوانيس رموزاً للأسر التى تبدأ هذه اللحظة تاريخ تشردها وأحصيتُ أربعة فوانيس

وبدأنا ننحدر فيِ حىّ مظلم تحيط به بيوت ساكنة مطفأة الأضواء . لابدّ أن يكون سكان هذا الشارع قد رحلوا قبلنا. وفجأة صرخت هدى:

ـ انظروا هناك، انظروا جميعاً.

وفى تلك اللحظة تأجّجت فى منعطف الشارع نار ساطعة باهرة فاجأتنا وأعشت عيوننا. ثم سمعنا صوت انفجار مروّع وتصاعدت النيران إلى عنان السماء وأحسسنا وجوهنا تلفح لفحاً شديداً وقبل أن نفيق من ذهولنا صرخ سمير صرخة لائعة مفجوعة:

ـ باسم!

كان ماوقع مباغتا لنا كلّنا. فعلى مقربة منا اندفعت شعلة نار متأججة طائرة فيِ الهواء تعبر بسرعة شديدة. وإذ مرّت بنا التقطت فيِ وهجها الملتهب باسماً الصغير الذى كان يسير فيِ أقصى الطرف إلى جانب والده. وتأجج حبيبنا الغالى لحظات فيِ تلك النار، وهرعنا إليه فى جنون نطفىء ثيابه المشتعلة، ونجح أبى بأن لفّة بعباء ته السميكة فانطفأت النار، ونظرنا إليه فإذا هو ينازع وقد أصيب بحروق مخيفة فى جسمه كله ولكنه كان واعيا فراح يصرخ صراخا متقطعا:

ـ ماما .. ماما ... ماما ...

كان واضحاً لنا كلنا أنه لن يعيش أكثر من دقائق . فقد أحرقت الشعلة جلده وأكلت خده الأيسر وشفتية وعنقه . وقد التصقت قطع من جسمه المتأكل بعباءة أبى . وصرخت سميةّ بلهجة آمرة هائلة:

ـ اركضوا فوراً. احملوه واتجهوا يميناً. لقد اشتعل مخزن البنزين.

وأطعنا كلنا فوراً وكأنّ منوماً يسيّرنا . ركضنا وركضنا وأبى يحمل الضحية الأولى، أول جزء حي منا ندفنه في أرض المعركة.

وعندما بلغنا تلاً فصل بيننا وبين النار، ولمسنا الأرض التي تحمينا ارتمينا بقلوب دامية حول أبى نستطلع حياة الحبيب الصغير الذى أكلته النيران .

وكشف أبى العباء ة ونظرنا، في جنون، فاذا صغيرنا الغالي مازال يختلج، ويرتعش كانت عيناه السوداوان الجميلتان مفتوحتين. وكان ساكناً ماعدا ارتعاش أطرافه .. ونظر إلى وجوهنا واحدا واحداً دون أن ينطق ثم استقرت نظراته المحمومة على وجه أمّه وتوقفت هناك . ورأيناه يحرّك شفتيه لكى يتكلم، والظاهر أن الشفاه المحترقة أوجعته فمرّت موجة عذاب هائل على قسماته،. وقالت له أمّه وهى تجهش البكاء:

ـ لا تتكلم يا حبيبى . ماما معك .

غيرأن ذلك لم ينفع . فان الطفل المحتضر عاد يحاول الكلام حتى قال بعد جهد.

ـ ماما ...

ورأيناه يحاول أن يتحرك وكانت إحدى يديه مخفية تحت طرف العباء ة، وفجأة حركها بقوة بعد أن بذل مجهوداً ونظرنا مندهشين فإذا هو يمدّ كفهّ

الصغيرة إلى أمهً بزجاجة الحليب وهو ممسك بها بكل قواه، وارتعش صوته مراراً حتى قال:

ـ ماما ... لم أكسرها ...

وأخذتها أمّه منه فارتعش بحدّه وأغمض عينيه. ونظرت إليه دون أن أفهم . ورأيت أبى يردّ عباء ته على الجسد المحترق ويقول بأسى:

ـ إنّا لله وإنا إليه راجعون.

أما نادرة، أمّه، فقد بقيت ذاهلة لحظة ثم صاحت بصوت مفجوع:ـ

ـ مات؟ مات ابنى؟

وارتمت هدى على التراب، بطولها كله، وراحت تمرغ وجهها فيه وتصرخ:

ـ مات باسم؟ اتركونى هنا، اتركونى . إنى أريد أن أموت وكان الفرس واقفاً على مقربة فيِ جمود ساكن بعد أن قطع معنا المسافة التى ركضناها . وعلى صرخة هدى رفع قائمته اليسرى، ثم حرك إحدى أذنيه وأطرق.

ثم جاء مشهد موجع. نادرة تبكى متوسلة إلى أبى أن يعطيها طفلها الميّت لتودعه. وسمير يرفض ذلك ويحول بينها وبين أبى والطفل . وأبى يقترح أن يدفن الميت لنواصل السير . وهنا ترفع هدى وجهها المعفّر بالتراب وتصيح صياحا هستيرياً:

ـ تدفنونَهُ؟ قبل أن نتأكد من موته؟ هل يدفن باسم حياً ياإلهى؟ هل تدفنونه قبل أن يموت؟

وصاح بها أبى فى عصبيّة بالغة منتهراً:

ـ لقد مات . أولا أعرف الموت بعد؟ ألم يكفنيِ مارأيت منه طوال حياتيِ؟

ولكنّ هدى زادت صراخا ولاح أنها فقدت صوابها وبدأت تهذى

ـ أبيِ إنك قاسٍ جداً، إن قلبك من حجر. إنك تعاملنا بلا رحمة. لا بل إنك

سوف تدفننا أحياء جميعنا.

ثم راحت ترتعش ارتعاشاً هستيريّا ووالت الهذيان:

ـ يا حبيبي الصغير، إن هدى لن تخونك. سوف أحملك أنا وحدى وأسير بك ساعات، حتي تموت. وإلا فسوف أبقى معك ويدفنونني معك.

وذهب عامر وركع إلى جوار هدى محاولا أن يهدئها وقد لاح لنا أنها أصيبت برجّة عاطفية. والواقع أن الصغير كان هامداً ميتاً كل الموت، فليس بعد ذلك موت يمكن أن يكون . كانت النار التى أكلته بنزيناً ضارياً فقضت عليه بسرعة. وتذكرت فجأة دموعى على خده الصغير عند باب غرفتى وصوته الحنون وهو يهمس :

ـ لكننى جئت إليك، إننى أحبك.

كنت أنا الحرّية بأن أرتمى على التراب وأموت. ولكن هل أملك أنا أن أموت الآن؟ من إذن لهذه القافلة البشرية المعذبة؟

من يسير بهم سواى أنا؟ لا بل ينبغى أن ننهض ونواصل المسير . وسرعان ماسوف تهدأ أختى الصغيرة المسكينة، ويشرق الضياء على قلب الأبوين الكسرين

ـ فلندفن الطفل.

همسها أبيِ همسا هذه المرّة. وقال له سمير برفق:

ـ أبى، هل أنت واثق من أنه قد مات؟

وفقد أبى أعصابه فجأة وصاح:

ـ خذ ابنك ياسيدى ، وأنا ذاهب وحدىِ سميّة، اتبعينى ....

وحاول النهوض فشعر فجأة بثقل الجثة الصغيرة بين ذراعيه وردّه ذلك إلى هدوئه فجلس على الأرض وراح يبكى بكاءً لاعجاً وهو يردد

ـ لك الحمد والشكر ياربى.

ونهضت سمية وانحنت على أبى بوجهها المرطّب بالعبرات وتوسلت إليه:

ـ أبتى، ليس هذا وقت نثور فيه ونفقد أعصابنا. لقد فقدنا كلنا أحبّ إنسان إلينا منذ لحظات فلنحتمل بعض ما يصدر من هذا وذاك منا .

وكان واضحاً لنا أننا جميعاً فى حالة من العذاب المميت ولم يعد أحدنا يحتمل حتى عبء نفسه . ولكنّ سميَّة وحدها بقيت مرفوعة الرأس لاتنهار ولاتضعف. وسرعان ما أقترحت علينا برفق رؤوم أن نحمل الطفل مسافة أخرى إرضاء لعواطفنا جميعا حتى إذا تأكدنا من موته دفناه. ولم يعترض أحد . كانت سميّة تقودنا دائما فلا يخالفها أحد . ورأيتهم ينهضون وسمير يحاول مساعدة نادرة على السير . وتناول عامر أسامة فحمله. أما أنا فذهبت إلى هدى التى كانت لم تزل ممددة على الأرض تبكى فىِ سكون ووجهها فى التراب.

ـ هدى، حبيبتى، لابدّ لنا من المسير، إن الرصاص يقترب منا .

وقد كنت أتوقع أن ترفض طلبى، ولكنى رأيتها على العكس تطيعنى فتنهض فى انقياد تامّ، وتنفض التراب عن شعرها المسترسل بهزّة فى رأسها. كان هناك تراب كثير على خدها وشفتيها وقد اختلط بدموعها. وشعرت بعطف هائل عليها، عطف لم أشعر بمثله قط نحو إنسان فضممتها وبكيت . لا أظن أنّ هناك صبيّة فى مثل بسالة أختى الصغرى هدى، وفى تلك اللحظة كانت أنبل منا جميعاً. لقد كان باسم معبودها . ورأيتها تسير متعثرة وهى تكاد تسقط حتى إذا بلغت بطانيتها المطروحة على التراب انحنت ورفعتها ثم تناولت حبل الفرس وبدأت تسير . وحين اطمأننت عليها لحقت نادرة التى كانت لاتقوى على السير وقد استحالت رجلاها مرتخيتين

وكأنهما حبلان وهى تصرخ:

ـ أريد ولدى ، أريد ولدى الصغير.

وبدأت قافلتنا تسير نحو قمة التلّ فى طريق يرتفع دائما نحو الجنوب . ولاحت الأشجار موحشة خاملة على جانب الطريق. وأضاءت سميّة الفانوس، وتقدمتنا وعندما وصلنا القمة ونظرنا خلفنا رأينا منظرا رهيباً لاينسى: قريتنا تحترق وقد امتدت النار إلى منزلنا . ولا أدرى لماذا لم أعبأ بذلك كثيراً، وإنما لاح لِي أن هناك منظراً أشدّ إيلاماً للقلب الانسانى، منظر هدى وهى تسير وراء نا جميعاً تجرّ الفرس وتنتحب بصوت مسموع لا ينقطع.

***

على قمة التلّ دفنّا صغيرنا الميّت فى بقعة تراب هش وحفر القبر أبى بيديه الاثنتين لأننا لم نملك شيئاً نحفر به.

وجلس سمير عاجزاً يبكى ولايصنع شيئا. أما نادرة فقد أغمى عليها فاستراحت . ورفض أبى أن يضع الجسد فى التراب إلا إذا قرأ أحدنا بعض آيات القرآن . وكان عامر يحفظ جانباً من سورة البقرة فتلا آيات قليلة أقسم لى فيما بعد أنه لم يتعمد اختيارها وأنها كانت الآيات الوحيدة التى تذكرها: «ياأيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين. ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لاتشعرون .. ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين . الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون . أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون . صدق الله العظيم»

ثم صلّى أبى ركعتين وأشار علىَّ بأن آخذ هدى بعيداً. ومرة ثانية طاوعتنى هدى فأخذتها إلى منحدر قريب وجلسنا نبكى كلانا ولاننطق . وبعد فترة قصيرة أقبلت سميّة وعيناها حمراوان وقالت :

ـ هيا بنا . سوف نسافر.

كان هناك على قمة التل مرتفع صغير من التراب وقد وقف أبى متجهاً صوب القبلة، وراح يحرّك شفتيه ببعض كلمات لم أسمعها.

وكانت زوجة أخى قد أفاقت ورأت جانباً من عملية الدفن، وهى صامتة لاتبكى وكأنّ ذروة المصيبة تمنح المفجوع هدوءاً لايفسّر . وركعت إلى جوارها ورحت أدلّك لها يدها الباردة وحمدت الله على هدوئها . وفى تلك اللحظة عوى ابن آوى فى المزارع المجاورة عواء طويلا موحشاً . وصرخت نادرة صرخة حادّة

ـ ابن آوى!

ثم أغمى عليها ثانية . وراح سمير يبكى فى حرقة. ولم يفهم أحد سواى ماذا كان تأثير صراخ ابن آوى عند القبر الجديد . سنتركه منفرداً ونذهب بعد لحظات . وشكرت الله على أن هدى لا تعرف شيئاً عن ذلك.

وباغتنا انثيال الرصاص وانفجرت عدة قنابل عالية . وأفاقت نادرة وتعاوناً أنا وسمير على إسنادها فنهضت معنا وسارت . وتقدمتنا سمية بالفانوس . وكانت هدى على مقربة منى فرأيتها تنحنى وتلتقط شئياً ثم قالت لى :

ـ حقيبة الكتب . لابد أن سميّة نسيتها هنا.

وكادت تضعها فى خرج الفرس . فأمسكتُ بيدها:ـ

ـ اتركى هذه الكتب هنا.

ـ ولكنها كتب سميّة.

ـ أدرى. لابد أنها لم تعد تريدها فإن سمية لاتنسى شيئاً ونشجت هدى نشيجا هادئا وقالت: ـ

ـ أجل .. إنى بليدة. هل فى الدينا بعد باسم شىء عزيز؟

قالت ذلك ورمت حقيبة الكتب فتدحرجت كثيراً على المنحدر حتى خيّل إلىَّ أنها سقطت فى أعماق الوادى .

وبدأنا نسير، على منحدر التلّ هذه المرّة، والتفتّ إلى الوراء آخر مرة فرأيت فوانيس كثيرة تصعد التل نحونا لقد داهم الحريق القرية فخرجَ من بقى من سكانّها كما تخرج النمل مروعة حين نسكب الماء على بيوتها. كان سفح الجبل مفروشا بالفوانيس، تلك الرموز المتحركة لكل ماهو فلسطين.

وبدأ فجر حزين يطلع على الدنيا.

(١٩٥٩)

إلى حيث النخيل والموسيقى

عندما أفاقت نهى من أحلامها ذلك الصباح، سمعت أباها يتحدث وقت الإفطار عن الأرض الخالية المجاورة لمنزلهم. كان يقول إن الفلاحين إبراهيم وعباس سيأتيان لقطع النخلتين القائمتين فى تلك الأرض. وجزعت نهى وأحست أن هذا عدوان على النخيل وصاحت:

– بابا، لماذا يقطعونهما؟ تلك النخلتان المليئتان بالحياة والخضرة والإحساس.

وأجاب الأب بلا مبالاة، واستمر يشرب كوب الحليب دون أن يعير الموضوع التفاتاً:

– إن مالك الأرض قد قرر أن يبنى منزلاً فيها ولابدّ من قطع النخلتين.

كادت نهى تبكى، وغامت عيناها السوداوان بسحابة دمع زرقاء.

إن هاتين النخلتين قد ارتبطتا بحياتها وحياة إخوتها. فمنذ بنى أبوها هذا المنزل الصغير والنخلتان الخضراوان قائمتان. وفى كل عيد كان إبراهيم يشد حبلاً إلى النخلتين ويصنع أرجوحة يتناوب الصغار ركوبها. وكانت نهى تسعد سعادة عميقة وهى تتأرجح وتغنى بصوتها الجميل الذى يسمع فيه همس النسيم وغناء العصافير. والصغار كلهم كانوا يذهبون إلى المنزل ليتغدوا إلا نهى فإنها كانت تستمر فى التأرجح والغناء. وكانت تحسّ

دائماً أن النخلتين تتفتحان وتزيدان اخضراراً وتموجاً عندما تمنحهما وسادة صوتها الملائكى. والنخل يسكر بالعطور ويحلم، ونهى كلها عطور وأحلام، ونهى صبيّة ولا كالصبايا.

وانتهى أبوها من شرب حليبه ونهض فتعلقت نهى بطرف منامته وصاحت بصوت فيه خشوع الابتهال وليونة الشوق:

– بابا، أتوسل إليك أن تصنع شيئاً. ألا يمكن إقناع المالك بعدم قطع النخلتين؟

– نهى، بنتى، لا تكونى عاطفية هكذا. وما قيمة نخلتين فى أرض الجيران؟ إن لك أنت نخلة فى حديقتنا مثل سائر إخوتك.

واندفع الصغير رافد يقول شاكياً:

– إلا أنا يا أبى، فليست لى نخلة فى حديقتنا.

– لا عليك يا صغيرى. أن شجرة المشمش لك

– شجرة المشمش لا تنفعنى، وأريد فى مكانها نخلة تعطينا تمراً أوزّع منه عليكم وأعطى للجيران أيضاً.

وأحسّ الأب أن فيما يقول الولد منطقاً، وأن أى جواب لن يطفىء جمال عبارته تلك. نخلة لرافد وتأكل منها العصافير النهرية. ولكن من أين لنا بنخلة مثمرة لهذا الصغير؟ وتنهد الأب ونهض لينصرف إلى عمله، وإذا نهى تتعلق بكمّه وهى تقول:

– اجلس يا أبى لأخبرك بشئ.

وعندما أخبرها أبوها أنه مشغول ولابدّ له من أن يخرج قالت له:

– اجلس دقائق فقط. إنى قد سمعت من عماتى الكبيرات أن النخلة تتعذب عندما تقطع شأنها فى هذا شأن أى انسان أو حيوان. ويقولون

أيضاً إن النخلة تصرخ صرخة ألم شديدة عندما تُقَصّ.

واعترى الأب احساس غامض حول نهى، حول النخيل، وأدرك بالفطرة الأبوية أن المسألة خطيرة بالنسبة لابنته الشابة التى تبلغ ستّة عشر عاماً. هناك أقفال فى نفسية الصبيّة ولابدّ لها من توجيه نفسى وروحى. وقال لها بحنان:

– حبيبتى نهى، إن الحكايات الشعبية تختلط فى ذهنك فالخرافة العامية تزعم أن شجرة السدر هى التى تصرخ حين تقطع لا النخلة. والحقيقة العلمية أنّه لا النخلة تصرخ ولا السدرة فالنبات لا يحسّ.

ومسحت نهى دمعة كانت تكاد تتألق فى أهدابها وقالت متحمّسة:

– بل النبات يحسّ. هذا ما أنا واثقة منه، ومنذ سنوات وقع أمامى حادث عجيب ما كنت لأصدّقه أنا نفسى لولا أننى رأيته بعينى

وسألها أبوها أن تقصّ على الحاضرين هذا الحادث العجيب. وكانوا جالسين علي حصير فى ساحة الدار المكشوفة التى تغطي جانباً منها عريشة العنب الممتدة فوق الدار. وكانوا يتناولون طعام الإفطار مع ضيفيهم العمة حياة وابنها جلال. وعلى طرف الحصير جلست العمة فهيمة ونوال شقيقة نهى الحميمة فى البيت. وكان رافد أصغر الحاضرين يتناول كوب حليب ويصغى باهتمام.

وألحّوا جميعاً على نهى أن تقص عليهم حكايتها. ولا يعلم أحد من الحاضرين لماذا تكون كلمات نهى مثيرة للخشوع دائماً؟ ولا يدرون لماذا يسرى شئ كالتيار الكهربائى فى أطرافهم عندما تنظر؟ ولولا أن عينيها ناعستان لخاف الكل من تلك العينين المملوءتين بالأسرار، وراء كل هدب سؤال وجوابه الغامض. والتفتت نهى إلى ابن عمة أبيها جلال وقالت له:

- إنها قصة شجرة التين التى جئت بها وزرعتها فى حديقتنا الخلفيّة. أنت لا تنساها طبعاً؟

وطافت ابتسامة مرح على الوجوه كلّها، وتساءلت العمة حياة:

- جلال؟ ألك شجرة تين فى حديقتهم؟ ومنذ متى؟ ولماذا لم تخبرنى؟

وراح جلال يقصّ على أمّه الحكاية. قال لها إن ذلك حدث عندما انتقل العم محمود، والد نهى، بأسرته إلى الكرادة. وكانت حديقتهم الجديدة مقفرة لا زرع فيها سوى النخيل. وجاء جلال فى عطلته المدرسية وقضى بضعة أيام لدى الأسرة وكان يقضي النهار فى البساتين الكثيفة المحيطة بالمنزل. وكانت فى نفسه حرقة أن يجد أشجاراً ينقلها إلى بيت العم محمود. وذات ظهيرة دخل جلال المنزل وقال:

- عمى محمود، جئتك بشجرة فاسمح لى أن أزرعها فى حديقتكم.

واعترض العم محمود اعتراضاً شديداً قائلاً إن ما أحضره جلال ليس شجرة وإنما هو حطب يابس ولن يورق ولن يثمر. ولكن الفتى أصر على زرعها ووافق العم محمود وهو يتحدّاه قائلاً إن هذا الساق العارى لا يمكن أن ينبت أوراقاً وثمراً.

وقالت نهى فى حماسة:

- كان الحق مع جلال لا مع أبى. ولكنّ السر المذهل يكمن فى شئ آخر لم يره منكم أحد غيرى. كان ماحدث مثيراً أشدّ الإثارة وبقيت أشهراً كثيرة أفكر فيه ولا أفهمه، حتى بزغ فى نفسى ضياء أنار لى عتمة السرّ، وهو أروع سرّ يكشف للإنسان ويدلّ على أن الله قد وضع فى كل شئ فى الوجود أسراراً تتحدى العقل البشريّ الذى يخطئ ويضل. والله لا يخطئ ولايضلّ.

وقال أبو محمود:

– صدقت يا بنتي «لا يضلُّ ربّي ولا ينسى»

وكانت نهى تلتقط الكلمات التقاطاً لتؤدى بها فكرتها، وكان يبدو أنها تتدرج بالمستمعين من أهلها لكى لا ترجِّهم الحقيقة كما رجّتها هى. وزاد هذا من فضولهم، وصار أبوها يحرّك قدمه اليمنى وهو جالس على أريكة فى جانب من باحة الدار كما يفعل عندما يحيره شئ مثير. واندفع جلال يقول:

– أمى، لقد قابلت تحدّى العم محمود بالإصرار وراهنته على أن شجرتى ستثمر. وهل يمكن أن أزرع أنا شجرة لا تثمر؟ أنا جلال وضحك الحاضرون، ثم صاحت أم نهى:

– بنتى، قصّى علينا ما حدث للشجرة. إنى لا أتذكر شيئاً مما تقولين.

وقال أبو نهى

– بلى يا عزيزتى. كل ما يقوله جلال صحيح، وهو الذى جاء بهذه التينة عودة حطب يابسة وراهننى على أنها ستورق وتثمر. وهو قد ربح الرهان وإن كان لم يطالبنى حتى اليوم بالوفاء.

وساد الصمت، والصمت عندما تتكلم نهى يصحبه إحساس بالخشوع والرهبة من شئ مجهول وكأنّها بكليتها أسرار مضيئة. وقالت نهى:

– لقد كتمتكم هذا الحادث الغريب ولم أخبركم به، لأن الحقيقة تقتل بعض الأحيان. وأنا قد خشيت عليكم ولم أتحدث بموضوع شجرة التين وتحملت عبئه وحدى. وكاد ذلك يمرضنى ولكنّ الله قد نجانى.

واندفعت نوال تقول:

– كل شئ يقع لك يا أختى تدخلين فيه الله. وما دخل الله فيما نحن فيه؟

وقالت أم نهى وهى تقدم وعاء السكّر إلى جلال الذى كان يهم بشرب

كوب شاى:

– بنتى لقد عيل صبرنا. قولى لنا ماذا حدث لشجرة التين؟

وقال جلال فى شئ من العصبيّة:

– ما لتينتى يا نهى؟ إنها قد ولدت فى أرض حديقتكم الخلفية وانتهى الأمر. تينتى قد أثمرت وأكلنا كلنا من ثمارها الحلوة اللذيذة، والفضل فى ذلك لى،... ولكنّك لئيمة يا نهى، تطيلين انتظارنا بعد أن استثرت فضولنا إلى أقصاه، وهأنذا أتحدّاك أن تقولى أى شئ لا نعرفه عن تينتى.

وأشرق وجه نهى بضياء غامر أحسّه الجميع وقالت بصوت ملائكى وكأنها تسبّح لله:–

– يا جلال، إن تينتك لم تثمر إلا لأن شيئاً عجيباً قد حدث لها شئ غير اتجاه حياتها. وإليكم الحادث. أنت تعلم جيداً يا أبى أن التينة بقيت عدة سنوات لا تثمر. كانت تورق فقط وتأبى تثمر.

– (تأبى) يا بنتى؟ وهل للتينة إرادة وفهم؟

– «تأبى» يا بابا. تأبى وهى حرّة ولها إرادة. لقد اكتفت بأن تورق وتخضرّ عدة سنوات وكنا كلّنا نتساء ل عن السبب الذى يجعلها لا تثمر، مع أن الفلاح كان يعطيها الماء والسماد كسائر أشجار الحديقة. وكنت أنا أفكر أحياناً وأغتاظ من أنها لا تعطينا تيناً. وفى صباح يوم مشمس خرجت إلى حديقتنا الخلفية فرأيت فلاحاً يشتغل، يسقى ويسمّد ويغرس، وخطر لى أنّه فلاح ماهر مقتدر، وأحسست فى نفسى دافعاً إلى أن أسأله عن سر جمود التينة وسبب عدم إثمارها.

وصاح جلال معترضاً ومقاطعاً:

– أنا أزرع شجرة ولا تثمر؟ مستحيل!

وردت عليه نهى بصوت غريب وكأنها تبوح بسرّ مذهل:

– و لكن يا جلال. أنك لا تعرف بقية سيرة حياة هذه الشجرة. انتظر وستعرف أن شيئاً مثيراً قد غير مجرى حياتها.

التفتت الأنظار كلها إلى نهى فى تطلع واهتمام. ولاح كأن الصمت الذى ساد إرهاص بميلاد جديد. وأشرق وجه نهى الجميل وزادت الانظار تطلعاً إليها. كانوا كلهم ينتظرون ما تريد أن تقول. وكانت أم مازن الوحيدة التى لاحظت – بحسّ الأمومة – أن نهى منفعلة أشد الانفعال وأن شفتيها الرقيقتين ترتعشان. وقالت لها:

– بنتى نهى، ما هذا الانفعال؟ أنت اليوم حسّاسة جداً وإذا كانت هذه القصة التى تريدين روايتها لنا تثيرك فاتركيها.

ولكنّ الفتاة رفضت نصيحة والدتها واندفعت تتكلم بلهجة تأثر شديد:

– كان هذا أغرب حدث رأيته طوال حياتى، وسترون منه أن الأشجار تحس وتفهم. لقد اخضرّت شجرة التين فى السنة التالية دون أن تثمر. ودارت السنة وحلّ ربيع أخضر جديد والتينة لا تثمر ثم...

وقاطعها جلال:

– لا تكونى لئيمة يا نهى. علينا بالنتائج. ألم تثمر تينتى فى النهاية؟

وزاد انفعال نهى وراح صوتها يرتعش وقالت

– قلت لك إن شيئاً غريباً قد غيَّر حياتها فأثمرت. لقد صنع ذلك الفلّاح شيئاً غريباً. فما كدت أحدّثه عن عدم إثمار التينة وأسأله أن يفعل شيئاً حتى قال لى:

– أتريدين أن أجعلها تثمر؟ مسألة بسيطة

وأدهشنى جوابه فقلت له: –

– ماذا ستفعل؟ تسمّدها؟ تسقيها؟

وضحك الفلاح وقال لى:

– إن حديقتكم مسمّدة على أتم ما يمكن والماء موفور للأشجار كلها ولكن هذه التينة متمرّدة ولابد لى أن أعاملها معاملة صارمة لكى تثمر.

وضحك أبو مازن وقال إن هذا الفلاّح مضحك لأن الأشجار ولا تتصف بالعناد ولاتنفع معها الصرامة.

وقالت نهى مجيبة:

– يا أبى، لقد قلت هذا للفلاّح ولكنّه أجابنى بثبات غريب أنه سيرينى ما يفعل، وأن الأشجار كالأطفال تحتاج إلى التربية والتأديب وأن العصا لمن عصى. ولا أطيل عليكم. لقد ذهب الفلاح ونادى رفيقاً له يشتغل فى البستان المجاور. وسمعته يقول له: «هنا شجرة تين لا تثمر. ولكن تعال معى إلى أقصى الحديقة لكى لا تسمعنا الشجرة.» وراح الكل يضحكون عندها وبدأوا يعلقون وهتفت نهى:

– أمى، لا تضحكى، واسمعى بقية الحكاية. لقد قال الفلاح لرفيقه:

«سأذهب إلى جانب الشجرة وأهددها بأن أقطعها لأنّها لا تثمر. وعليك أنت أن تشفع لها وتعطينى عهداً بأنها ستثمر فى العام المقبل. وهكذا اتفقا على تمثيل الحكاية، وأنا واقفة أستمع إليهما ذاهلة وأشك فى عقلهما كما تشكون اليوم.

وسكتت نهى وتنفست تنفساً عميقاً وقال أبوها:

– أكملى حكايتك لنرى

وروت لهم نهى أن الفلاّحين مثلا التمثيلية قرب الشجرة فرفع الأول فأساً حادة وصاح «هذه التينة الكسول التى لا تثمر. إنى سأقطعها، سأقطعها».

وكان صوته منذرا مخيفاً، ورفع الفأس عالياً وهمّ بضربها فصاح الثاني:«لاتقطعها بالله عليك وأنا اتكفّلها . أنا كفيلها، وأعاهدك أنها ستثمر فى العام المقبل» ورفض الأول هذه الكفالة وصاح وهو يرفع الفأس: «إنها كسول ودواء الشجرة الكسول أن نتخلص منها دعنى أقطعها ياألله!» ولكنّ الفلاحّ الثانى عاد إلي التوسط بين الفلاح والتينة. وعند هذا تظاهر بأنه قبل الكفالة. ثم ماذا؟ جاء العام التالى وأثمرت التينة وأعطتنا فاكهة لذيذة طريةً.

وهتف أبوها :-

- أهذا كلام معقول يانهى؟ ولماذا لم تحدّثينا بهذا فى حينه؟

- ألا تتذكّر يا أبى ماحدث لى فى ذلك العام؟ لقد أصابتنى الحمّى التيفوئيدية . وشغلتنى آلام المرض عن كل شىء ، وبعد شفائى بقيت ذاكرة للحادث، مع أن التيفوئيد يسببّ النسيان . وبقيت أتأمل هذا الحادث بلا انتهاء واستمرّ تعجبى منه، وطالما رقدت تحت هذه التعريشة فى أماسى الصيف وفكرت في تلك الأعجوبة قالت أم مازن:

- هذه القصة من أعجب ماسمعت طوال حياتى. هل يمكن هذا؟

أم ترى الفلاّح كان مخبولاً؟

وتحفزت نهى للردّ، واندفعت تقول فى حماسة مرضيّة:

- إن الأشجار تحسّ وتفهم ياأمى . ولذلك أعرف يقينا أن بينى وبين هاتين النخلتين فى الأرض المجاورة علاقة روحية خاصة.

وقالت العمة حياة:-

- كلام أطفال يانهى. أنت الآن فى السادسة عشرة من عمرك. ومثل كلامك هذا ما كنتم تقولونه فى طفولتكم أنت وأخوتك وأولادى .كنتم كلكم ما بين الأربع سنوات والثمانى وكانت هناك نخلة فى حديقة كان عمك يملكها

في باب المعظم . وفى هذه الحديقة كانت تقوم نخلة واحدة فريده فى الوسط. وكنتم فى كل عيد تتماسكون اثنين اثنين وتذهبون لكى تهنئوا النخلة بالعيد كما تقولون .

وابتسمت نهى ابتسامة غبطة وسعادة وأغمضت عينيها المليئتين بالأسرار وقالت بلثغة الملائكة:-

- يإلهى ! كاد هذا يمّحى من ذهنى ، وأنا أتذكره أول مرة بعد التيفوئيد . كانت تلك النخلة حبيبة إلى قلوبنا . وكنا نذهب لكى«نعايدها» كلّ عيد . حتى إذا وصلنا إليها رحنا ندور حولها ونهتف «أيامك سعيدة يانخلتنا» وكان هذا يسعدنا . والآن أصبحت أوقن بأن حبنا لتلك النخلة كان يسعدها وأنها كانت تبادلنا الحبّ والإخلاص.

وعند هذا ضحك أبوها وربت على كتفها وهو يقول:

- يانهى يابنتى أنت واسعة الخيال. ومارأيك الآن فى أن تذهبى وتأتينى بنظارتى لكى أدقّق حساب البقال هذا؟ فإنه قادم بعد ساعة لتسلّم المبلغ.

- أجل ياأبى، ولكن عدنى بأن تصنع شيئا من أجل النخلتين .

- أراك حقاً مهتمة بهما. أو إلى هذا الحدّ؟ الله كريم يابنتى. وسنرى مانستطيع أن نفعل لإنقاذ النخلتين . ولكن اذهبى وهاتى النظارة.

وذهب نهى سعيدة بهذا الوعد . وسألت أمها:

- ماذا تنوى أن تفعل ياأبا مازن؟

- وهل أدرى مأأصنع؟ إن الصبيّة تلحّ علىّ وأنا أتاثر لها. ألاترين أنها لاتطلب منا شيئا أبدا» ؟ إن اخوتها جميعا يلحون علينا بطلباتهم ، إلا هى، فهى قانعة بلاشىء . وهى اليوم تلحّ على أن أمنع قطع

النخلتين، ويحزنني أن أردّ طلبها . والمشكلة أنهم يريدون بناء بيت يشمل مكانهما فماذا نفعل؟

وقالت العمة فهيمة:

– اهتمام نهى بالنخيل شيء لا مثيل له.

وردت الأم وهى تخلع منديلاً ربطت به رأسها :

– قولى أنها تهتم بالشجر كله. ولا أعرف سرّ هذا الولع لديها. إنها غريبة الأطوار وأنا أقف أمامها وكلّى أسئلة . حادث شجرة التين هذا ، ما الذى جعلها تخفيه عنا ثلاث سنوات؟ ومثل هذا الحادث العجيب .

قال جلال وقد سكت منذ سمع حادث التينة :

– أما تقول أنها قد أصيبت بالتيفوئيد ؟ إن هذا المرض يضعف الذاكرة .

وأشعل أبو مازن سيجارة وقال وكأنه يكلم نفسه :

– تقول إنها لم تنس الحادث ، ولكن لعلها كانت صغيرة إذ ذاك فبقى فى ذاكرتها دون أن تتبين معناه فى حينه . ومثل هذا قد يقع لأى انسان . ولا تبدأ الأشياء بالاتضاح فى الذهن إلا بعد أن يكبر الصغير وتمرّ السنوات .

كانت أم مازن إذ ذاك تصب قدح شاى للعمة حياة ، وعند هذا رفعت رأسها وقالت :

– تعليل سليم . ونهى كثيرة التأمل للأشياء حولها . ومع التأمل يحفّ بها صمت دائم يغلب عليها . وعندما تخرج من صمتها تقول أشياء تذهلنى. أحداث مطموسة فى حياتنا أراها عالقة بذاكراتها مع أننى أنا نفسى قد نسيتها.

وفى هذه اللحظة دخلت نهى وسلمت النظارة إلى والدها . وتمطّت العمة حياة وقالت :

– يا جماعة ، يجب أن نغادركم ونعود الي بيتنا الآن . لقد قضينا ليلة جميلة معكم .

– مالك مستعجلة يا عمتى ؟ ليلة أخرى معنا ...

كانت هذه أم مازن، وضحكت العمة حياة وقالت :

– الغوث ، الغوث ، .... أنا أقضى ليلة أخرى فى هذا البيت ؟ أمس لم أنم طوال الليل من أصوات ابن آوى عندكم . إنكم تعيشون فى غابة وهتف أبو مازن وهو مازال يمسح نظارته بطرف منامته :

– لن يذهب ابن آوى من هذه المنطقة مادامت فيها بساتين ومادام البناء قليلا . نحن فعلا نعيش فى غابة . ومع ذلك يا عمتى ، لماذا تخافين عواء ابن آوى؟ إن السور الذى يفصل البيت عن الحديقة متين شاهق وبابنا يغلق بمزلاج حديد .

وهتفت العمة البدينة وهى تحاول النهوض بصعوبة :

– والله يا محمود كنت أتمنى قضاء ليلة أخرى عندكم ، ولكن الأولاد لا يحتملون البقاء من دونى، ولابدّ لنا من أن نغادر بيتكم الجميل هذا .

– بل قولى بيتنا الصغير الناقص البناء وغير المريح. ولكنّ الذى يعجب كل من يزورنا هو البساتين الكثيفة التى تحيط بنا والنهر والجزيرة فى وسطه .

– أنها جنّة فعليّه، وأستحلفك بالله يا ابن أخى أن تصلى على النبى كلما رأيت هذه البساتين الحلوة .

– اللهم صل وسلم على نبيك.

وسارت العمة باتجاه غرفة النوم، فى حين انعكست على وجه نهى سعادة داخلية عميقة وقالت بصوت هامس كأنه الموسيقى التى تنبعث من الأشياء

الصامتة :

– كان الرسول إنسانا جميل النفس ، ويبدو لي أنه كان شديد الحب للأشجار والورود، فقد قالت معلّمة الدين أنه كان يقول : «من شمّ الورد الأحمر ولم يصلِّ عليَّ فقد جفاني.» آية روح شاعرية هذه لدى النبي ؟ لابدّ أنّه كان يحب الورد الأحمر أشدّ الحب .

وبادر أبوها إلى تأييد رأيها الجميل هذا قائلا :

– بنتي ، إنه كان ، كما تقولين ، يحب الشجر . ولذلك كان يوصي جيوش المسلمين ألا يقطعوا شجرة مثمرة . إن الأشجار حياة الناس .

وأحسّت نهى أنها تريد أن تحتج احتجاجا شديدا على كلام أبيها ولكنها عدّلت حماستها ولجمت اندفاعها وقالت مكتفية :

– لا يا أبي، لم يكن يوصي بالابقاء علي الشجرة لمجرد أنّها حياة الناس . ولكنه كان ، بالاضافة إلى ذلك، يتذوق جمال الشجرة باحساسه المرهف . ولابدّ أنه كان يعلم أن الشجرة تتعذب عندما تقطع ، والأنبياء حساسون رقيقو المشاعر .

– أنت شيطانة يا نهى. تتحدثين عن الرسول عليه الصلاة والسلام وتقولين أنه كان يعرف أن قطع الشجرة تعذيب لها، وما ذلك منك إلا لكي تذكريني بمسألة قطع النخلتين . هيا بنا . أنا ذاهب لأرى ما سيصنعون بهاتين النخلتين وسأحاول الابقاء عليهما والله هو الميسر وقد يخرج الأمر من يدنا علي كل حال.

***

خلال اليومين التاليين استسلمت نهى إلى شحوب الكآبة، فقد سمعت والدها يقول لأمها همسا إن مالك الأرض مصرٌ على قطع النخلتين لأنهما –

فى الخريطة المعدة للبناء - تقومان فى موضع المطبخ - ولكنه نزولاً على إلحاح أبى مازن عدّل الخريطة جهد المستطاع ووسع المطبخ إلى إحدى الجهتين وبذلك سيكون من الممكن إنقاذ نخلة واحدة. أما الثانية فلا مفر من قطعها، لا مفر من ذلك.

وحاول أبو مازن وأم مازن تعزية ابنتهما الحبيبة والتخفيف عنها ولكن سدى، فقد كانت أحيانا تنفعل حتى تسيل دموعها وتقول معاتبة وكأنها وردة حمراء تتنفس :

- لم أر نخلة نضيرة مثلها. إن لها جذعاً عريضاً مترفاً ريانا وكأنه ينضح ماءً وثمرها طرى عذب كالسكر، ألا تراها يا أبى تضع كيانها كله فى ثمرها؟ إنها لنخلة مخلصة. وسعفها، أية خضرة له ! وانظر إلى ذروتها ما أوسعها، إنها تفرش الأرض ظلاً ، وهى بعد ذلك كلّه حسّاسة. يا إلهى ، إنكم لا تصدقوننى. إن هذه النخلة كانت تنصت دائما إلى غنائى بخشوع. كانت تطرب وتنفعل . وأحيانا كانت تغنى معى بصوت يشبه مرور النسيم على الزنابق . وكانت الدنيا كلها تحبنى وتحبها. هذا شىء أعرفه يقينا . وطالما غنيّت لها .

وهتف أبوها :

- نهى، بنتى، كل هذا كلام غير مقبول، النخلة تخشع وتطرب؟

- والله والله يا أبى. أزيدك فاسمع. اسمعى يا أمى، إن النخلة إنما كانت نضيرة ريّا لأننى غنيت لها طوال السنين الماضية والنخيل مثل كل النباتات تحب الموسيقى . بل إنها تنمو بالموسيقى . وبسبب غنائى المستمر أمامها أصبحت ريا عميقة الخضرة ، ولهذا جاء تنا بهذه الثمار اللذيذة التى تذوب فى الفم .

ويقول مازن وهو يرفع رأسه عن الجريدة التى كان يقلّبها :

– أبى قد تكون نهى على حق . لقد قرأت مرة فى إحدى المجلات أن العلماء لاحظوا أن نوعاً من القمح يعطى محصولا أجود إذا عزفوا له ألحانا موسيقية هادئة فى الأماسى . ولذلك راحوا يستعملون الموسيقى استعمالاً فعلياً فى تحسين المحصول .

وسعدت نهى بهذا التأييد من أخيها . ومازن الآن يستطيع المناقشة فهو قد بلغ الثالثة والعشرين من عمره وفى كلامه منطق يعجب الأسرة كلها. واندفعت نهى تقول بحماسة :

– انظروا مثلا ، قارنوا بين هذه النخلة والنخيل فى حديقتنا . أن نخلاتنا كلها عجفاء يابسة الجنوع لا نضرة فيها. فى حين تبقى هذه النخلة ريّا عريضة الجذع بنية اللون لكثرة ما فى عروقها من ماء، لم هذا؟ أليس لأننى أغنى لها بحرارة دائماً؟ أو ليس لأنها تحب أغنياتى؟ وضحك والدها وحك ذقنه لحظة وقال شارداً :

– غنى لنخيلنا إذن يا عزيزتى، لماذا تخصّين نخل الجيران ببركاتك؟

– أبى ... ولكنّك تسخر منى!

وانبرت نوال تقول متدخّلة:

– بابا ، لا ينكر أن صوت نهى مطاوع رخيم، وأنها تحسن الغناء. وإذا كانت النخيل تنمو على تموجات الأغانى فإنها إذن تنمو على صوت نهى.

وردّت نهى بحنانها العذب السابغ :

– تقولين هذا عنّى لأنك أنت نفسك تحسنين الغناء ، ولو كانت هذه النخلة تملك حنجرة لغنّت أجمل مما تغنّى أىّ منّا ، إنها نخلة موسيقية فنّانة .

وضحكت والدتها وربتت على كتفها ضاحكة ممازحة :

– نهى ، حبيبتى ، يظهر أنك تحبين هذه النخلة أكثر مما تحبين نخلتك فى حديقتنا الأمامية .

وظهر سؤال صامت فى عينى الفتاة وقالت وكأنها تفكر تفكيراً عميقاً فى كل كلمة تقولها :

– هل هذا ممكن ؟ إن نخلتي غالية عندى ، ولكنى لا أغنى لها . إنها لا تستجيب للأغانى ، هذا كل ما هناك. والنخيل مثل الناس ليسوا كلهم يحبّون الغناء . إن نخلة أرض الجيران هى الموسيقية، ولذلك يسعدنى الغناء لها، لأننى بذلك أحقق حلم طفولتى الذى طالما تمنيته: أن أغنى أمام جهور.

كان جواب أبى مازن ضحكة طويلة لا تخلو من المحبة والعطف على نهى واندفع يقول:

– يا عزيزتى نهى، إن جمهورك إذن نخلة.

وردت الفتاة متفلسفة :

– إن مستمعاً مستجيباً متذوقاً واحداً أفضل من عشرة لا يهزهم الغناء.

والغناء يزلزل من يحبه ويهبه الحياة والضياء ورشاش المطر . وفى هذه اللحظة دخلت رندة وهتفت بصوت عالٍ موجهة الكلام إلى أبيها إن إبراهيم وعبّاساً قد حضرا ويرجوان مواجهته، وعندما سألها أين هما؟ قالت :

– فى الأرض المجاورة وأظنهما يريدان قطع النخلة .

ثم أضافت بسرعة وهى تغادر المكان :

– لا تحزنى يا نهى . أن عندنا فى حديقتنا أربع نخلات .

واصفرت نهى مثل زهرة عرّتها الرياح من خضرتها . وراقبت أباها بأسى وهو يخرج : ونظرت إليها أمها ورأت أن الأفضل ألا تكلمها . لقد أدركت بحس الأمومة أن الموضوع بالنسبة لابنتها كالهول، أعظم من أن

تفضّه الكلمات. ونهضت أم مازن وتركت المكان. واستشعرت نهى حاجة ملحة تدفعها إلى اللجوء إلى الحديقة. كانت تحسّ أنها ستختنق. إن ضيقاً شديداً يغلف نفسها كالضباب، وفى حنجرتها شيء جارح. واتكأت إلى الجذع الغليظ لشجرة العنب التى تبسط أغصانها فوق التعريشة وتتدلى منها العناقيد الشقراء الحلوة.

وتفجرت الدموع تفجر عبير البرتقال، وقطرت الينابيع من العينين البنفسجيتين. وبكاء نهى صلاة عميقة لانهائية. ومع نهى بكت أشجار الحديقة. وفجأة رفعت الفتاة عينيها إلي السماء وهمست :

– إلهى، لم يسبق لى طوال حياتى أن ابتهلت إليك بأى شيء . كانت نوال تقول لى دائما إن الله لا يستجيب للدعاء. وبدأت ذلك التثبيط منذ زمن بعيد ياربّى. ولكن الخالة ريم قد أكدت لى مراراً أنك لا تردّ الدعاء أبداً . قصت عليّ قصصاً كثيرة من حياتها. وهأنا ذى أتجه إليك بالدعاء الساعة . رب ، رب .

واختنقت بالبكاء، وانفتحت فى السماء طاقة ضياء وسقط نورها على وجه نهى.

– رب لمن أغنى بعد اليوم؟ إن جذورى تتقطع، وشجيراتى تتهاوى أوراقاً صفراء ذابلة. يريدون ياإلهى قطع النخلة الموسيقية التى تحب غنائى . وأنا لا جمهور لى يسمعنى . أغنى وحدى. وكانت النخلة تسعد بأغنياتى وتنمو عليها . هبنى يا إلهى ألاّ يقطعوها . اجعلها معجزة منك ياربى.

وسكتت وانقطعت عن مخاطبة الله. قالت لنفسها:

– يا نهى، أنت تعلمين أن ماتسألينه مستحيل وليس فى مقدور بشر. لقد وضع المهندس الخريطة وتقرر قطع النخلة. وأنت صامت ياإلهى تسمعنى ولا

أسمعك ، وأنا وحيدة وحزينة.

وفجأة همس فى نفسها صوت الخالة ريم العجوز وهى تقول :

– طالما أيقنت أن ما أسأل الله أن يعطينى إياه مستحيل لا سبيل إليه . ولكنى مع ذلك أدعو وألح فى الدعاء . والله كبير وجبار ومقتدر ولا شيء يعجزه . والغريب أنه سبحانه يطلع حلاً عجيباً لا يخطر على البال . هذا أعجب ما فى الموضوع. لذلك يانهى ينبغى أن تسألى الله فى شؤونك كلها . لا تصدّقى مزاعم نوال . إنها غير مجربة .

– نهى، يانهى ... نهى، بنتى أين أنت ؟

هذا صوت أبيها . ومسحت دموعها بسرعة وسارت إلى مدخل البيت. ولاح أبوها متهلل الأسارير وقال لها:

– ماذا تعطيننى إذا زففت لك بشرى؟

ومن خلال دموع العينين المترقرقتين بلون البنفسج صرخت نهى:

– بابا ، هل يمكن الابقاء على النخلة ؟

– فى مكانها؟ لا . لا يمكن فإنهم سيبنون المطبخ فى مكانها . ولكن هناك طريقة أخرى تحفظ بها نخلتك الحبيبة .

وتحيرت نهى وهتفت غير مصدّقة :

– يبقونها فى وسط المطبخ؟ هل هذا معقول؟ إنه ظلم لهم. وفى هذه اللحظة دخلت أم مازن وقالت:

– سمعت حواركما . كيف يا أبا مازن يبقون على النخلة إذن ؟

وضحك أبو مازن مقهقهاً وقال:

– ضاق خيالكما يا زوجتى وابنتى.

وعند هذا اندفع الصغير رافدا داخلاً وصاح :

– نهى، هل تعلمين ؟ إنهم يريدون نقل النخلة إلى حديقتنا.

ما أجمل هذا ! ستكون لى أنا أيضا . إنها نخلتى.

وأخذ يصفّق بيديه فرحا. وقالت أم مازن فى لهجة عتاب :

– أفكارك غير معقولة دائما يا أبا مازن . لماذا تؤلم نهى باقتراح حطول لا جدوى لها؟

– أنا ؟ لا والله يا بنت عمى . ليس الاقتراح اقتراحى وإنما هى فكرة ابراهيم وعبّاس. وهما مقتنعان بها تماما. ويريدان نقل النخلة إلى حديقتنا.

– ولكن كيف تنقل نخلة بهذه الضخامة؟ وهل تعيش إذا نقلت؟

– إنها نخلة فتية على كل حال وعمرها اثنا عشر عاما . ويؤكد عباس أنها ستعيش وتثمر .

– على بركة الله إذن. نحاول هذا من أجلك يا نهى . ابتسمى الآن .

وكان الشحوب يصلى على جبين نهى، والجراح قد استحالت إلى زنابق حمراء تعبق . واغتسل وجه نهى بالنار من الفرح ، ولكن الكآبة ولدت توأما مع الغبطة . ودارت الأرض دورة حول محورها وطلع صباح اليوم التالى وهو اليوم الموعود الذى تنقل فيه زهرة الشمس الى محراب نهى بين الأشجار ودالية[1] العنب .

***

كان يوم نقل النخلة عيدا لا تنساه الأسرة، ولا تطيق التحديق فى جبينه لجماله الآسر، ومن بين الناس جميعا تتذكره نهى التى تغتسل بالصلوات والتسابيح . وأين تكون نهى فى ذلك اليوم الجميل؟ كانت مع العمال والفلاحين وهم ينقلون شجرة الحياة إلى بستان نهى، ويزرعون الزنابق فى جدائل شعرها الأسمر مثل سمرة الأهوار جنوب العراق، ووقفت نهى تبتسم

(١) الدالية هى عريشة العنب .

مرة وتبكى مرة . كان انفعالها مثل «الهزاهز» والأمطار فى شهر آذار .

ولقد تجمع الفلاحون الطيبون من الأكواخ المجاورة ليتعاونوا فى نقل نخلة باسقة من أرض الى أرض ، وهو أمر لا مثيل له فى الدنيا . فالنخلة تتنفس من مسامات ساقها الطويلة، واذا ما دفن الساق ماتت النخلة. ولكنّ نهى قد أدخلت الله العلى القدير فى المعادلة وتلك ثروتها.

لقد حفروا أولاً حفرة عميقة فى حديقة البيت الخلفية وراء دالية العنب . وكانت حفرة مخيفة فى عمقها حتى ظهر الماء فى قعرها وأصبحت بئرا للرحيق . وسأل أبو مازن عن الوجه فى كل هذا التعمق وقال عباس إنهم سيد فنون جذع النخلة كله ليعطوها فرصة للحياة . ولم يعلموا أن الفرصة الوحيدة كانت بين يدى الله . ولم يدركوا أن الله تعالى حمل الفرصة وإذا بها فى خدى نهى. لأن نهى عندما تبكى تصبح مرتبطة بالله . ولأن الله يحبّ دموع نهى ويجعلها رشاش حياة لزهرات الفلّ.

ووقفت نهى وراء سور الحديقة المنخفض تتطلّع فى وهج من الحرارة والسعادة إلى المعجزة التى حصلت . النخلة، النخلة التى تحب الأغانى، إنها تسير نحو البيت وقد احتشد لذلك سكان الأكواخ الطيبون كلهم منهم من كان يحمل النخلة الضخمة، ومنهم من كان يغنى ويرقص (الجوبى) العراقية. والنساء كنّ يزغردن والأطفال يتنشقون عبير البرتقال ويضحكون للشمس. كان ذلك عيداً شعبيا بديع الجمال وسرعان ما انسكبت البروق فى عينى نهى وراحت الدموع تسيل على وجنتيها . ونهى تعلم أن الخطّ الفاصل بين الفرح والحزن ضيئل جداً وهى قد ألفت أن تبكى من الفرح وتضحك من الألم.

– أأنت تبكين ياعزيزتى نهى؟

ومسحت نهى دموعها والتفتت لترى أخاها الحبيب مازناً واقفاً إلى جوارها . وما من حدود تفصل نهى عن مازن، وقد ألفا أن يكونا صديقين . ومع أن مازنا قد أنهى دراسته الجامعية إلا أنه يعلم علم اليقين أن فى نهى تفجرًا رائعا وأن ذهنها يتوهج، وأن روحها فى اتساعها تشبه اللانهاية، ولها ما يشبه موسيقى الأفلاك. وكل هذا يجعل من مازن تلميذاً روحياً لأخته التي تصغره بسبع سنوات.

– نهى ، لماذا تبكين وقد تحققت المعجزة وجاء تك النخلة بقدميها لتركع بين يدى أغـــانيك؟ إنك لا تردّين على ســـؤالى وتواصلين ذرف الدمـــوع ومسحها؟

واضطرب مازن وكأن أمامه قارة مفقودة ينبغي أن يكتشفها غابة غابة، وجبلا جبلا. هاهى ذى نهى الغريبة فى عمق أحاسيسها، الرقيقة رقة الياسمين، العميقة عمق الأزل. هاهى ذى صامتة ودموعها هى وحدها التى تتكلم . وتعالى صوت الرقص والغناء والزغاريد، وزاد انفعال نهى وراحت تعضّ بأسنانها على شفتها السفلى دون أن تستطيع كبح جماح انفعالها.

– نهى، نهى، كفى عن الانفعال بالله عليك.

وابتسمت نهى، وصعد القمر الذى كان فى دموعها وعاد إلى مداره فى السماء، وأحسّ مازن أنه يستطيع الآن أن يكلمها، وبدأ يتلعثم فى عباراته:

– الدموع؟ هذه ظاهرة لطيفة فيك، إنك تملكين موهبة الدمع، وهى سجية لا أملكها أنا ... طبعا يا نهى، ... لا أمتلكها، وأنت تبكين من الفرح كما تفعلين الآن... وتبكين من الحماسة والانفعال، ... وتبكين من الاعزاز والرحمة، ومن الحزن فى ساعات الظل وتحت جدران العذاب. وهذه ،... هذه يانهى... فى نظرى مزية... لأنها علامة التلقّى الكامل من كل الأشياء حولك. أنت جهاز استقبال تلتقطين أمواج الأثير وتيارات السرّ بحساسية غريبة. هل أنت إلهة يا اختى؟ ولكن الله واحد ولا شريك له . فمن أنت؟ من أنت

يا أختى العذبة؟ قولى لى فقط من أنتِ ؟ لعلك إلهة فى آلهة الاغريق الذين نقرأ عنهم فى المسرحيات، ديانا، مينيرفا، بسيشه، برسفونيه؟ أتراك انبعثت من العدم لتكونى زهرة اللانهائية وأبدية الفصول؟

بدأت نهى تضحك من بين قطرات البلور المتحدّرة علي خدّيها وبدأت السواقى تتكلم همساً:

– أنا وأنت يكمل أحدنا الآخر ، وكل ما ينقصنى أنا موجود فيك أنت . وكل ما ينقصك مثل موهبة الدموع وغموض السرّ موجود فىّ أنا . وأنا قد لاحظت أنك لا تبكى أبدا . أبداً يا مازن . لا أتذكر أنك بكيت قط . ولم هذا؟ إن أبى نفسه يبكى وقد رأيته يوم مات عمه ينتحب بصوت عالٍ . قل لى إذن لماذا لا تبكى أنت مطلقاً ؟

كانت الأغانى ورقص (الچوبى) مستمرة. وأحضرت جميلة، ساكنة الكوخ المجاور طبلا وراحت تضبط عليه ايقاع الحياة فى عروق العروس ذات السعف المحمولة على عشرات السواعد. وكانوا يغنون على الفطرة أغنيتهم الأثيرة:

يا خايبه وشتردين ؟	ماردكا
يا خايبه والكرنه الچ	ماردكا
يا خايبه والبصره الچ	ماردكا
يا خايبه وبغداد الچ	ماردكا

وهمست نهى :

– انظر يا مازن ، واسمع هذا الغناء. هؤلاء الفقراء حولنا لهم حكمة عميقة .

– وهل لهذه الأهزوجة معنى؟

– لها كل المعنى. فيها يجد الرجل العراقى نفسه عاشقا لهذه البدوية التى ترقص، وهى لا تحبّه وإنما تحب فلاحاً فى حقول الرزّ. ومن حق الفلاحة غير المتزوجة أن تحب من تشاء بحق القانون والشرع، ولكنهم يرغمون البنات فى الريف على الزواج ممن يختاره أهلهنّ . وهذا العاشق يتوسل الى الفتاة أن تتزوج منه وتترك حبيبها الفلاح، وهنا تتجلّى عظمة الفتاة العراقية. فالعاشق أو الخاطب يعرض عليها أن يهبها الدنيا كلها فى مقابل زواجها منه. يعرض عليها أولا «القرنة» وهى القرية التى يلتقى فيها التوأمان السماويان دجلة والفرات. ولكن الفتاة لا تبيع حبيبها حتى بالبصرة . وأخيرا يعرض عليها أن يمنحها بغداد كلها لتجلس على عرشها أميرة. وتنتصر شخصية الفتاة العراقية فهى خالصة لمن تحبّ والهبات المادية لا تزيدها إلا نفورا وحب هذه الفتاة ناصع طاهر، ومن أجله تصمد أمام إغراء المال والمناصب .

وسكتت نهى، وكأنها تترقّب تعليقاً يأتى من اللانهاية . وعندما تسكت نهى لا يجد مازن كلمات . وهمست نهى :

– لم تقل لى بعد يا مازن ، لماذا لاتبكى مطلقا؟

– لا أدرى . شىء فى نفسى يأبى علىّ البكاء.

– أنت تتعالى على عواطفك العميقة لأنك رجل. ومجتمعنا يأبى على الرجل مظهر الرقّة لأنه يعدّ ذلك ضعفاً. وهذا فى نظرى خطأ . وهو خطأ حتى فى نظر الله سبحانه . وإلا فإن كان الخالق يسأل الرجل ألا يبكى لأن البكاء من شيم النساء، فان النتيجة الحتمية أنه لا يعطيه الدموع وإنما يخصّ بها المرأة . ولو بكى الرجال فى ساعات الانفعال لنزل المطر ، وتفتقت الأرض بالكمأة وعيون النرجس . لو بكيتم يا رجال العراق لتكلمت الطبيعة،

ورحل الاستعمار البريطاني. لو بكيتم يا أحبابنا لسمعنا صوت الله .

– وهل الله صامت يا نهى؟ هل الطبيعة ساكتة؟ والعراق الخصب ذو النهرين العظيمين هل هو مجدب ؟ وأمطارنا الغزيرة هل تنسينها؟

وردت نهى بالسكوت المطبق وصارت للملائكة أجنحة بيض صغيرة ورفرفت في المكان . ونزلت النجوم ونامت على شعر نهى وعاد مازن يصارع غيلان السر واخترق السكينة بسؤاله:

– أنت تعرفين ذلك كلّه، ولا يمكن أن تقولي أن الله صامت ، والطبيعة ساكتة، وقد سبق لك أن أخبرتني أن الأشجار والنهر والغمائم والطبيعة كلها تكلمك . وإذن فماذا تقصدين ؟ لابد أن يكون لك قصد . قولي ماذا تقصدين واخلعي وشاح الغموض من على جبينك .

وضحكت نهى، وهي عندما تضحك يأتي ذلك من أعماق كيانها وتحيط برأسها هالة لا يراها إلا الذين يملكون قوة الروح وقالت نهى:

– ما من شيء يسعدني أكثر من فهمك لي، أنت تدرك ما أريد قبل أن أنطق به ، ولذلك أصبحت سندي الأكبر في بيتنا. وحقا أنا أقصد شيئا آخر . العراق مجدب رغم كثرة أنهاره . ابتعد عشرة أمتار عن النهر في برارينا، تجد الأرض مشققة من العطش والجفاف . ليس من يد تزرع وتسقي وتربت في حنان على كتف التربة . والحنان هو الذي يزرع الخضرة والحب . وهذه الفتاة التي تصورها الأغنية رافضة للزواج من رجل يعطيها بغداد كلها، هذه الفتاة ينكشف لنا سرّها، إنها تثور على الكلمات الخالية من وميض الصدق . يريد أن يعطيها مدينة، أو مدنا جافة عطشى تلهث من الجفاف . والفتاة ترفض ذلك . ولو كان العراق متفجرا بالشجر والخضرة لتحول قلب الفتاة ووافقت على الزواج . فالفتاة لا ترفض هدايا خاطبها وإنما تناقش

هذه الهدايا وتنتهى إلى أنها محض كلمات بّراقة لا معنى وراء ها ولا خصوبة. والغناء الشعبيّ كما ترى كلّه رموز عميقة الأبعاد.

وهتف مازن :

– نهى ، نهى ، من أين تطلع هذه الأفكار الجميلة؟

– مازن ، مازن ، لماذا لا يبكى الرجال عندنا ؟ أنكم تذلّون دموعنا وتتركوننا نلهث من العطش . لماذا لا تبكى يا مازن؟ لماذا لا يبكون كلهم مثلنا ؟ أنهم يعطوننا – مع الرجولة التى نحبّها – الصرامة واليبوسة . والعراق يحتاج إلى رجال كلهم محبّة ورقة وانفعال . على سيقان الورد تنبت قطرات الدمع. أعطونا كل ذلك لتكتمل اليد التى تضرب البغى، وترفع راية الحق، وتطرد الاستعمار البريطانى. إن البطولة لا تكتمل من دون دموع الرحمة واتساع الانسانية.

واحتج مازن رافضا هذا الرأى :

– لو بكي الرجل فما الذى سيجعل منه رجلا ؟ إن الدموع للمرأة لا لنا. ولن تريني أبكى يوماً.

– مازن ، يا أخى الغالى، سينزل المطر فى يوم قريب . وستستفيق برارى العراق الموحشة على موجة باردة نشطة تغسل الملح وتنضج البرتقال والسندى. ولن تسيل السيول وتغسل الغبار من على نفوسنا إلا عندما تلتمع قطرات الدمع على أهدابكم . ويا مازن هل يرضيك أن يحكم الجدب والمحل سهول العراق العطشى؟ إنى أتعطش إلي اليوم الذى أرى فيه عينيك نديتين بالدمع الطاهر واسمع ما يقول شللر يا مازن [الدمعة هى فضيلة الانسان التي لا تخطىء].

كان انفعال نهى يزداد ويتأجج وهتف مازن :

– أنت منفعلة جدا . مالك؟ إهدأى يا نهى، وماذا لو لم أبكِ أنا؟

– أريد أن تبكى، أريد أن تبكى، لتنقذ سهول العراق اليابسة.

– ولكن ماذا لو لم أبك أنا؟ أنا رجل واحد وهناك ملايين غيرى يا أختى العزيزة .

– أنت العراق يا مازن وأنت لا تدرى. أنت العراق.

– يا إلهى، كيف أفهمك؟ أحيانا تقولين ما يبدو لى لغزاً. كيف أكون أنا العراق؟

وهتفت نهى وعيناها إلى السماء.

– تولد الدموع ، يولد العراق، يولد الغناء. العراق والغناء والدموع واحد، استمع يا مازن الى موسيقى اللانهاية. الورد يصلّى . الساقية والشادوف يسبحان . يولد العراق والغناء توأمين، ثم تنبع الدموع، وتصبح أراضينا خضراء معطاء ونصبح كلنا ملائكة ذوى أجنحة بيض.

وفى هذه اللحظة تعالت الزغاريد وزاد قرع الدرابك ودخلت النخلة باب الحديقة إلى حيث مهدها الجديد. كانت محمولة على أكتاف الفلاحين ينقلونها كما تنقل العروس ويزفونها الى تربتها الجديدة. وكان غناء الأطفال لا ينتهى . كل البساتين صارت تضحك، وكانت النخلة تبكى من الفرح. واختلط الضحك بالغناء والرقص والدموع.

وانصرف مازن ليرى انزال النخلة فى البئر. ونهى لا تكون منفردة مطلقاً. إن معها الله دائماً. ولذلك رشّ السكّر فى دموعها التى راحت تسيل من شدة الانفعال وهمست:

– ياإلهى، إنك تستجيب للدعاء، ونوال مخطئة عندما تقول إنك صامت ولا تتدخل، خالتي ريم هى الصادقة. وهاأنت ذا تعطينى طلبى ياربى . إنك قد

أبدعت حلاً لا يخطر على البال . وهاهى ذى نخلة الغناء محمولة على الاكتاف فى احتفال شعبى لا مثيل له . إنك أعطيتنا عيداً ياإلهى. ومن كان يصدق أنه من الممكن نقل نخلة مثمرة؟ إنه حلم لا يشبه الواقع.

***

وفى ذلك المساء لم يعد بارزاً من النخلة إلا رأسها الأخضر الجميل، ولاحظ الكل أن نهى قد انتعشت واحمرّ خداها . وعندما مرت الأشهر صلّى الشحوب على جبين نهى وعاودها مرحها واكتملت النخيل فى حديقة البيت خمس نخلات لكل أخ نخلة باسمه. فهذه نخلة مازن، وتلك نخلة نهى، ونخلة نوال، ونخلة رندة والآن أصبحت لرافد الصغير نخلة أيضا . ونهى التى تصلى البلابل فى حنجرتها اعتادت فى الأماسى أن تخرج وحدها الي الحديقة الخلفية وتقف أمام النخلة المنقولة، الفنّانة كما تسميها، وتغنى بأعلى صوتها ساعة وأحيانا ساعتين منسجمة أقصى انسجام، ولم تكن تغنى للنخلة وحسب وإنما كانت تسعد بالغناء على عادتها، وهى تعلم أن النخلة تصغى، وتسبّح لله، وتنمو، وتخضر على صوتها وعلى أغنياتها. وكانت العمة فهيمة تعجب من هذا المزاج، ولا تفهم كيف تقضى نهى ساعتين تغنى فى الحديقة، وكانت تعلق عليها قائلة:

– هاهى ذى واقفة ساعات تغنى للشجر .

وكانت نهى تبتسم حين تسمع هذا التعليق . ومن أعماق قلبها كان ينبع العطر ويرشّ الحديقة والبساتين المجاورة . كان الله يولد فى حنجرتها بصوته الجميل، وأبعاده اللانهائية . ويتحد الكل فى واحد الله والعطور والموسيقى اللانهائية وتنهار الحواجز بين الأشكال والأشياء، وتندغم عناصر الوجود فى اطار واحد بديع الجمال.

في ذلك الصباح من يوم الجمعة كانت نهى تقرأ دروسها المدرسية وهى متكئة إلى ساق العنب الغليظ المتسلق إلى التعريشة. وفجأة دخل أبوها الحديقة واقترب من النخلة فى مهدها الجديد، وقد مرّت سنة على عمرها. وتطلع أبو مازن إلى السعف الأخضر المنتشر كالمظلة والتفت إلى نهى وقال مشاكساً:

– عجيب أمرى. منذ نقلت هذه النخلة إلى بيتنا لم أعد أحبّها . إنها أشبه برأس منفوش بلا جسد . حقا يا نهى... لا تتأثرى منى. إنى لا أستحسن شكلها.

وانفعلت نهى ولكنها – بتأثير السنة التي أضيفت إلى عمرها – بدأت تتعلم ضبط النفس . ولذلك حاولت أن تكون هادئة وهى ترد على الملاحظة الغامزة:

– يابابا، حرام عليك... حرام عليك!

– حرام عليَّ ماذا؟

– أن تقول على مسمع من النخلة البريئة أنك لم تعد تحبّها. ألا تعلم أن ذلك يؤثر فى نفسيتها؟ يجرح إحساسها؟ وجراح النخيل لا تبرأ وضحك أبوها ودفع رأسه الى الوراء وقال :

– عدنا إلى الأحكام الغريبة، لكنها أحكام ظريفة مع ذلك، وأنا أقبلها منك على هذا الأساس وحده .

قد تكون أحكامى هذه ظريفة يا أبى ولكنها مع ذلك واقعية وصادقة . هذا هو المهم . ألا تريد لنخلتنا هذه أن تنمو وتخضر وتطول وتعطينا ثماراً لذيذة؟ إذن لا تقل أمامها إنك لا تحبها لأن هذا يجعلها تتألم وتنكمش وقد تذبل.

– بنتى أن العلم لا يؤيد هذه القاعدة التى تريدين فرضها. من من العلماء قال هذا ؟

– أنا أولا قد قرأت فى كتاب علمى حديث عن النبات أن هناك ورداً معينا إذا وقف أمامه الانسان وقال «يالله ! ما أجمل هذه الوردة !» تفتحت الوردة وتكاثف عطرها وصارت ترقص على أجنحة النسيم . ويقول المؤلف إن الوردة بعد ذلك تصبح أجمل لوناً وأروع عطراً. ألا ترى يا أبى؟ بالحبّ وحده ينمو النبات.

– هذا غريب حقاً. ولكن ألم يذهب المؤلف بعيداً ؟ ألم يضع جسوراً صناعية بين الفكرة والفكرة ؟ لعلها شطحة منه . ثم أنه يقول أنها وردة معينة، فهى ليست كل الورد وكل النبات.

وسكتت نهى لحظات ، وطوت كتابها في خشوع ووضعته علي حافة حوض صغير من الأسمنت يتلقى ماء الحنفية الكبيرة التى تسقى الحديقة.

وهتف أبوها:

– احذرى . أن الحافة مبلّلة وستتلف كتابك .

– لا أظن جلد الكتاب سيتأثر . بابا ، دعني أخبرك بشيء سمعته منذ أيام خلال رحلتنا المدرسية إلى الرستميّة، وهو شيء غريب .

ورد عليها أبوها وهو شارد وكأنّه لم يسمع ما قالت . كان الجسر بين المنطق والشعور مضمحلا لديه. خلافا لنهى التى تربط الاعصار بنجوم السماء. وكان أبوها يحاول أن يقطع أوراقاً يابسة من شجرة قريبة . وفجأة قال :

– رحلة الرستمية؟ أتذكّر أنك عدت منها متأخرة جداً . وقد خفنا عليك واستولى علينا القلق.

وشعرت نهى أنها توشك على الاختناق وهتفت محتجّة:

– أبى ، إنك تشرد دائماً عندما أحدثك فى الأمور الجدّية . سألتك بالله، أن تدع تقطيع الورق وتصغى إلى.

– ماذا يهمك أن أقطع الورق؟ صدقينى إنى أسمع كل كلمة تقولينها.

– لا أحسّ أننى أستطيع الكلام وأنت منشغل عنى. ذهنك تغزوه رياح آذار . وأبقى أنا أكلم نفسى . فى حين احتاج إلى كل اصغائك ، وبنفسك كلها.

– قولى ، ماذا علمت من رحلة الرستمية هذه؟

– زرنا حقول القطن وكانت مزدهرة . كان القطن الأبيض مفتحا وكأنه فراشات بيض ترفرف بأجنحتها . كان القطن أهداباً ناعمة تهمس بموسيقى الرياح.

وسكتت نهى لحظة واندفعت تقول:

– كان هناك خبير زراعى يشرح لنا طرق زراعة القطن ووسائل تحسين المحصول. وفجأة وصلنا إلي بقعة كاملة كان القطن فيها رديئاً ذابلاً مغبراً يابساً فسألت الطالبات الخبير عن سبب ذلك فلم يحسن الجواب وتركنا نتعطش إلى الحقيقة. وعند هذا قال أحد الفلاحين الشيوخ: «سيّدى إن الفلاح الذى زرع هذه المسافة كان غاضباً أشد الغضب فى ذلك اليوم. كان يزرع بذور القطن وهو يسب ويلعن ويتمزق غيظاً . وقد سأل الخبير والطالبات عن علاقة هذا بذبول المحصول ورداء ته فقال الفلاح الشيخ إن النبات لا ينمو إلا تحت ظل الفرح والمحبة والضياء. قال إنه نصح لذلك الفلاح الغاضب بأن يؤجل البذار حتى ينتهى غضبه وتزول غيوم الحقد عن وجهه ولكنّه أصرّ ومضى يزرع . وهذه هى النتيجة . لقد علمتنى التجربة أن

علينا أن نضحك ونبتهج ونغنى ، فإن ذلك يجعل البنور خصبة منتجة حية وسرعان ما يتوهج الضياء على جبين الأرض فتنبت وتخضرّ .

– وهل صدّق الخبير والتلميذات هذا الكلام ؟

– لم يوافق الخبير وراح يناقش الفلاح العجوز. ولكنّ هذا لم يترك رأيه وقال أخيراً: «أنت ترى النتائج ياسيدى . لقد قلتُ لحسباوى الذى زرع هذه المساحة : ياحسباوى لا تزرع وأنت ساخط . يا حسباوى اذهب واهدأ أولا . أو دعنى أزرع مكانك بعد الظهر عندما انتهي من عملى . ولكنّ حسباوى رفض أن يسمع وأعطانا هذا القطن الخاوى من الحياة والبياض . قال لى إن من السخف أن ننسب إلى البنور التأثر بالغضب ، وهذه هى النتائج .

وقال أبوها وقد كدس على الأرض مجموعة غصون يابسة .

– ألم يكن حسباوى فلاحاً مجرباً مثل زميله؟

– فهمت من العجوز أن حسباوى كان شاباً يافعاً لا تجربة له.

ونفض أبو مازن يديه من الغبار والتفت إلي ابنته وقال :

لو كانت البذور طفلا عمره أربعة أشهر لما صدّقتُ أنه يتأثر بالغضب . حتى الطفل لا يحسّ وهو فى سنّ مبكّرة فكيف بالبذور؟

على كل حال يا نخلة... نخلة من هذه يا نهى؟

– إنها نخلة رافد .

– على كل حال يا نخلة رافد . نحن نحبك وأنت غالية عندنا فازدهرى وأمرعى وأعطينا ثمراً حلواً . هل رضيت الآن يا فيلسوفتنا الحبيبة؟

– أبى ، إنها لا تنخدع بهذا الاقناع . لقد سمعت حوارنا وتعليقك الأول.

– ولكني أحبها بالفعل. وتعليقى ذاك كان مشاكسة لك . وأنا أقول هذا صادقاً . إذا كانت النخلة تحسّ كما تظنين فهى تعرف حبى لها . وتقرأ

نفسى وأفكارى فاطمئنى.

عند هذا لاح على الفتاة سرور أحسّه أبوها، وتألّقت عيناها السوداوان وقالت وكأنها تصلّى:

– لقد خلق الله كوناً حساساً يا أبى، كل ما فيه يشعر وينبض ويحيا ولذلك أحسّ دائماً أن علىّ أن أعامل بالرفق والحب حتى الأشياء الجامدة. ألا تنبض الذرّات في داخلها كما تنبض قلوبنا؟ ثم أن الأشجار أكثر إحساساً من الجمادات . هل تعلم أن العلماء أثبتوا بتجربة مختبرية أن أغصان الشجر تستفزّها وخزة الدبّوس؟

– بنتي نهى، كل هذه الأفكار تصبح مؤلمة للانسان. إذا كنا نرى لكل شىء إحساساً فلن نستطيع أن نعيش.

ولم تردّ نهى، وتنهدت وتناولت كتابها وفتحته ثانية ومرت فترة صمت وسألها أبوها:

– ماذا تقرأين؟

– احفظ نونية ابن زيدون. لنا غداً امتحان فى الأدب الاندلسى. ودخلت أمها فى هذه اللحظة ومعها رندة وهى تقضم تفاحة وقالت أم مازن :

– أبا مازن، ماذا تفعل هنا تاركاً أعمالك؟ أما قلت لى أن عليك اليوم عملاً كثيراً؟

– يا بنت عمى المحبوبة. إن ابنتك كانت تؤكد لى أن نخلة رافد متأثرة منى لأننى قلت أمامها إننى لا أحبّها.

– إن نهى واسعة الخيال دائماً، وهى تعطينا مطراً من الأفكار الحلوة عن الأشجار . كل عيبها أنها غير واقعية ، ولكن ليس هذا هو العجيب بل العجيب أن نهى تعدّ دروسها اليوم أمام نخلة رافد . فى حين كانت عادتها

الدائمة الدراسة تحت نخلتها فى الحديقة الأمامية.

قالت رندة وهى ترمى آخر التفاحة فى الحديقة:

- مع أمى الحق يا نهى. أن نصيب نخلة رافد منك كان لا يتعدى الغناء فأنت تقصدينها كلما طربت . أما قراءاتك فكانت تحت نخلتك دائماً . قولى لنا لماذا غيّرت عادتك اليوم؟ هل أصبحت نخلة رافد مثقفة ؟

وضحك أبوها وقال:

- نخلة رافد اليوم قد حفظت نونية ابن زيدون.

وقالت نهى:

- هل على الانسان أن تخضع حياته لقواعد ثابتة كل الثبات؟ إن التغيير بين الحين والحين جميل. وأنا أريد أن أتغير بأن أطير من وضع الى وضع كالفراشة . لا أدرى ما أريد يا أمى. كل ما حولى فى الدنيا يبدو لى وكأنه ينادينى النهر يدعونى، وعندما أقف أمامه أحسّ وكأن أمواجه البنيّة تصيح : إنى أحبك. تعالى وغوصى فى أعماقى. أريد أن أضمك وأحتويك فى أحضانى . حتي الموت ينادينى.

وصاحت أم مازن :

- ما هذا الكلام يا عزيزتى؟

- صدقينى يا أمى. أريد أن أكتشف الموت فلا شك فى أنه جميل كالحياة وهو يدعونى. ولكن الذى يحزننى أنكم لا تسمعون نداء الأشياء مثلى . ولا تعلمون على الأقل أن الأشجار تشاركنا حياتنا الداخلية الأخاذة. أنتم تعتبرون حديثى هذا عبثاً غير جدى وخيالات وهمية .

ولاحت كآبة حالمة فى عينى نهى، وقطر عطر البنفسج من شعرها المسترسل إذ حركته بأصابعها، وتنهدت وسكتت .

وقالت أمّها:

- والجوع يا غالية ؟ ألا يناديك؟

وقال أبوها:

لابدّ أن النخلة تدرى أننا جـائعـون فـاذا تركناها وانصـرفنا إلى تناول الغداء عذرتنا.

قالت نهى وهى تطوى الكتاب وتضحك معهم.

- حقاً . الأكل أفضل اقتراح الآن، فأنا جائعة.

***

فى تلك الليلة قال أبو مازن على مائدة العشاء:

- من كان يصدق أن الشتاء ينقضى بهذه السرعة. هانحن أولاء فى آذار وها أن الجـو مـتـقلب فـلا يعلم الانسـان مـتى تهب عاصـفـة هوجـاء وتسـيل السماء سيولاً.

وجاء صوت نهى حزينا خارجاً من أعماق التذكر.

- لماذا تنقضى الأشياء كلها بسرعة كحياة الفراشات؟

وأجابت أم مازن وهى تفرغ الرز فى صحن رافد :

- هذا متوقّع ، أعنى تقلب الجو ، ونحن فى بغداد نسمى شهر آذار شهر «الهزاهز والأمطار».

وسألت نوال:

- ترى ما معنى (الهزاهز)؟

- هى الرياح الشديدة التي تهز الشجر وتقتلع الأبواب والنوافذ أحيانا . وهذه صفة آذار فهو عنيف حين يعصف.

وقال أبو مازن وهو يلقى بالملعقة:

- إنى أشم رائحة عاصفة اليوم، فقد غامت السماء عند الغروب وأقبلت غيوم سود مخيفة، وفى الجو رائحة تراب مبلل . سترنا الله من النتائج.

وما كاد يكمل عبارته حتى أرعدت السماء إرعاداً شديداً ولمع البرق وضحك الأولاد ونظر بعضهم إلى بعض وقالت أم مازن :

- أنت عجيب يا أبا مازن كأنك مقياس للجوّ . وأنت تحزر الأحوال الجوية على هذا الشكل دائما.

- أنا أحزر الأحوال الجوية، والأحوال الوحيدة التي لا أحزرها هى تقلب الحالات النفسية لدى نهى. هاهى ذى اليوم شاحبة تلفعها الكآبة لا تكاد تشاركنا أحاديثنا.

- لا أدرى مالى. أنا نفسى لا أفهم أحوالى النفسية. إن على روحى الليلة غمامة سوداء.

- بنتى يجب أن تبددى الغمام . تفاء لوا بالخير تجدوه. هذا ما دعا اليه الرسول .

- ماذا أفعل إذا كانت نفسى مقفلة غامقة؟ ليس التفاؤل هذه الليلة فى يدى. وأنا عادة سعيدة بكل شىء، إلا عندما يعترينى غم لا أفهم أسبابه كما أنا اليوم .

فجأة انقطع التيار الكهربائى فى المنزل كله . وفى الوقت نفسه اشتدّت البروق وتعالت رعود قاصفة. وهتفت أم مازن :

- مازن عزيزى، هات شمعة من المطبخ . ضعها فى صحن وأشعلها وقاطعتها نوال:

- أمى ، أن الرياح ستطفئها، والأحسن أن نشعلها هنا.

واستمر لمعان البروق المخيفة وبدأ المطر يسيل سيولاً على قصف الرعود،

وعصفت رياح هوجاء راحت الأبواب تصطفق لها . كان صوت الريح يثير الرعب. وارتجفت نهى من الخوف ووضعت يدها علي عينيها وصاحت:

– ياإلهى . أسدلوا الستار . إنى أخاف من البرق، أخاف . إنه يدخل فى جبينى ويوجعنى.

وكان الكل يعرفون خوف نهى من البرق فهى صفتها منذ الطفولة ونهضت رندة وأسدلت الستار على النافذة. وامتنع البرق من الدخول ووقف يتربص بعينيه اللتين تطلع منهما النار الفضّية .

وقالت العمة فهيمة :

– نحن في بناء ونشعر بالخوف من هذا الإعصار، فما حال جيراننا سكان الأكواخ الليلة ؟ كيف حال عبيد وأسرته ؟

قالت أم مازن :

– ياللمساكين ! إن بؤسهم الليلة شديد ولا شك . ولابد لنا أن نخرج بعد العاصفة ونتفقدهم ونرى ما يمكن أن نعمله لهم.

واشتدت الأعاصير والرعود والبروق وسمع صوت صاعقة سقطت فى مكان قريب. وجلس أفراد الأسرة خائفين . وعندما هدأ كل شىء بعد ساعة وبرز قمر آذار من وراء الغيم قال أبو مازن :

– أظننا نستطيع الآن أن نفتح باب المنزل ونطلّ على الحديقة والشارع .

قال ذلك ونهض وخرج وفتح الباب الكبير ووقف يطل منه دون أن يخرج وأسرعت نهى ووقفت وراءه :

– أريد أن أرى ما فعلت نخلتى فى هذه العاصفة . وجاء جواب أبيها غامضاً أشد الغموض فقد قال بهدوء :

– أين هى؟

ولاح في لحظة أن تفكير نهى قد شُلّ ، فقد راحت تفكر، في ومضة خاطفة، كيف يمكن لأيٍّ إنسان له بصر طبيعي أن يقول عن نخلة باسقة كبيرة الرأس «أين هي؟» لو كانت النخلة حمامة أو حتى لقلقا لصحّ أن يحدّق في الظلام فيقول «أين هي؟» أما أن يسأل هذا السؤال عن نخلة طويلة عريضة فهذا لابد أن يدلّ على معني غير معتاد ويستثير التفكير . ولذلك جزعت نهى ونظرت من وراء رأس أبيها إلى موضع نخلتها الحبيبة فرأت فراغاً فاغراً في الظلام لم تر مثله من قبل. وصاحت بصوت مرتعش:

– أبي ، أين نخلتي؟ إني لا أراها .

وسار الأب خطوات وخرج إلى شرفة المنزل ووراءه نهى المصعوقة. لقد كان حقاً ، لا وجود للنخلة في مكانها. وأخيراً قال أبوها:

– أمرٌ محزن. يبدو أن الإعصار قد كسر نخلتك . ولكن أين رماها؟ إني لا أراها في حديقتنا.

أخذت نهى ترتجف ارتجافا شديداً وأحسّت أنها قد طعنت بخنجر . نخلتها! نخلتها! إن العاصفة قد كسرتها ورمتها بعيداً.

واتجه أبو مازن يساراً حتى قارب سور الحديقة فإذا هو قد انهدم، وإذا النخلة مرميّة وراءه في أرض الجيران .

– هاهي ذي نخلتك . إنها ملقاة هنا. كانت العاصفة من القوة بحيث حملتها من مكانها وتعدّت بها سور حديقتنا وألقتها في حديقة الجيران ويظهر أنها مرّت بالسور وهدّمته.

واقتربت نهى من أبيها ورأت نخلتها الغالية ممددة على التراب. وراحت دموعها تنهمر ثم بدأت تنشج كأنها غمامة تقطر .

– نهى ، بنتي، لا تكوني طفلة. إنه قضاء وقدر ولا قدرة لأحد على رده.

احمدى الله على سلامتنا نحن. إن نخلتك قد ذهبت فداءً لنا . أما كان من الممكن أن يقع السقف علينا وهو مصنوع من قواطع الخشب والحصير؟ وانظرى إلى تلك الأكواخ! انظرى ما حدث لها من هذه الرياح العاتية المدمرة.

وكان ذلك حقاً . بدا الكوخ الأول بلا سقف فقد اقتلعت الرياح سقفه المصنوع من الحصير . وأحسّت نهى أنها تخجل أن تبكى نخلتها وهؤلاء الناس قد فقدوا مأواهم كما يبدو ، ولكنها لم تستطع الكفّ عن البكاء. فقد كان منظر النخلة شاجياً وهى ممددة بلا حراك على الأرض وقد انقصم جذعها الحسّاس من الوسط. لقد قتلتها الرياح . ولم تعد تبادلها أحاسيسها.

قال أبو مازن وهو يحيط ابنته بذراعه :

– تعالى يا عزيزتى، لا تكونى طفلة، إن عندنا أربع نخلات أخرى وكلها لك .

– إنى لا أتألم لأنها نخلتى. ولكنى أفكر فى الآلام التى عانتها وهى تقتل هكذا ، وترميها الرياح ، إن النخلة تتألم حين تقطع، كما يتألم إنسان قطع عند البطن بسكّين .

وحدث هرج ومرج بين إخوة نهى حين علموا بما حدث للنخلة . خرجوا كلهم بانفعال إلى الحديقة ورأوا منظر العروس القتيلة الراقدة فى الطين. كانوا حزانى لأنها نخلة نهى. وتمنى كل منهم لو أن نخلته هى التى انكسرت فى مكان نخلة نهى، ولكن لا مردّ لقضاء الله . أما نهى فوضعت رأسها بين يديها واستمرت فى البكاء . وفى اليوم التالى أصبحت مصابة بحمّى شديدة وآلام فى رأسها وعندما اشتدّت حرارة جسمها راحت تهذى وكان هذيانها

خليطاً غريباً ولكن كلمة (نخلتى) كانت ترد فيه مرّة بمعنى، ومرات بلا معنى. وكانت اللازمة التى تتكرر عبر هذيانها وتعود إليها بلا انقطاع هى قولها:

يا نخلتى

يا سوداء

أين كنت غائبة ؟

فى بيروت

أنت ملكة

***

وفى الأيام التالية اشتدت حالة المريضة، وأعلن الطبيب لأبيها همسا أنها مصابة بالمرض المسمى «التهاب ذات السحايا» وأشار بنقلها إلى المستشفى وهناك واصلت هذيانها تحت وطأة الحمّى وكانت حولها فى غرفتها بالمستشفى أمّها ونوال ورندة. ونظرت المريضة فى وجوههنّ ثم هتفت :

– لا تتكلموا . أصغوا إلى الصوت الآتى مع العاصفة . اسمحوا لنخلتى الميتة أن يصلنى صوتها. إنها تنادينى . صوتها الحزين يهمس : نهى، نهى تعالى إلىّ يا نهى . آتية يا نخلتى يا حبيبتى ، آتية سريعاً. نوال، نوال أعطينى معطفى فالجو بارد . وأعدّى حقيبتى لأسافر .

وصمتت لحظات ثم قالت متوسلة :

– أنا عطشى ، عطشى يا نوال، قدح ماء بالله عليك. ولكن ضعى العاصفة فى حقيبتى أولاً . ضعى ريش القطن الأبيض أيضا .

وراحت نوال تبكى فى صمت . ونهضت أم مازن ورفعت رأس المريضة وسقتها رشفة ماء. غير أنها عادت إلى الهذيان وأصبح صوتها يسيل كالموسيقى:

– حسباوى كان غاضبا وماتت الفراشة البيضاء .

ثم صاحت بغضب :

– ضعوا الرياح فى حقيبتى ، آتية يا نخلتى وسأحمل لك الرياح ومعها عواء ابن آوى . نوال ، جهزى لى طعاماً ولا تضعى فيه الفلفل . إن الطريق بعيد ، الطريق بعيد ، الطريق بعيد .

ونهضت أم مازن ثانية والقلق يمزقها ووضعت يدها علي جبين المريضة والتفتت وقالت لنوال :

– إن جسمها يشتعل بالحمّى .

ودفعت نهى يد أمها عن جبينها وهتفت :

– آه، الجو خانق ، أزيحوا الغطاء عنى. إن ابن آوى يعوى والنخيل سرب حمام خائف . اطردوا ابن آوى اطردوه . إنه سيأكل بنت (جميلة) الصغيرة . شدّوا كلبين شرسين إلى مهدها، شدّوا كلبين .

قالت أم مازن والقلق يرعش جسدها :

– دقّى الجرس يا رندة ولتأت المرضة ، لعلّهم يضعون لها كمادات ثلج تخفف هذه الحمى.

وعاد صوت نهى يسيل مثل جدول صافٍ :

– آتية يا نخلتى حالاً . إن سور حديقتنا عالٍ وسميك ولكنى سأجتازه لقد حطمت جزءاً منه وأطعمته للعاصفة.

ثم نظرت إلى نوال وقالت بفرح مفاجىء:

– نوال سنجتاز السور أنا وأنت ، هل تأتين معى؟ آه ولكن لا نوال لن تأتى. ابقى يا نوال فى الردهة ، ودعينى أخرج وحدى تحت عاصفة آذار . المطر لى أنا وحدى . إنه يغنى لى ولكن النخلة قد انكسرت والسماء تمطر

عليها وتبللها.

وعادت تصرخ:

– ابن آوى ، أبعدوا ابن آوى، أطردوه واستحال صوتها إلى صراخ ضعيف . وسكتت فجأة وأغمضت عينيها وفتح الباب ودخلت الممرضة وسألتهم أن يتركوا المريضة وحدها ويخرجوا لأن وجودهم يثير انفعالها.

وتجمع في غرفة الانتظار بالمستشفى كثير من الأقارب والأصدقاء يتسقطون أنباء المريضة . وأخوتها كانوا يبكون ويضرعون إلى الله أن يشفى أختهم المحبوبة . وهل فى الأسرة إنسان لا يحب نهى؟ هل صدرت منها طوال حياتها كلمة إيذاء لأحد؟ أبدا، ولا كانت لها طلبات من أى نوع . كانت هادئة وديعة كالملك السماوى. وكان الكل يحبّونها ولا يردّون لها رغبة حتى لو لم تبدها. وكانت عادتها ألا تبدى رغباتها حرصاً على مشاعر الآخرين وراحتهم.

وفى التاسعة مساء حضر الطبيب وقال :

– إن حالة المريضة قد تحسّنت ولكنها مازالت تهذى، والأوفق أن تعودوا الى بيوتكم وتتركوها، إن من المضر بحالتها النفسية أن تري أى أحد منكم.

واعترضت نوال :

– دكتور، لقد كانت تكلمنا وهى ترانا.

– كل ذلك هذيان يا صغيرة ، إنها لا ترى أحداً . وأخشى أن تفيق وتراكم فيكون ذلك أذى لها. فهي إلى جانب مرض ذات السحايا مصابة بصدمة قاسية ووجودكم قد يذكرها بهذه الصدمة . ولذلك لا أستحسن أن تدخلوا غرفتها . ونحن نحاول أن نهدئها وننسيها. فسكينة النفس مهمة بمقدار أهمية الأدوية التى نعطيها إياها. وسترونها فى الصباح أحسن

بكثير .

وذهب الاخوة والأبوان والعمة إلى البيت وفى قلوبهم أمل كبير . وفى صباح اليوم التالى ذهب الكل إلى المستشفى إلا نوالا فقد كانت مضطرة إلى البقاء فى المنزل فى انتظار دواء معين ينبغي إحضاره للمريضة. وعندما وصلت المستشفى فى العاشرة رأت كثيراً من أفراد العائلة موجودين هناك وهم يتكلمون همساً. ولم تر أبويها ولا أخوتها الثلاثة. وسألت الممرضة نعمت التى تعرفها فقالت لها بحنان غامر :

– أختك قد تحسنت فلا تخافي، ولكننا نعطيها الآن علاجاً فلا تدخلى عليها .

ولكنّ نوال لم تقتنع بهذا الجواب الذى لا يفسّر شيئا وقالت لنفسها : (لابدّ أن حالة نهى ليست علي ما يرام. ولكن قلبى يحدّثنى أنها ستشفى وهؤلاء الأقارب الطيبون يشاركوننا خوفنا عليها وهم لذلك واجمون). وأحسّت بدفقة أمل قوية تملأ نفسها وسألت قريبة لها عن أبويها، أين هما فأجابت :

– آه ... أبواك ؟ .. إنهما ... انهما فى الجناح المجاور فى المستشفى آه ... لقد ذهبا لزيارة مريضة ... يعرفانها... وأظنهما سيعودان... أجل، ... سيعودان حالا..

– ومازن ورندة ورافد ؟ أين هم؟

– يا عزيزتى... مازن ورندة... آه ورافد ... لقد ، لقد ذهبوا إلي مدارسهم.... وليسوا هنا.

– نهى بخير إذن ياخالتى؟

– إن شاء الله، كل شىء بيد الله، توكلى عليه.

ونوال لا تعرف التوكل على الله. غير أنها وقفت ساعة مع الواقفين فى الممر وفى الحديقة . وأخيراً رأت مقعداً تجلس عليه ممرضة لا تعرفها فجاء ت وجلست إلى جوارها وسألتها همساً:

– أيتها الأخت .. كيف نهى الآن ؟..

ولم تكن الممرضة تدرى أن نوال أخت نهى فقالت لها :

– ماذا تقولين؟ إن نهى قد ماتت منذ الصباح الباكر .

وأحسّت نوال أن صوابها قد طاش ، وأن النجوم قد وقعت كلها محترقة علي الأرض ، وصرخت صرخة عالية هزت المستشفى وسقطت على الأرض وراحت تنتحب انتحابا شديدا وهى تصيح :

– يا إلهى، إنك قاسٍ علينا. أنت حاقد لئيم ولذلك أخذت نهى منِّى. ولن أعبدك بعد اليوم، لن أعبدك ياإله الشر والموت.

وتجمع الأهل يحاولون تهدئة الفتاة المفجوعة ولكنها هتفت:

– كلكم كذبتم على. تزعمون أن صحتها تَحسّنتْ ، وهى قد ماتت ، ماتت أختى نهى، ماتت.

وواصلت البكاء بصوتٍ شاجٍ وصاحت بالممرضة المختصّة نعمت التى كانت واقفة حزينة إلى جوارها:

– وأنت يا ممرضة . لقد ادّعيت أنها تحسّنت وكانت هى ميتة، طوال الوقت ميّتة.

وراحت الممرضة تبكى فى صمت . وهتفت العمة أم جلال وهي تلفّ ذراعها حول كتف نوال:

– حبيبتى نوال. كنا نحن هنا فى انتظار تشييع الجثمان ولم نعرف كيف نقول لك الحقيقة. وأنت كما نعلم جميعاً شديدة التعلّق بالفقيدة.

– ياالهول! يااللهول! نهى عروس النخيل وفتنة الورد، أصبحت جثمانا، نهى، أختى الحبيبة نهى.

وراحت تعول وتشهق وصاحت:

– خذونى إلى أبوىَّ وأخوتى، أين هم؟

وقادوا الفتاة خارج المستشفى إلى بيت قريب يملكه أحد أصدقاء الأسرة وهناك رأت أبويها وأخوتها في مناحة رهيبة وصاح أبوها:

– تعالى يا نوال، تعالى يا بنتى المسكينة . كنا مشفقين عليك من الحقيقة فتركناك .

وكانت أمها تبكى وتقول وتعيد :

– لم تحتمل انكسار النخلة مطلقاً. لقد تبعتها إلى حيث هى، فى عالم مبهم لا نعرفه.

وقالت نوال وهى تكف عن البكاء.

– لقد أصبحت أصدّق كل ما كانت نهى تقوله عن الأشجار . أنها تحسّ وهذه النخلة هى التى نادت إليها نداء خفيا. لقد ذهبت حبيبتنا نهى، ذهبت على عجل لتعانق نخلتها وتلقى عليها القصائد إلى الأبد.

وقال أبو مازن :

– ياإلهى ، لا اعتراض على مشيئتك، تحيى وتميت كما تشاء.

وفجأة راح يبكى بصوتٍ عالٍ ويقول:

– ولكنّ هذا غير مترابط ... وفاة نهى لا ارتباط فيها.

وكان مازن ساكتاً مطرقاً يتعذب ولا يبكى وصاحت أمه:

– مازن ، عزيزى، لا تكتم شعورك هكذا ، ابك ونفس عن إحساسك فأنا أعلم أنك أشدّنا حزنا.

وقال مازن وهو يبذل مجهودا للسيطرة علي نفسه :

– إنه مـتـرابط يا أبى، وقـدتعلمت من نهى هذه السنة أن كل شـىء فى الوجود يملك إحساساً وروحاً وضعها فيه الله. ونهى كانت أشدنا إحساساً بلغـة الأشياء ولذلك كـان كل شىء يناديهـا، حتى النهر كان يدعوهـا، حتى الموت، الله نفسـه كان يدعوها إليـه. ونهى حسّاسـة وكـان المنطقى أن تلبى النداء وترحل . خاصة بعد أن ذهبت نخلتها. وهذا مترابط يا أبى.

ثم غطى وجهه بكفيه وارتعش جسمه كله وصاح بلهجة عذاب شديد :

– مترابط يا نهى!

وبدأ مازن يبكى ، وهتف يقول وهو يرتجف :

– ها أنا ذا أبكى ، كما تمنّيت يا نهى، ها أنا ذا أبكى يا أختى الحبيبة. وقد كان عليك أن تهبى حياتك الغالية ثمنا لدموعى. كان عليك أن تموتى أولا لكى أبكى كما تريدين.

وتذكـر كلمـاتـهـا «تولد الدمـوع، يولد العـراق ويولد الغنـاء» ثم قـال وهو ينتحب :

– ولد العراق يا نهى، لأن الدمـوع ولدت فى عـيـون الرجـال. أنت تموتين مضحيّة بحياتك لكى يولد حبيبك العراق .

واشـتد بكاؤه وراح ينتـحب انتـحـابا شـديداً، وأحسّ ضـمـيره يثـور عليـه ويمزّقـه. فلو كـان بكـى كـمـا تمنت نـهى لما اضطرت إلى أن تموت. ومـضـى مازن يبكى فى حرارة ولوعة وراحت السماء تمطر وتمطر وتمطر.

وفـجـأة رفع مـازن رأسه وعلى وجـهـه اشـراق وهدوء روحىّ عـميق وقـال بانفعال وسرعة متلاحقة وهو يشهق:

– أبى، أمى، نوال، اسـمـعـوا جمـيـعاً مـا أقول ، أنى واثـق من أننى أرى

نهى الآن وهى تضحك فى بهجة وترتدى ثوباً من الموسلين الأزرق الفضفاض وشعرها المسترسل الطويل يتطاير مع الرياح. كانت تسير وكأنها تطير . ولا تظنوا أن ما أقوله خيال. صدقونى أن صورتها هذه ارتسمت أمامي وهى رسالة منها إليكم أبلغتنى إياها لكى تكفوا عن الحزن.

وصمت مازن واشتد عصف الرياح وزمجرت الأعاصير والرعود، وتساقط المطر غزيراً سيالا يغسل كل شيء حتى الأحزان. وأحسّت نوال بخوف ورهبة أمام الأشياء كلها. قالت لنفسها إن نهى على حق، ومازن علي حق أيضا، والله ليس لئيما ولا حاقداً، وإنما أخذ نهى إليه لأنها تفهمه فهما عميقاً فهو يحبّها.

وشيعت نهى إلى قبرها الأخضر وطلبت نوال أن يكتبوا عليه:

نهى محمود : سبعة عشر عاماً

رحلت مع الرياح

إلى حيث النخيل والموسيقى

(١٩٧٥)

رحلة فى الأبعاد

منذ طفولة «شوق» كان حلمها الأكبر أن تمتلك القدرة على رؤية الزمن، فتنفصل عندما تشاء عن الحاضر الذى تحيا فيه، لترجع فتعيش فى العصور السابقة لحظة لحظة، وترى كيف كان الناس يقضون أوقاتهم وبم كانوا يتحدثون؟ وما أشكال مساكنهم؟ وما الأثاث الذى كانوا يفرشون به تلك المساكن؟ وماذا كانوا يلبسون ويأكلون؟ وكان حلمها الأكبر أن تستطيع رؤية التاريخ العربىّ كلّه بتفاصيلة جميعا فتلتقى بالشخصيات التى أحبتها وعايشتها بخيالها مثل امرئ القيس وطرفه بن العبد، وعبيد بن الأبرص، ومثل رسول الله صلى الله عليه وسلمّ، ومصعب بن عمير، والإمام زين العابدين، وطارق بن زياد، والمتنبى، وابن الفارض، ومحيى الدين بن عربى وعشرات غيرهم.

وقد شغل هذا الحلم المستحيل من حياة. شوق. أوقاتاً كبيرة فصرفت ليالى لا عدً لها، وهى ساهرة تتقلب ولاتنام، تلعب بها التخيلات، وتحلم بالزمن وخفايا التاريخ العربى الساحر. وطالما امتدّت بها الأحلام حتى تصوّرت نفسها تمشى فى بغداد كما كانت فى عصر المأمون، وترى

بساتينها ونخيلها وجوامعها، وتتصور على أى شكل كان دجلة يتلوّى بين ضواحيها. وكانت هذه الخيالات تسبّب لها الأرق لأنها تثير أشدّ انفعالاتها وحماساتها من جهة، ولأنها تقاطع دائما ولاتستمرّ مطلقاً. فما تكاد شوق تبنى من تصوراتها صورة لبيت بغدادى على النهر فى عصر المأمون حتى ينبعث صوت العقل البارد، فيصيح بها: ياشوق، من قال لك إن هذه الصورة صحيحة؟ إن هى إلا أحلام. لقد مضى الزمن وليس فى الوجود إنسان واحد يملك أن يراه . فلو حلمتِ ألف سنة لما خرجت بصورة واحدة صحيحة يمكن أن تطمئنى إليها. وها أنت ذى سعيدة، يخفق قلبك حماسة وجذلاً، لأنك تحسبين أنك قد حققت رؤية بيت بغدادى زمن الخليفة المأمون . فعلى أى أساس تبنين السعادة؟ إن حلمك مجنون ومستحيل فافتحى عينيك على واقع الدينا وكفاك تخيّلاً. ولكن الفتاة لم تكفّ قطّ عن أحلامها السحرية هذه، لا بل إن سنوات عمرها كانت تضيف حماسة جديدة عاماً بعد عام، حتى أصبحت تبتهل إلى الله أن يكون للإنسان بعد الموت الاقتدار على تحقيق هذا الحلم الذى شغفها حباً . وراحت تمنّى نفسها بأن الموت باب من الرؤية والبصيرة ينفتح للإنسان، لأن الجسد ثقيل كثيف ـ يحجب رهافة الروح وامتداد أبعادها وقوة بصرها . كانت شوق تقول لنفسها: لعلنا حين نموت نمتلك تلك القدرة العظيمة الرائعة التى وصفها ذلك الكاتب الفرعونى القديم (توتى) بعد موته حين قال وهو يصف اللحظة التى مات فيها:

«فجأة، أصبحت وكلّى بصر وحسّ، وانفتحت أمامى المسافات كلها فأصبح نظرى يخترق الجدران والأبعاد»

وعندما امتلأ قلب شوق بهذا الأمل السعيد، وبدأت تصدق أن الموت تَفَتُّح واقتدار وامتداد أصبح موضوع استحضار الأرواح يسحرها ويفتن روحها

ويجتذبها اجتذاباً شديداً. واشتغلت عدة سنوات بالاتصال بمئات الأرواح القديمة والحديثة والتحدث إليها خاصة روح الوفى الكبير الشيخ محيى الدين بن عربى، وقد سحر أيامها فترة طويلة بأحاديثه الروحية الرائعة. غير أنّ قدرتها المحدودة على الوساطة قصت جناحها فلم تستطع أن تذهب بعيدا فى تخطى الحواجز بين الأحياء والأموات . وكل ما خرجت به أنها تأكدت من أنّ الإنسان لايموت حين يخمد جسده ويدفن وإنما تنطلق روحه فى الكون لتؤدى رسالة جديدة تختلف عن رسالة الحيّ كل الاختلاف .

وخلال ذلك زاد تحرّق شوق إلى رؤية التاريخ، حتى أصبح شغفا وولها لايحدّه شيء . فكانت إذا زارت مُتْحَفا تركت فيه أشياء كثيرة، وانصرفت مسحورة إلى التطلع إلى الأدوات التى كان الأسلاف يستعملونها فى حياتهم اليوميّة. وطالما عجب الذين يصحبونها إلى المتاحف من طول وقوفها أمام إناء صغير تافه متحدّر من عصر قديم، فى الوقت الذى ينصرفون فيه هم إلى رؤية المتحف كله وتتذكر شوق من ذلك ما وقع لها يوم زارت المتحف الصغير الملحق بالحرم الشريف فى مدينة القدس، فقد عبرت بعشرات الأشياء ووقفت مبهورة أمام قدر ضخم هائل كانت زوجة السلطان سليم القانونى تطهو به الطعام فى قصرها يومّياً . ولم يكن الذى سحر شوقاً أن القدر كان شديد الضخامة بحيث يطعم ألف إنسان كلّ يوم، وإنما افتتنت بمجرد أنها ترى قدراً من حياة ذلك الزمان، تراه رأى العين، وتلمسه بيديها، وتحقق خيالاتها المسحورة. وطال وقوفها أمام هذا القدر ـ مع أن الزائرين كانوا يمرون به ولايقفون ـ لأنها راحت تحاول أن تبنى لنفسها صورة للناس وللمنزل والطرق والحقول والزمان كله . وجاء من كانوا معها، وأبدوا دهشتهم من طول مكوثها أمام قدر اعتيادى لا قيمة له. وذهبوا وأكملوا رؤية

المتحف وجاء وهاهم يلّحون أن يذهبوا فلم تتحرك إلا بعد أن أمسكوا بها من يدها وجرّوها جراً.

ولكنّ رؤية مثل هذا القدر الثمين لاتشكل فى حلم شوق إلا جانبا يسيرا، فالاشياء عندها ليست أكثر من دلالات تشير إلى الجوهر، أما ماتبحث عنه وتريد رؤيته فهو الحياة والروح والانسان فلكم تكون شوق سعيدة لو رأت زوجة سليمان القانونى هذه وكلمتها وهى تعيش فى زمانها وتتنفس هواء ه. كم تسعد لو رأت أولئك الألف من الناس وقد تجمعوا ليأكلوا من طعام ذلك القدر، لو أتيح لها أن تسمعهم يتحدثون وهم يأكلون، ثم تلحق بعضهم فى دروب المدينة إلى بيوتهم، وترى أولادهم وأهلهم، وتلمس حياتهم كلها. إذ ذاك يصبح القدر حياً وتنتفض الروح فيه. وإذ ذاك ـ قالت شوق لنفسها ـ سأتيه فى الزمن إلى الأبد فلا أرجع إلى هذا العصر مطلقاً، لاعن كراهية لعصرى فأنا أحبّه، وإنما لمجرد أن الزمان بعيد الغور، هائل الأبعاد وأنا عاشقة للزمان فكيف أرجع ومتى؟

ومضت السنوات سنة بعد سنة، كلما زاد وله شوق برؤية التاريخ زاد إحساسها بأن تحقيق ذلك الحلم مستحيل . وأن الله وحده هو القادر على الرؤية السحرية التى تحلم بها . ولكنّ اليأس لم يوقف أحلامها وبقيت نشيطة الخيال، حالمة القلب، مأخوذة بالعوالم الغامضة التى تمتد وراء هذا العصر فى أعماق التاريخ الذى ذهب إلى الأبد فلا رجعة له. وبقى هذا الولع أشد ولع لها فلا شىء يعادله فى حياتها الروحية على الإطلاق .

وفى ذات يوم سعدت شوق بتفتح روحى عجيب لامثيل له، فغابت عن هذا الوجود ورحلت إلى الوراء ألفا وأربعمائه عام حتى رأت العصر الجاهلىّ وبقيت ترقبه نحو نصف ساعة ثم أفاقت وعادت إلى وعيها . وما كادت تصحو

حتى ركضت إلى زوجها مسحورة مبهورة تكاد تطير وقالت له بكلمات لاهثة متقطعة تثقلها النشوة والسعادة:

ـ عبد السلام ... أتعلم ماذا؟ لقد رأيت شيئا عجيباً

وكان يشرب كوب شاى فألقاه على المائدة أمامه وقال:

ـ قولى لى أولاً، ما الذى جعلك تُسقيننا اليوم شاياً مغليًّا؟ هل نسيته على النار؟ أم ماذا؟

ـ إن تركى الشاى يغلى خلافا للعادة مرتبط بما جئت لأحدّثك عنه. ولاح شيء كالقلق على وجه عبد السلام وهتف يقول باهتمام:

ـ ولكن مالك ياشوق؟ إنك ترتعشين ... أنت منفعلة انفعالا شديداً.

ـ هذا صحيح، لأننى رأيت شيئا مذهلا، شيئا لا يمكن أن يراه بشر .

ـ لايمكن أن يراه بشر؟ وكيف يكون هذا؟ قولى، ماذا رأيت؟

ـ العصر الجاهلى يا عبد السلام .. لقد ذهبت إلى العصر الجاهلىّ.

ولاحت الحيرة على وجه الزوج وعاد إليه القلق وهتف :

ـ مابك ياعزيزتى؟ اجلسى أولا. اجلسى ودعينا نرى كيف ذهبت الى العصر الجاهلىّ. ولكن إهدأى أولاً... لا أريد هذا الانفعال ولا هذه الحماسة. هل أنت مريضة؟ هل تشعرين بتعب ؟

وسحب عبد السلام كرسياً على عجل فجلست شوق وقالت بسرعة:

ـ مريضة ؟ لا لا .. لاتخف .. إن حالتى اعتيادية. كل ماهنالك أننى متحمسة لأننى ذهبت إلى العصر الجاهلىّ.

وتطلع إليها دون أن يفهم لكلامها معنى ثم قال:

ـ أتراه حلماً حلمت به وأنت نائمة؟

ـ كلا، كلا، لم أكن نائمة. كل ماهناك أننى غبت عن الوعى بالزمان والمكان ، لم أعد أرى المطبخ الذى كنت فيه، لم أعد أحس أننى بنت القرن العشرين، واستغرقتُ فى رؤيا لاشبيه لها فى حياة إنسان لأننى عشت نصف ساعة فى عصر الجاهلية .

ـ كلامك غريب؟ .. ولاأدرى كيف أفهمه. رأيت الجاهلية فى يقظتك؟

ـ أجل، رأيتها عيانا ولم أكن نائمة. كنت واقفة فى المطبخ وهذا هو الغريب. ثم قال :

ـ لقد دخلت المطبخ منذ دقائق وصببت لنفسى كوب شاى ولم تكونى هناك.

ـ أجل، لأنىِ ذهبت على عجل وسجلتُ ماشاهدت على ورقة بسرعة محمومة خوفاً من أن أنسى ما رأيت وسمعتُ . ثم جئت إليك وعاد يكرر:

ـ ذهبت الى العصر الجاهلى؟ هل هذا كلام معقول؟

ـ أُعرف أن ما أقوله غير معقول ولكن اسمع وسأصف لك ماحدث. وراحت شوق تتكلم وكأنها تحلم وكانت ومضات من الانفعال والحماسة تلون حديثها ولكنّ هيئة الحلم ظلّت ترين عليها . وبدأت تتكلم :

ـ رأيت نفسى فجأة واقفة فى وسط بادية . كانت الرمال تمتدّ حولى صحراوية مجدبة، والتراب والأحجار فى كل مكان يقع عليه البصر فحيثما وجّهت نظرى رأيت البادية الغامضة ورمالها ... وفجأة سمعت صوتاً تحمله الريح من بعيد، فالتفتُ فرأيت فارسا ممتطياً صهوة جواد وسمعت صوتا يكلمنى هامساً،

وقاطعها عبد السلام :

ـ ولكنكَ تقولين إنه لم يكن حولك إلا البادية فمن هذا الذى كلّمك؟

ـ هذا هو المحيرّ .. لاأدرى من أين كان يأتى هذا الصوت فلا أحد إلى جوارى .

ـ وماذا قال لك ذلك الصوت؟

ـ قال لى همساً: " انظرى ياشوق وتطلّعى. سترين الآن شاعرك المحبوب امرأ القيس ممتطيا صهوة جواده، راقبيه فإنه يقترب" وسرعان ما أقبل الفارس ولكنّه مرّ بى دون أن يبدو عليه أنه رآنى وكأننى لم أكن واقفة على طريقه، وذلك يدلّ على أننى لم أذهب إلى الجاهلية بجسدى وإنما بذهنى وروحى فقط ....

ـ حسن ... أني متشوّق لأن تكملى حديثك ... دعينا نره صفى المشهد الذى رأيته لعلنا نفهم سرّ التجربة التى وقعت لك.

ـ كان الجواد مسرجاً وهو يجرى مسرعاً ولوقع أقدامه على الطريق صوت . واقترب منى وتبينت وجه امرىء القيس ، وجهه الذى ليس فى هذا العصر إنسان قد سعد برؤيته غيرى

ورفع عبد السلام كوب الشاى إلى فمه وقد بدأ يبرد وقال:

ـ هذا طبيعىّ، لم يره أحد، نحن كلنا نعتاض عن رؤيته بالتخيلّ ونحاول تصور وجهه من قراءة شعره.

ـ أما أنا عبد السلام فقد رأيتنى أقف وجهاً لوجه أمام امرىء القيس لقد رأيته بعينىّ ...

وقاطعها زوجها :

ـ ولكن فى أى سنّ رأيته؟ هل كان غلاماً؟ كهلاً شيخاً؟

متى كان ذلك؟

ـ كان شاباً يافعاً مرحاً فياض الصبا بالحياة، وقد قدّرت عمره بما يقرب من عشرين . وكان يجرى على فرسه ضاحكاً سعيداً والريح تعبث بشعره الطويل وقد انسدل حول رأسه مقاربا كتفيه فى صورة لانعرفها فى هذا العصر[1] ولم يكن هذا الشعر أسود تماماً بل لونه يتوسط بين الكستنائى والأسود، ولاكان شعراً مجعّدا وإنما هو منسدل سلس.

ـ ألم يكن على رأسه غطاء أو طاقية أو شيء مماثل؟

ـ بلى، كان يلف حول شعره شريطاً عرضه ثلاثة أصابع ولونه أبيض وكان يبدأ من أسفل رأسه تحت الشعر ويصعد حتى يتربع فوق جبينه وقاطعها عبد السلام:

ـ ولكنّ هذا ما تلبسه الفتيات فى عصرنا

ـ يظهر أنه كان لباس الشبان فى الجاهلية وقد قال لى الصوت الهامس شارحاً: «تطلعى إلى امرئ القيس. إن ربطة الرأس هذه آخر ما ابتدع الشباب العربى فى الجاهلية. وامرؤ القيس الذى ترينه نموذج الأناقة الأعلى إنّه يمثل الشباب اللاهى الذى لايشغل باله بشيء غير المرح والفتيات.»

وسكتت شوق لحظات وسأل زوجها:

ـ كان هذا وأنت صاحية ياشوق؟ كيف يكون هذا؟ إنى لا أستطيع أن استمرّ فى الاستماع إن لم أجد تعليلاً يوضح كيفية حصول هذه الرؤيا.

---

(١) كتبت هذه القصة سنة ١٩٦٦ عندما كان الرجال يقصرون شعرهم ولم تكن تقليعة إطالته قد جرفتهم كما هو حادث اليوم (المؤلفة) . ١٩٩٧

ـ إنى أنا نفسى لا أدرى . كل ما أعرف أننى انغمست أمس واليوم فى استحضار الأرواح وفجأة لم تعد الروح تكتب وإنما صرت أسمع صوتها يكلمني.

عند هذا لاح اهتمام شديد على وجه عبد السلام وراح يؤنب زوجته

ـ شوق . ألم تعدينى أن تتركى استحضار الأرواح؟ ألم نسمع من محمود أنه مرض عندما انغمس فى هذا الاستحضار؟

ولاح الشعور بالذنب على وجه شوق:ـ

ـ لقد وعدتك وأخلفت وأنا آسفة.

ـ ولكن هذا لايجوز . مانفع أسفك حين تعرضين نفسك لخطر محقق؟

ـ دعنى أكمل حديث امرىء القيس ولك منى وعد قاطع بأن أترك الاستحضار نهائيا.

ـ لم أعد أثق بوعودك. يجب أن تقسمى هذه المرة . إنى أعلم أنك لايمكن أن تحنثى بقسم انتظرينى . إنى سأحضرالقرآن لتقسمى عليه.

ونهض عبد السلام وغاب لحظات فى الغرفة المجاورة وجاء بمصحف كبير غلافة من القطيفة الحمراء وضعه على المائدة وقال:

ـ ضعى يدك على كتاب الله واقسمى

ـ حسن أيها العزيز. هذه يدى . أقسم بالله العلى القدير أننى لن أستحضر الارواح طوال حياتى إلا إذا وافقت أنت وسمحت لى

ـ ولم هذا الاستدراك؟ ماذا تنوين أن تفعلى؟

ـ أقنعك ذات يوم .

وضحك عبد السلام وقال وهو يتناول كوب الشاى ثانية ويشرب:

ـ ممتاز . أنا لن أوافق ماعشت. لقد انتهينا من هذا الموضوع والحمدلله. والآن أكملي حكاية عزيزنا امرىء القيس . إذن كان الصوت الذى يكلمك صوت إحدى الأرواح؟ـ أجل . لقد أصبحتُ قادرة على سماع أصواتهم عندما يحضرون وهذه مرحلة متقدمه بالنسبة للوسيط.

ـ روح من كانت هذه التي أرتْك امرأ القيس؟

ـ صديقى محيى الدين بن عربى . وهو على عادته ينهانى نهياً شديداً عن استحضار الأرواح . مايكاد يحضر حتى يبدأ قائلا «نهيتكُ»

ـ أترين ؟ هذا لأنّه رجل صالح ويحرص على مصلحتك. قولى الآن . ماذا فعل امرؤ القيس؟

ـ أجل ، نعود الى امرىء القيس . لقد كان يلكز الفرس فتنطلق راكضة ويصعد معها الشاعر ويهبط ضاحكاً بصوت مسموع، محرّكاً رأسه يميناً وشمالاً مع الضحكات، والهواء يطير بشعره المنسدل على كتفية . ووقفت مسحورة مبهورة أتأمل المنظر وأكاد أفقد صوابى لفرط سعادتى.

ألقى عبد السلام بكوب الشاى واتكأ بمرفقه إلى المائدة ووضع كفّة تحت ذقنه وقال:

ـ ولكنّك لم تصفى لى وجه امرىء القيس ، كيف هو؟ هل حدقت فيه مليًا واستبقيت صورته فى ذاكرتك؟

ـ لقد حدقتُ فيه حتى كدت آكله لطول تحديقى

ـ ولكن كيف؟ أما تقولين إنك كنت واقفه وأنه كان مسرعاً على فرسه؟ كيف إذن طال تحديقك فى وجه؟

ـ هذا هو الغريب. لقد كان يبدو كأننى أتحرك معه لأنه بقى أمامى طوال

الوقت ... على كل حـال . أترك هـذه النقطة ودعنى أصف لك ذلك الوجـه الجذلان . لقد كنت أطيل التحديق فيه لأننى كنت أدرى أنّه لن يتاح لى ثانية أن أرى أمرأ القيس فهذه فرصتى الوحيدة . ولكن ... ياعبد السلام ! كيف تظنُّهُ كان؟ رجلاً وسيما؟

أم غير وسيم؟

ـ رأيته أنت وسيما؟ أم غير وسيماً؟ أم غير وسيم؟

ـ غير وسيم . وقد أثار هذا عجبى لأننى كنت أتصور أنّ من كان مثله معشوقاً لدى هذه وتلك من النساء لابدّ أن يكون ذروة فى الجمال والوسامة.

عند هذا ابتسم عبد السلام وقال لها:

ـ لقد اختبرتُك بسؤالى. أنا أعلم أنه غير وسيم ، وكان المؤرخون يقولون عنه أنه «فارك» أى غير محبوب لدى النساء.

وقد تركته زوجته المشهورة أم جندب وتزوّجت منافسه الشاعر علقمة بن عبدة الملقب بعلقمة الفحل.

ولاحت الحماسة على وجه شوق وقالت بفرح:

ـ لم أكن أعلم هذا ، ولكنّ رؤيتى لامرىء القيس جاءت مؤيّدة له. دعنى أصف لك وجهه . إنه أسمر اللون وعيناه متوسطتا الاتساع سوداوان فوقهما حاجبان كثّان لهما لون شعره، وله أنف رقيق لا يشين وجهه. أما نقطة عدم الجمال فى ذلك الوجه فهو الفم لأن شفتيه قصيرتان نسبيًا بحيث يضطرّ إلى جمعهما بقوّة إذا أراد أن يخفى أسنانه ومن ثم فإن ضحكته لاتمنح وجهه حيويّة الضاحك تماما وإنما يبدو معها أن خديه مشدودان قليلاً.

كان عبد السلام يصغي باهتمام شديد يقرب من اللهفة وحين بلغت شوق هذا الموضوع من حديثها اتكأ إلى ظهر الكرسي ووضع ساقاً على ساق وقال:

– الوجوه تكون أحياناً قبيحة ومع ذلك يُحَبُّ أصحابها لأن أرواحهم شفافة حلوة. فكيف كان امرؤ القيس على العموم ؟ هل هو إنسان قريب من القلب؟ أم شخص بغيض؟

ولاحت نظرة فرح على وجه شوق وقالت بسرعة:

– إن حيوية روحه وإحساسه العظيم بالثقة بالنفس كان يسبغ على وجهه عذوبة وحرارة تقربة إلى النفس . إن هذا الوجه يشفّ عن إيمان بالذات لاحدود له، وقد أدركت فوراً أن امرأ القيس رغم خلوّ وجهه من الوسامة يحسّ أنه أثير فى القلوب ولذلك ينطلق ضاحكاً سعيداً ينهب الأرض وكأنّ الدنيا كلّها ملكا له.

– لاتنسى أنه كان ابن ملك ، وقد يكون هذا سبب ثقته بنفسه . ولعله فقد هذه الثقة بالنفس بعد قتل أبيه وأصبح (فاركاً) كما وصفه المؤرخون.

– لاأدرى، كل ما أعرف أنه كان يضحك سعيداً، يضحك من أعماق كيانه وتضحك عيناه ووجهه كله فلا يخرج المحدّق فيه إلا قائلا : «ياله من إنسان سعيد أثير إلى النفس» ومرّ بى امرؤ القيس ولم يرنى، فكأننى لم أكن موجودة على طريقه.

وأدركت من هذا أننى أقف بلا جسد فى هذه البادية، وأننى قد انتقلت بروحى وحدها فأنا أَرى ولا أُرى . وامرؤ القيس يعيش حياته التى لم أعش فيها . أما خلا العصر الجاهلى منى كل الخلو؟

فجأة قال عبد السلام:

ـ عزيزتي شوق ... هل أنت واثقة من أنّ هذا لم يكن حلماً رأيته وأنت نائمة؟ ذلك أنك ، في استحضارك للأرواح، لم تكوني يوماً قادرة على الرؤية.

وقالت شوق بسرعة وهي متحمسة لاهثة.

ـ إني واثقة كل الثقة في أنني لم أكن نائمة . كنت في المطبخ أعدّ الشاي وفجأة كلمني صوت لا أعرفه وسرعان ماقال لي إنه محيي الدين بن عربي وإنني أصبحت بالتدريب وسيطة قادرة على الاستماع إلى أصوات الأرواح ثم نهاني نهيا قوياً عن الاستمرار في الاستحضار وقال لي إن الخطوة التالية ستكون رؤيتي للأرواح، وهذا مخيف جداً كما قال لي لأن الارواح الشريرة شديدة القبح أسنانها بارزة وعيونها شوهاء تثير الرعب وقد يمرضني هذا .

ـ أرأيت ؟ أرأيت؟

وقالت له وهي تهدّئه:

ـ الحمد لله على أنني أقسمت على القرآن ألا أشتغل ثانية بهذا الضرب من النشاط . ومن المستحيل أن أحنث بقسم . وأنت تعلم هذا.

ـ حسن . ماذا جرى بعد ذلك؟

ـ لقد وعدت الشيخ محيي الدين بن عربي يرحمه الله أن أترك الاستحضار فقال لي أنه قبل أن يودعني نهائيا سيحقق لي أجمل حلم أتمناه وهو رؤية التاريخ، وكان بعد ذلك ما أقصهّ عليك الآن .

الحمد لله على أنك نجوت ياشوق ، الحمد الله . قولي لي الآن ، ألم تحاولي أن تكلمي امرأ القيس مطلقاً؟

ـ حاولتُ طبعاً . رفعت صوتي وقلت له بالفصحى : إلى أين تمضى أيها الفارس السعيد؟ إنّك تحثُ الجواد فينطلق بك وكأن وراء ك غاية تسعى إليها. وأنت تطوى رمال البادية وأحجارها ركضا نحو هدف تُحَبه ولاريب: وإلاّ ماسعدت هذه السعادة، وضحكت هذا الضحك.

ـ وصلنا إلى نقطة ممتعة. قولى بماذا أجابك؟

ـ لم يجبنى ولم يلتفت إلىَّ ولم يرنى. وإنما كلمنى ابن عربى هامسا وقال: «عبثا تحاولين. أنت بلا صوت فى هذه البادية وأمرؤ القيس لا يسمعك.»

ـ وهل انتهت الرؤيا هنا ؟ أم تراك رأيت المكان الذى ذهب إليه شاعرك؟

ـ بل رأيت كل شيء . لقد ذهبت معه لا أدرى كيف.

ـ كما يحدث لنا فى الاحلام تماماً. اكملى حكايتك إذن .

ـ أجل ، أصغ. فجأة لاح من بعيد شجر كثيف ممتدّ . ومضى امرؤ القيس يجرى بفرسه ، وأنا أراه فى كل خطوه دون أن أحس أننى أتحرك من مكانى.. وبقيت قريبة منه وكأننى أنطلق معه على وجه ما . حتى وصلنا الى منطقة الشجر. واستقبلت امرأ القيس بساتين وظلال بديعة الجمال كلهاً خضر ومياه وحياة . وقال لى صديقى ابن عربى يرحمه الله، وصوته يأتى من الفضاء: "انظرى الآن إنك ترين موضعاً باليمن القديمة"

واستوقفها عبد السلام هنا ملقيا سؤالا:

ـ ولكن ياشوق. هل فى التاريخ أن امرأ القيس عاش فى اليمن؟

ـ لاأدرى ولكن هذا ما رأيت وهذا ما قاله لى الشيخ محيى الدين .

وقد اعترضُت أنا نفسى عليه وسألته كيف تكون فى الجاهلية مثل هذه

الخضرة الريانة النضيرة؟ فقال لي بالنص : «إنك ترين الواقع الآن فانظرى إليه وصححي أخطاءك عن حياة الجاهلية . إن الحياة القديمة قد انبعثت أمام بصرك فتأمليها وأشبعي شغفك بالتاريخ»

وعاد عبد السلام يضع مرفقه على المائدة ويسند وجهه على كفة ويقول:

ـ نريد الآن أن نرى امرأ القيس ينزل عن الفرس ويسلك . هل حدث هذا؟

أجل، أجل انتظر واستمع . لقد اقترب امرؤ القيس فجأة من خميلة يتوسطها بيت من الحجر الأحمر لم أتبيّن معالمه تماماً، لأننى رأيت ما هو أجمل منه وأحبّ . رأيت فتاة سمراء سحريّة الوجه لها عينان سوداوان عميقتان واسعتان، وفمها صغير وقد انطبقت شفتاها الحمراوان وكانت الفتاة واقفة إلى جوار بقرة تحاول أن تحلبها فى إناء موضوع على الأرض.

ـ ألم تعرفى اسم هذه الفتاة؟ وما علاقتها بامرئ القيس؟ وهل ترجّل ونزل عن فرسه؟

ـ أعطيك اسمها أوّلاً. لقد قال لى ابن عربى بصوته الأليف:

«تطلّعى إليها . إنها عنيزة حبيبة امرئ القيس» ورحت أنظر إليها فى شغف . وقد رأيت الجمال متجسداً أمامى فى هذه الفتاة اليافعة الفارعة القوام . إن سمرة وجهها سحرية يترقرق وراء ها دم كله حرارة وحيويّة . وكانت تروح وتغدو حول البقرة مشغولة بها، تارة تجلس وتحلبها ، وحينا تقف وتربت على عنقها بحنان وتمسح رأسها. وفجأة سمعت وقع خطى فرس امرىء القيس فالتفتت إلى الوراء ورأيته . أما هو فقد راح يتلفت حوله وكأنّه يخشى رقيباً ولعلّ هدوء عنيزة طمأنه، فترجل واقترب منها ضاحكا ضحكته السعيدة

ولاح السرور على وجه عبد السلام وهتف وهو غير قادر على إخفاء حماسته:

ـ الآن أصبح الموقف أمتع وأجمل . أريد أن أعرف ماذا حدث بين امرئ القيس وعنيزة وماذا قال لها؟

وسكتت شوق لحظات وأنشد عبد السلام :

ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة   فقالت لك الويلات إنك مُرْجلى

تقول وقد مال الغبيط بنا معا   عقرت بعيرى يا امرأ القيس فانزلِ

وعادت شوق تقول:

ـ لا لا ، لم يكن هناك خدر ولاغبيط ولابعير هذه المرّة . كانت عنيزة فى البستان خارج بيتها .

... هربت منه واستمر يطاردها حتى أتعبها الجرى وراحت تلهث تعبا وتنفض ما علق بثوبها من ورق الشجر وترابه وتردّد عبارة واحدة تكررها . وكان صوتها ولهجتها رائعى الجمال حتى افتتنت بها افتتانا شديدا ولم أعد أعجب من حبّ امرئ القيس لها وولهه بها وسعيه إليها .

وقاطعها زوجها وقد نفد صبره:

ـ قولى . ماذا كانت عنيزة تقول؟ قولى بالله.

ـ كانت تقول وهى تجرى : فضحتنا ... لا أمٌ لك ... » ولم تزل لهجتها فى نطق هذه العبارة ترنّ فى سمعى وتسحرنى . إنها لهجة لا مثيل لها فى عصرنا ولا تشبه صوتا سمعته على الاطلاق . وكلمات عنيزة تشبه ألفاظ الجاهلية التى قرأتها فى الكتب وهى تزيدنى ثقة من أننى سمعت صوت عنيزة حقا كما رأيتها ورأيت امرأ القيس!

ولاح على عبد السلام أنه غرق فى التفكير ولم يسمع العبارات الأخيرة التى قالتها شوق ثم ردّد فجأة:

ـ (فضحتنا ... لا أم لك...) إنها تبدو لى شتمة ، فكيف تقولها عنيزة لحبيبها ابن الملك؟

ـ لقد كانت تقولها بصوت موسيقى رقيق النبرة تجمع فيه كل ما يمكن من الغنج والسعادة والدلال. وهذا يجعلنى واثقة فى أن عبارة «لا أم لك» إنما هى كلمات تحبّب وليست شتمة.

ـ ماذا تظنين معناها يكون ؟

ـ أنا أفهم منها أن عنيزة تقول لامرئ القيس أنه انسان فريد رائع فذ بحيث لايمكن أن تكون له أم من البشر .. فلا أم له .. ولا بدّ أن تكون هذه العبارة دارجة فى العصر الجاهلى يمتدح من يوصف بها

ـ تفسيرك معقول . أى والله ، معقول تماما .. كقولهم : لا أبالك..

وهنا قالت شوق فى كآبه

ـ عند هذا اختفى المشهد أمام عينيّ كما يتلاشى مشهد سينمائى أسدل عليه ستار . وقال لى العزيز ابن عربى : «هل شبعت من النظر؟» وهتفت به فى وله: «ألن أرى المزيد بالله عليك أيها الشيخ الصالح ؟ ماذا فعل امرؤ القيس وعنيزة بعد ذلك ؟ هل أدركها ؟» وقد أجابنى قائلا: « وماذا يستطيع أن يفعل إذا أدركها؟ انظرى ، ها هو يعود أمام عينيك.» ونظرت فرأيت أمرأ القيس يسرع إلى امتطاء جواده وينطلق وقد غيضت ابتسامته ونضبت سعادته. إلى أين؟ وقال لى الشيخ محيى الدين الرقباء ! إنّ أهل عنيزة قريبون وقد سمعتها تحذّره الفضيحة، وهاهو ينطلق وينجو بنفسه .

وانظرى إلى عنيزة الجميلة.»

وهتف عبد السلام:

ـ رؤياك تلفت النظر ياشوق ، وليس لى أن أفسّرها. ولكن أكملى ماذا فعلت عنيزة عندما نبهك إليها ابن عربى؟

ـ لقد رأيتها تقف وتسند ظهرها إلى شجرة وتتطلع والهة إلى الفارس المسرع. وبقيت تتابعه ببصرها الحزين حتى غاب وراء الشجر الكثيف. ورأيتها تسند رأسها إلى جذع الشجرة وتغمض عينيها وكأنها تسترد حلماً عزيزاً تخشى عليه الضياع. وانتهى الحلم وغاب التاريخ ولم أعد ثانية إلى الحالة النفسية الغريبة غير الواعية التى مررتُ بها وانطوى المشهد ورأيت نفسى فجأة فى المطبخ أمام الشاى الذى نسيته على النار حتى غلى غليانا شديداً وفسد طعمه كما شكوت.

ـ ولكن يا شوق ، كيف تفسرين هذا كله ؟ كيف يمكن أن يكلمك محيى الدين بن عربى بصوته وهو قد مات منذ قرون كثيرة ؟ إنك لم تكونى نائمة كما تقولين فما معنى ذهابك إلى العصر الجاهلى هذا ؟ أكان حلماً؟ أكان غيبوبة؟ أكان تجسداً وهميا لتمنياتك التى لا تنتهى حول رؤية التاريخ؟

وكان جوابها مزيداً من الحيرة:

ـ الله وحده الذى يعلم ، ولا تفسير لأغوار النفس البشرية وأبعادها كل ما أتمنى أن تتاح لى غيبوبة أخرى ـ كما تسميها ـ أرى فيها مزيدا من أشخاص التاريخ وأحداثه.

ـ ولكن ياشوق ... فى هذه المرّة غيبى فى وقت أنسب ولا تعطينا شاياً مغلياً

وتنهدت شوق وقالت له:

ـ اتراك نسـيت ؟ إنك جـعلتنى أقـسم على القـرآن ألاّ أعـود ثانيـة إلى استـحضار الأرواح، وقد ودعنى الشيخ مـحيى الدين بن عربى بـعد صـحبة طويلة، إلى غير رجوع. ولن تشرب شاياً مغليا بعد اليوم . وأنا كئيبة .

وضربها زوجها على يدها وقال لها :

ـ أما تقولين إن الموت حياة ثانية وأن بصر الميت أقوى من الحديد؟

سترين التاريخ إذن بعد عمر طويل . قومى، وهاتى لنفسك كوب شاى ، فلقد أعددت "شايا جديدا" وأمرى الى الله .

الشمس التى وراء القمة

ملثمون، كلهم ملثمون. منظر غير مريح، لا بل إنه يكثف الموقف ويضيف إليه أبعاداً وثنايا من الظلال المخيفة. أطولهم هو الطبيب ابن خالتها الدكتور سلام، هو ملثم أيضاً لا تبدو إلا عيناه، تلوح فيهما الصرامة التى ألفتها منه وهو يعالجها. وهى ممدة على منضدة العمليات، مفروشة بطولها، وبصرها إلى السقف. ويقول الدكتور سلام:

– سنعطيك مخدراً موضعياً، ونجرى العملية وأنت صاحية. سبق أن أخبرتك بهذا. هل أنت خائفة؟

وبشفتيها قالت: «لا. لست خائفة» وبقلبها قالت لنفسها: «يا هدى! أنت خائفة. ولكن عليك أن تحتملى كل شئ من أجل المولود الذى انتظرته تسعة أشهر.» ثم «من أجلك يا طفلى الحبيب أو يا طفلتى سأصبر على الألم. ستتحمل أمك أيها القادم المسكين. سأكون لك أماً وأباً يا حبيبى»

– انقلبى على جنبك الأيسر. هل تحسين بألم؟

هذا صوت ابن الخالة، وفيه هذه المرّة إلى جانب صرامة الطبيب لمسة حنان. كانت بالفعل تحس آلام الولادة منذ الصباح.

– لا بأس عليك، سيزول الألم حالاً.

وقالت لنفسها: كل الآلام ستزول، ثم يأتى إلى الوجود هذا المولود الحبيب

غير المرغوب فيه. آخ! لقد غرز الطبيب أبرة طويلة فى عمودها الفقرى.

– لا تتحركى. اثبتى فى مكانك

بدأ ألم شديد في موضع الإبرة فى وسط ظهرها. وكان لابدّ من إبقاء الإبرة مغروزة مدة خمس دقائق والألم يشتد «إلهى. أسألك أن تهبنى أفكاراً حلوة تشغلنى عن كل ألم.» وقد ألفت عبر حياتها أن يستجيب الله للدعاء أجمل استجابة خاصة فى أوقات الشدّة. وكرّت ذاكرتها إلى الوراء سنة ونصفاً.

... ...

أيام الخطوبة. إنهما يضحكان، هى وهو، هدى ونبيل. ضحك كثير وقهقهات، ورشاش الماء يصيب ساقيهما المتدليتين فى ماء النهر. كان جالساً إلى جوارها وقد خلعا حذاء يهما ومدا رجليهما فى الماء البارد المنعش. كانا وحدهما فى هذه البقعة المعزولة مع أنهما خرجا، وهما خطيبان، مع أهلها فى نزهة إلى (الصدور). الأهل قد تجمعوا كلهم يعدون الغداء، فى حين ابتعد نيبل وهدى وجلسا على النهر. ودفع نبيل قدمه بقوة وضرب الماء فتطاير الرشاش عليها حتى ابتل ثوبها وصاحت: «احذر. إنك تبلل ملابسى» ودفع قدمه وضرب قدمها برفق:

– ألا تحبّين أن نرجع أطفالاً؟

– أحب ذلك أحياناً. فتجدنى أضحك من أعماق قلبى وكأن ليس فى الوجود هموم ومآسٍ.

– هل تعلمين يا هدى؟ لقد سمعت من تلاميذك فى الكلية أنك لا تُرَين إلا ضاحكة. وهم مندهشون، لأن الآخرين لا يضحكون طوال الوقت مثلك.

– حقاً. لقد سألونى مرة عن هذا. ففى ذات يوم أنهيت المحاضرة وبقيت

عشر دقائق منحتها لأسئلة الطلاب حول الموضوع. فاذا طالب طويل يقول لى: «الصف كله يريد أن يوجه إليك سؤالاً خارجاً عن موضوع المحاضرة.» وقد رفضت ذلك أولاً حرصاً على الوقت فمن عادتى أننى جدية فى الصف. ولكن الطلبة أجمعوا أنه لابد من السؤال الخاص فأذنت لهم وإذ ذاك قالوا لى:«إنك ضاحكة دائماً.

عرفناك ثلاث سنين فلم نرك دون ابتسامة متألقة على وجهك.

وأنت تمازحيننا حتى عندما نخطئ فى الاجابة. لا بل إنك تمضين فى المزاح إلى درجة أنك ترمين الطالب الذى يخطئ خطأ فادحاً بقطعة طباشير. فما سر هذا المرح؟ هل أنت بلا هموم على الإطلاق؟ أليست لك مشكلات؟».

وسكتت هدى فاندفع نبيل قائلاً:

– ثم ماذا؟ يلوح عليك أنك لا تريدين أن تخبرينى بجواب هذا السؤال. ولكم يغيظنى أنك أحياناً تلقين سؤالاً مثيراً فى مقالاتك ثم لا تردّين عليه بدافع احترام الشكل الفنى.

وضحكت هدى:

– حقا. أصنع من أجل الشكل الفنى كل شىء أحياناً.

– والآن ردّى على سؤال تلاميذك. أنى أجدنى مثلهم مشوقاً إلى أن أعرف جواب السؤال. لماذا تضحكين دائماً؟

– حسن. سأقوله لك كما قلته للطلبة تماماً. لقد كانت لى همومى وأحزانى فى كل فترة من فترات حياتى، فأنا من لحم ودم كسائر الناس. وهل هناك إنسان لا أحزان له؟ مثل هذا الانسان لابدّ أن يكون أقل إحساساً من جلد كتاب. ولكنى كنت أبقى ضاحكة لأننى سعيدة بالحياة نفسها: بالقمر والنجوم وروعة اللانهاية.. بالدماء الحارة التى تجرى فى

عروقى.. بجمال وجود الله وشعورى بقربه الرائع منا..

بالحب والشوق وحنين الأبدية فى كيانى.. بسحر الشعر وجمال الموسيقى.. بالموت وخوفى منه وحبّى له،.. بأبوىّ وأخوتى وأصدقائنا الذين أحبّهم ويحبّوننى، بآلاف الأشياء الصغيرة،.. تلك فرحة الحياة تتحول إلى بسمات على شفتىّ وائتلاقات فى عينىّ، ولذلك أضحك فى الصف ولا ابتئس أبداً.

وانفجر نبيل فجأة:

– أنت جميلة يا هدى!.. وانحنى بسرعة وقبّلها على خدها قبلة خاطفة وقال:

– أراك تتخذين من الضحك فلسفة يا غالية.

– نعم أيها العزيز. وأنا أعتقد أن الضحك أعظم منحة قدّمها الله، إله الخير والجمال إلى الوجود. إن كل انسان يستطيع البكاء والتوجع. ولكن ليس إلا الإنسان الكامل يستطيع أن يضحك.

– وتأييداً لكلامك يا هدى، أليس نيتشه هو القائل [الألم عميق ولكن الفرح أعمق وأعمق]؟

– نعم صدق نيتشه فى هذا. وذلك لأن القدرة على الفرح قدرة مبدعة واسعة، تستكنه الوجود كله،.. أما القدرة على الحزن فهى دائماً ضيقة الحدود وفرديّة. إننا لا نضحك إلا وفق فهم عميق للأشياء يجعلنا مندغمين كليّاً فى العالم. كذلك أشعر أننا حين نتألم فنحن نحن وحسب. أما حين نضحك فنحن نحن والوجود كله. إن الإنسانية فينا هى التى تضحك. هذه فلسفتى وأنا لذلك إنسانة ضاحكة.

عند هذا لاح الجد على وجهه وقال:

– ولكن يا عزيزة. كل هذه البهجة كنت تغدقينها بكرم على الطلاّب أما أنا فلم تكن ابتساماتك الحلوة من نصيبي أبداً. ستة أشهر كاملة وأنت تسلّمين عليَّ في رصانة وجدّ، وتجلسين جلسة صارمة فلا توحين إليَّ إلا بالتهيب وإذ ذاك أحرص على أن اكتمك عواطفي وأسكت. ما سرّ ذلك يا ترى؟

وقالت له في حنان دافق:

–كنت أعاملك كما أعامل الرجال جميعاً، فلا شيء إلا الجد معهم. هكذا كنت طوال حياتي. ومع ذلك فأنا أذكر أنني ابتسمت لك ذات مرة إبتسامة منطلقة لا تقيّد فيها. وهذا شيء لا أنساه لأنّه مرتبط بيوم معين في حياتي.

وكان قد ازداد جداً وهو يصغي إليها. ولكنه عندما سمع عبارتها الأخيرة ابتسم وقال وكأنه يدلي باعتراف مفاجئ:

– نعم ابتسمت لي مرة واحدة فقط. وقد لاح لي أن تلك الابتسامة كانت خاصة بي، كاملة، عميقة. وكانت لي أنا وحدي وقد شملت أبعادي كلها واستشرفت حياتي. ولذلك خطبتك بعدها فوراً في مساء اليوم نفسه. هل تذكرين ذلك؟

– أذكره ولا أنساه أيها العزيز. ولكن ابتسامتي تلك كانت – يعلم الله – بريئة كل البراءة، مثل بسماتي للطلاب وللشمس ولقوس قزح وتلال الرمال. ولم يكن فيها استشراف لأبعادك.

ثم ضحكت ضحكة قصيرة وقالت له جادّة:

– وبعد فالظاهر أنك لا تدري أن أبعادك شاسعة وأنني سأقضي سنوات طويلة معك قبل أن أستشرفها.

قالت ذلك وعركت أذنه عركة خفيفة فأخذ كفها في يده وقبل إبهامها. ثم

داعب قدمها فى الماء بقدمه وضرب الماء ورش ملابسها وفى هذه اللحظة ارتفع صوت أختها ليلى:

– هدى،.. يا هدى، دكتور نبيل. الغداء جاهز.

... ...

شعرت أن الدكتور سلام سحب أبرة الحقنة من عمودها الفقرى وكان لذلك وجع مؤلم. وقال لها:

– انقلبى على ظهرك واسترخى، انقلبى الآن، فإن لم تفعلى ذلك فلن تستطيعيه بعد قليل. إن المخدر قد بدأ يسرى فى جسمك.. بماذا تشعرين؟

– ألم فى عمودى الفقرى حيث دخلت الحقنة.

– وماذا أيضاً؟

– أحسّ برودة وخدراً فى قدمىّ

وقال الدكتور سلام وهو يعدل لثامه الأبيض.

– البرودة ستزداد وتصعد إلى أعلى. توقعى هذا . هل أنت خائفة؟

– قليلاً.

... ...

أمسية الزواج بعد عدّة أشهر من الخطوبة. هى جالسة إلى جواره وهو يقود السيّارة. وكان قد سألها أن تترك سيارتها فى الكراج فى بيت أبيها، لكى يأتى هو، ويأخذها بسيارته إلى بيتهما الجديد الذى فرشاه معا. جدّتها تقبلها وهى تغادر البيت وتتمنى لها السعادة، وأبوها وأخوتها واقفون جميعاً. أما هى فكانت ترى الفراغ مكان أمها المتوفاة لماذا تكون جدّتها هى التى تسلمها إلى زوجها هذه الليلة المهمة من حياتها؟

برودة، برودة شديدة تصل إلى قلبها. كل جسدها أصبح ثلجياً.. حتى

ذهنها قد تثلّج، وأصبحت الأفكار تختلط فيه بالصور، بالخواطر، بالكوابيس، بالأحلام

– أين أنت يا أمي الحـبـيـبـة؟ وممن يتـسلمنى زوجى هذه الليلة؟.. ليلة زفافى؟

آه سأتقيأ. ارفعوا رأسى لأتقيأ.

رأسها يدور دوراناً شديداً.

– هدى، بنتى، أنا جدّتك، ولا فرق بينى وبين أمّك فلا تبكى.

سائل ساخن مرّ يطفح على فمها ثم يسيل على خدّها وعنقها

– أنا أمّك يا هدى فامسحى هذه العبرات ولتتألق الابتسامة على وجهك.

الدولاب الهـائل يدور، وتكاد السـيـارة تصطدم. آه، آه، احـذروا، الدولاب يقترب منى. اصطدام عنيف.

– دكتور سلام، أنها تبتلع القئ.

– ارفعوا رأسها قليلاً.

وقالت أختها ليلى:

– أما كان الأفضل أن تكون هدى بملابس الزواج المألوفة مع طرحة على رأسها؟ إنها شاذة فى كل شىء. ها هى ذى تغادر مع نبيل بهذا الفستان العادىّ البسيط وكأنها ذاهبة إلى الكلية.

لماذا لم يلاحظوا أننى لبست فـسـتـانـاً أبيض رمـزاً للبـراءة والنقـاء من مشاعرى نحو نبيل. أنا وهو لم نكن حسيّين. الدولاب يدور، صدمة أخرى بالسيارة. تحطم الزجاج الأمامىّ وانطفأ الضوء. ظلام، ظلام، إنى أختنق.

هذا صوت أختها الصغرى منى:

– ولم تسمح لنا أن ندعو أىّ أحد احتفالاً بالزفاف، والتقاليد جميلة فى

هذه المناسبة.

لا قيمة لهذا، لا قيمة لهذا.

فجأة عاودها صفاء الذهن، وانقطع التقيؤ.

خرجت مع نبيل بعد أن قالت «بسم الله الرحمن الرحيم أبدأ حياتى الجديدة. اللهم بارك علينا» وجلست إلى جواره فى سيارته الصغيرة. وقال لها ضاحكاً:

- ثلاجتنا خاوية يا ربة البيت. ماذا تقترحين أن نشترى لنضعه فيها؟

- بعض الفاكهة والحليب والزبدة والجبن والخبز لنفطر صباح الغد.

البرودة تشتدّ، إن عروقى تحتوى الآن على ثلج مكسّر، وهذا الثلج يصعد ويمرّ بقلبى. لقد تجمد قلبى وأصبح يقذف الثلوج فى شراييني.

حانوت لبيع الفاكهة فى إحدى ضواحى بغداد الحديثة. وأحسّ كل منهما بغرابة الموقف. عروسان ليلة الزفاف ينزلان من السيارة ويشتريان الفاكهة والبائع لا يدرى. فليس من المألوف فى بغداد أن يقوم العروسان بمثل هذه الأعمال. ولكنها، هدى كانت تشعر بالسعادة.

ما أسخف الناس إذ يقيمون الحفلات المزدحمة الصاخبة ليلة الزفاف؟

ألا ما أجمل الصمت والهدوء يلفها ويلف نبيلاً وهما جالسان متجاورين فى السيارة. إن الأشياء كلها تكتسب معنى وعمقاً. وتستطيع هى أن تشعر بروعة هذه اللحظات وهى على عتبة حياة جديدة مجهولة، مع رجل زميل لها فى الكلية، اختارها واختارته دون أن يؤثر فيهما أحد، وهما الآن يقفان على عتبة الحياة الزوجية، فى نفسيهما براءة وسذاجة وتهيّب وفرح كامن يمتد فى دمائهما ويبرز أحياناً على شفتيهما. وحتى ابتساماتهما فيهما نصف خجل، نصف تهيّب، نصف دهشة أمام مستقبل مجهول لا يعرفان الآن منه إلا أكرة

الباب والظلال فى دهليز طويل أوّله مضاء وآخره تحجبه الظلال المبهمة. إن لسكوتهما معنى، ولكلامهما المتقطّع معنًى. وهذه المعانى الرائعة الجمال وما كانت هدى لتحسّها لو أنها كانت تزفّ بعشرات السيارات وبضجيج الأهل والأصدقاء.

كان يبدو لها دائما أن حفلات الزفاف تعنى بابراز الجانب الجنسىّ المبتذل فى ليلة الزواج فهؤلاء الناس لا يتصورون ليلة الزفاف فاتحة حياة شعرية جديدة بين امرأة إنسان، ورجل إنسان لهما فكر وأحاسيس وذوق، ولا يعقلون الجانب الروحى فى الصلة بين العروسين. وإنما كل ما يفهمون أن اتصالاً جنسياً محموماً سوف يقع. وقد كانت هذه الأفكار المبتذلة هى التى جعلت هدى تنفر من الزواج طوال حياتها وتحتقره وتأباه لنفسها. كانت تشعر دائما أن علاقة الحبّ بين الرجل والمرأة واسعة الأبعاد عميقة الآماد، ضاربة فى أعماق الروح، علاقة نبيلة كلها شعر وموسيقى وحياة. وحتى لو كان فيها جانب جنسىّ - هكذا كانت تقول -فإنّه يأتى عرضا نتيجة للتفاهم والود وليس أصلاً ولا مقصوداً لذاته كما يتصوره هؤلاء العوامّ بالفكر فهم يبرزونه كريهاً شائهاً ليلة الزفاف. وعندما كانت ترى هذا الأسلوب فى النظر إلى الزواج كانت تقرر أن تقضى عمرها آنسة عازبة تتعالى عن ذلك «العار» الذى يهدر إنسانية الإنسان ويبدّد جماله وروحيته.

... ...

بدأ الدوار ينقشع نهائياً. إن ذهنها صاف، والتقيؤ قد انقطع ورأت الطبيب، ابن الخالة، يتناول فى صينية تحملها الممرضة مشرطاً ويمر به على بطنها، وكان إلى جوارها طبيب شاب يافع يشجعها على الاحتمال والصمود خلال العملية فسألته فى سذاجة:

– لماذا يدغدغنى هكذا؟

وابتسم الشاب:

– إنه لا يدغدغك. لقد أحدث جرحاً عميقاً فى بطنك وسأل الدكتور سلام.

– هل تحسّين بألم؟

– كلا لا أحسّ بأى ألم.

ها قد مضى أسبوعا على الزواج، كانا يضحكان هى وهو، كانا دائما يضحكان، كما ضحك آدم وحوّاء منذ آلاف السنين يضحك الحبيبان ويسعدان لكى يخلق الطفل من ضحكاتهما وتستمر الحياة . إنها تسمع صوت نبيل آتياً من بعيد يقول لها .

– هدى! لكم أحبّ ضحكاتنا ومرحنا، ولكنى أحسّ دائماً أن الطبيعة تنصب لنا شركاً، فكل ما يهمّها أن تقودنا إلى ولادة طفل .

– أولاً ، لا تقل «الطبيعة» وإنما هو الله الجميل العظيم الذى خلق الضحك ليأخذنا أبعد وأبعد حتى يولد الطفل، زهرة الطبيعة البيضاء وفراشتها الملونة . ولماذا تسمىّ هذا شركاً؟ أكنت تريد أن نلد الأطفال ونحن عابسون كارهون مرغمون وأحدنا يبغض الآخر ؟

وفكّر لحظات وقال :

– معك الحق ، فلنلد الأطفال ونحن نضحك على الأقل .

ألا يكفى من الازعاج والأذى لنا أننا نلدهم ؟

ولاحت على وجهها الدهشة وقالت :

– نبيل ! نبيل ! ألا تحبّ الأطفال ؟

وجاء جوابه صادماً لها :

– إنّهم عبء ثقيل ، وأنا أحبّ أن نضحك ونمرح دونما أعباء كما كنا أيام

الخطوبة! فلتستمر الحياة هكذا جنة بلا أولاد .

... ...

وأحسّت أن الطبيب يعبث بأمعائها وصاحت :

– سأتقيأ ، ساعدنى أيها الأخ .

قالت ذلك وأمسكت بكف الطبيب الشاب الواقف إلى جوارها ملثّماً. أطبقت أصابعها على يده فى تعلق شديد وكأنها تغرق وهو حبل النجاة . وخجلت ولم تدر كيف تفعل هذا ، رجل غريب عنها تراه أوّل مرة و فكيف تبيح لنفسها أن تمسك بكفّه وتشدّها بهذا الشكل ؟

صور ، وأصوات، وملامح وجوه خافتة تنثال على ذهنها وكأن الله ينقذها مما تعانيه من عذاب وهى مستيقظة خلال عملية الولادة . ورن فى سمعها، من أعماق اللاوعي، صوت بنت خالتها «الهام» شقيقة الدكتور سلام :

– هدى ! أتعلمين لماذا يسمونها «العملية القيصرية»؟

اضطرب ذهنها واختلطت فيه الأفكار لحظات . العملية القيصرية العملية القيصرية .. العملية ... لماذا يسمونها بهذا الاسم ولماذا ينسبونها الى قيصر ؟ أو إلى قياصرة الرومان ؟

Laus sit Dio, qui tabulam et calamum creavit, atque hominem docuit, quod antea nesciabit, et benedictio et pax super Mohammed.

هذه هى اللغة اللاتينية لغة قيصر . ماذا تراه فعل؟ إلهام ستجيب. لماذا؟

لماذا ؟ cur rides وخيل اليها أن رأسها سينفجر . وانبعث وجه الهام الأسمر المدور وفمها الصغير وقالت بصوت خافت يأتى من بعيد :

– العملية القيصرية نسبة الى أحد قياصرة الرومان وقد تعسّرت ولادة زوجته وكاد الجنين يختنق، فأمر أن تشقّ بطن الأم بالسكّين بلا رحمة ومن

دون اهتمام بها لاستخراج الطفل حيًا .

– آية قسوة ياإلهى؟ أليس لحياتنا نحن قيمة إذن؟ لحياتى أنا؟ مامن قيمة؟ وهؤلاء الرومان القساة الذين كان الواحد منهم يأكل حبات العنب وهو يتفرج على عشرات من العبيد يقتل كل منهم الآخر ليسلوا الجمهور ثم تأتى العربات وتكدس فيها جثث القتلى، جثة على جثة وصاحبنا مازال يلتهم العنب، هؤلاء، هؤلاء هم قياصرة الرومان .

وقالت إلهام بصوت ضخم شديد كأنه يأتى من مكبّرة صوت:

– تسمّى العملية القيصرية لأن قيصراً هذا كان شرساً قاسياً لا إنسانية له. فهو يفتح بطن الأم بالسكين ويستخرج جنينها ثم يتركها تموت وحيدة غارقة فى بحر من الدم .

وغرق صوت إلهام فى بحر من الحنان :

– أنت محظوظة ياهدى لأنك تلدين طفلك فى هذا العصر. اليوم يفتحون بطنك بلا ألم وتسلمين أنت والمولود . تعيشين ويعيش الطفل. أليس هذا جميلا ؟

مازالت يد الطبيب تعبث بأحشائها والدوار يعاودها كدقّات الساعة، ولكن ذهنها يستسلم إلى فترات من الصفاء والوضوح، وتمضى هى تعيش الماضى فيخيل إليها أن روحها ترتفع تاركة جسدها ممدداً بين أيدى الجراح والمرضات . كأن الله سبحانه وتعالى يشمل برحمته ما تعانيه من عذاب وهى مستيقظة خلال عملية الولادة .

ما ألطف نبيل وما أرقّه ، لا يمكن أن يكون فى الوجود إنسان أكرم منه ، ولكم تعجبّت كيف رتّب الله لها هذا الزواج السعيد وتساءلت مراراً : ماذا كان يحدث لها لو أنها وافقت على أن تتزوج أيّا من الذين خطبوها قبل نبيل

وما كان أكثرهم . كانوا كلهم أشخاصاً مرهفين ممتازين، ولكن لم يكن أيٌ منهم ليقارب نبيلاً فى جمال نفسه، وروحيّته، ولطفه، وحساسيته، وطهارة ضميره، ومثله العالية .

بعد الزواج بأسبوع يقول لها نبيل فجأة.

– هدى ، نحن لا نريد أن يكون لنا أطفال، أليس كذلك ؟

هل تحبّين أن نراجع طبيباً ليساعدنا فى هذا ؟

وسرى شحوب خفيف فى وجهها واعترضت عليه .

– لا نريد أن يكون لنا أطفال ؟ لماذا؟ لماذا بالله عليك ؟

– ألم أشعرك برغبتى هذه من قبل؟ ولكنى كنت أظن دائماً أنك تشاركيننى رغبتى فى ألا يكون لنا أولاد . فنحن أنا وأنت نريد أن نُسعد سعادة كاملة، فنتفرغ للتأليف والابداع الفكرىّ، ونذهب نخوض بحار العالم فى أسفار لا نهاية لها، ونقرأ، ونتناقش فى حماسة، ونضحك أو يكون لنا أصدقاء مثقفون ، ونملأ الوجود فكراً ومرحاً وفناً .

ما رأيك فى هذه الحياة ؟

وقالت له مندهشة :

– سنفرغ للتأليف أيها العزيز، وسنضحك ونجوب البحار ، ولكن هذا لا يتعارض مع وجود الأطفال .

– يا عزيزتى . الأطفال عبء على الأبوين ، وهل تعبنا أنا وأنت فى تحصيل العلم والثقافة من أجل إنجاب الأولاد ؟

وقالت له بلهجة فيها انزعاج وحسم للموضوع :

– إنى لا أكون سعيدة من دون أطفال . إن حبهم يجرى فى دمى .

وسكت نبيل ، وشعرت أنها قد تكون مسّت مشاعره المرهفة بلهجتها القاطعة

فقالت ملاطفة :

– ها ، مالك ؟ لماذا لا تردّ ؟ ألا تحبّ الأطفال ؟

– إنى لا أطيقهم ، ولست أحبّ أن يكون لى طفل .

– حتى ولا واحد يا نبيل ؟

– عزيزتى، أمن الضرورى لك إلى أقصى حد أن تكونى أمّا ؟ وكادت دموعها تنبجس وقالت :

– كل الضرورة ، وما دمت أنت لا تحب الأطفال فليكن لنا طفل واحد إذن، ولدا كان أو بنتاً، ... دعنى أجرّب الأمومة. إنى مشتاقة إلى أن أكون أمّا . ويحزننى أن أراك لا تشاركنى حبّى للصغار .

وسكت نبيل دقيقة ثم التفت نحوها فجأة :

– هدى ، ماذا جرى لك ؟ ألم تحدّثينى بالتفصيل أيام الخطوبة كيف تحتقرين أن تكون المرأة حاملاً ؟ ألم ترفضى الزواج مراراً بسبب ازدرائك للمرأة الحامل ؟ هذه أمور حدثتنى عنها بنفسك .

– أيها العزيز ، دعنى أشرح لك الموضوع . كنت أيام صباى احتقر العلاقة الجنسية وأنفر من الزواج كله . وارتبط بذلك ازدرائى للمرأة الحامل، فقد كانت تبدو لى مغرقة فى الحسّية وضعيفة فى وقت واحد . وكنت أنا أعدّ نفسى لأن أكون أديبة . واليوم أرانى كنت أنانية أرفض أن أعطى من نفسى للوجود . كنت أحبّ الحياة وأتعالى على أن أمنح العالم مخلوقات حيّة يستمر بها الكيان البشرىّ . وكلّ هذا قد هذبته فىّ السنوات تدريجيا . لقد كبرتُ وجرّبتُ ونضجت تعلمتُ أن أنقاد لعواطفى الطبيعية، وقد لاحظت أننى أحب الأطفال فبأىّ منطق أتعالى عن الحمل إذن ؟ وبأىّ شرع احتقر المرأة الحامل ؟

– ما تقولينه مثير وغريب . ويسرّني على كل أن نتكشّف الواحد للآخر لكي يقوم زواجنا على التفاهم الكامل . وإذن فماذا كان موقفك عندما وافقت على الزواج مني؟

– كنت قد تغيرت تغيراً عميقاً، ولولا ذلك لم أتزوج منك أساساً .

– ولكن هل من الضروري أن ينتهي الزواج إلى الأبوة والأمومة؟

– يصبح الزواج أنانياً من دون أولاد يا نبيل . إذ ينشغل الزوجان بالجانب الجنسيّ الحسّي من الزواج. لا بل أن الحسيّة – وهي اللفظ المهذب للشهوانية – قد تصبح دافعاً للحياة المشتركة . في حين أن الزواج في نظرنا أنا وأنت تكامل وسمو وارتفاع إلى آفاق الروح . ألم يقل الله تعالى في القرآن : «وخلقنا لكم من أنفسكم أزواجاً ، وجعلنا بينكم مودة ورحمة» لاحظ كيف لم يقل وجعلنا بينكم صلة حسّية وإنما رفع هذه الصلة إلى ما هو أسمى منها وأجمل وهو الجانب الروحيّ . المودة والرحمة بين الزوجين .

– يا عزيزتي، هذا الذي تقولينه كلام جميل . ولكن أليس بيننا أنا وأنت مودة ورحمة تملآن حياتينا وفكرنا حتى مع عدم وجود أطفال ؟

– بيننا مودة ورحمة والحمد لله . ولكنّ كلاً منا مشغول بارضاء الآخر جمالياً . أنت تتزين لأحبك ، وأنا أتزين لتحبني . ولست أعني زينة الثياب والشكل فحسب ، وإنما أقصد زينة الفكر والقلب أيضا . أعني أنك تظهر لي عواطفك بعد أن تجمّلها بالكلمات الحلوة لأنبهر بها، وكذلك أنا أتجمل لك فكريا وأكشف أمامك من خفايا ذهني ولفتات شخصيتي ما أريد أن أسحرك به ليزيد حبّك لي .

– وما عيب هذا يا هدى ؟ إننا نزداد جمالاً فكرياً وحسناً عاطفياً ، وهذا يخصب حياتنا ويجمّل الوجود كله .

– ولكن تزيننا رخيص كالتبرج الذميم ، والحبّ الحق لا يعرف التزيّن . والأبوة والأمومة تمحوان التبرّج الفكريّ والتزيّن العاطفى بين الزوجين. عندما تكون أنت أباً، تنشغل روحك بالوردة الطفولية الملونة التى انبثقت من حّبنا، ويصبح الطفل زينتنا الطبيعية البريئة . يصبح الحنان هو نعسة الجمال فى أهداب عيوننا، والتضحية تعود حليتنا الكبرى. ونفقد الخوف من أن يضيع أحدنا الآخر . ونكفّ عن التبرّج بكل أشكاله . وقد ترانى وشعرى مضطرب وشفتاى يابستان من الخوف على طفلنا وهو يبكى بين ذراعيّ فتشعر أنك لم تحبنى يوماً بأشدّ مما تحبنى فى تلك اللحظة.

وفكّر لحظات وقال ببطء :

– دعينى أفكّر . لا أدرى ، لا أعتقد أن ذلك سيزيد حبى لك لا بل أن الطفل يبدو لى حليتك الصناعية فأنت فى نظرى جميلة من دونه . أو ليس فى نفسينا نحن ما يكفى من الحسن والجاذبية والألق ؟

وفجأة شعرت أنها متعبة وأن الحوار قد طال وطال إلى ما لا نهاية له . كأنها ركضت مسافة طويلة ثم زلّت قدمها وسقطت على تراب خشن لا نعومة فيه ، أو على زجاج محطّم يجرّحها .

ولكن نبيل حسّاس ، فهو يلتقط أخفى خلجاتها فوراً ولذلك اندفع يقول :

– لا تحزنى يا عزيزتى ، سيكون لك طفل واحد ولن أقف دون تحقيق رغبتك ولكن ... خذى هذا أولا .

قال ذلك وقبّل شفتيها فادارت رأسها وقالت بلهجة عاتبة :

– كأنّ على أن أشكرك على أنك موافق علي طفل واحد . ومع ذلك فأنت تقيّد منحتك البخيلة هذه بكلمة «ولكن» .

– سنترك الموضوع الآن ، وليكن لك طفل واحد . هل أنت سعيدة الآن ؟

– لن تكمل سعادتى حتى أعرف ما وراء «ولكن».

... ...

رائحة الأدوية فى قاعة العمليات ، سدى تحاول ألاّ تشمّها وهى رائحة لا تحتمل .

عادت تتقيأ وهى مستلقية على ظهرها . وقال لها الطبيب الشاب الذى تمسك بكفّه فى يدها اليسرى متشبثة به :

– ارفعى رأسك قليلاً لتنزل السوائل فى هذه الصفحة دون أن تبتلعيها ثانية .

وصاحت وهى تختنق .

– لا أستطيع إن جبلا من ثلج ينام على رقبتى ، فرأسى لا يستدير مهما حاولت .

– حاولى أن تديريه . حاولى ثانية .

ونجحت فى رفع رأسها وتنفّست تنفساً عميقاً وسألته ويدها مطبقة على كفّه :

– ما أسمك أيها الأخ ؟

– محمود الشاكرى .

– هل أنت طبيب ؟

– نعم ولكن تحت التمرين وأحضر العمليات للدراسة والتدريب .

– لا تكن لك فكرة سيئة عني حين أمسك بكفك فى يدى هكذا .

أن كفَك إنسانية، وأنا أحسّ كأننى أرقد فى كفن .

– ست هدى ، لن أحمل عنك فكرة سيئة فأنت فوق مثل هذا . ولكنك محتاجة إلى من يشدّ أزرك فى هذا الموقف العصيب. فلا عليك وافعلى ما

يريحك .

... ...

كان ذلك بعد سفرهما إلي القاهرة ، بعد الزواج بخمسة أشهر فعندما رجعا أصابها غثيان مستمرّ مفاجيء ولم تعد تطيق أن تتذوق الماء على أى شكل من الأشكال ، وعندما فحصها الدكتور سلام أخبرها أنها حامل . وكان نبيل معها يسمع . وسكت ولم ينبس بحرف . أما هى فقد اهتزّت للنبأ . وانطلقا بالسيارة نحو البيت :

– حامل يا نبيل ! ... ما رأيك ؟

وقال لها بهدوء تام :

– نبأ اعتيادىّ مألوف فى حياة الأزواج ، وليس فيه ما يثير .

– ولكنه يثيرنى أنا ، ويقيمنى ويقعدنى ، ثم أننى مسرورة .

– تقولين أنك مسرورة ؟ هدى ! إن الدموع تهطل من عينيك وتبلل وجهك. انظرى !

قال ذلك ومرّ بيده علي خدها فتبللت أصابعه .

– لماذا تبكين ؟

– لا أعرف لماذا ، إنى خائفة ، وهذا الغثيان المستمرّ فظيع ثم أننى أحسّ أنك غير فرح بفكرة الأبوة ، فأنا سأحمل طفلى وحدى ، وافرح بالأمومة وحدى . أليس الأمر كذلك ؟ ونبيل لا يستطيع إلا أن يكون حنوناً ولذلك قال:

– كل ما يسرّك يسرّنى، على العموم، وأن لم يكن لى سرور بالمولود القادم على الخصوص . يا إلهى . ماذا أفعل لأسرّك فى هذا الموضوع . سامحينى .

– ولكن لماذا ؟ لماذا بالله عليك ؟ ألا ما أجمل أن يكون لنا طفل صغير

يناديك بابا ويناديني ماما ! وتدلله وتحمله بين ذراعيك ؟

- يا عزيزتي ، إذا شئت أن أحمله فسوف أحمله . ولكني لا أستطيع أن أحبّه . هذا كل ما في الأمر .

- ولدك، لحمك ودمك، ولا تحبّه ؟ كيف أفسرّ هذا ؟

- لقد كنت أحسب أن حبّك للأدب يجعلك لا تشبهين النساء في تعلقهن بالأولاد ، ولم يكن يخطر لي أننا سننجب أطفالا . وأنا - بصراحة - لا أحبّ هذا الولد ، لا أستطيع أن أدلله، ولا أن أضحك له ، ولا أن ألاعبه .

شعرت فجأة بطعم الدموع على شفتيها . إنه لن يحب المولود القادم إذن هو أباه ، وسيولد الطفل ليكون محروما من حنان الأب ، هذا ما كتب الله لها إذن، والحمد لله على ما كتب .

.. ..

بصوت جدّي فيه سرور قال الدكتور سلام :

- لقد ولدت صبياً .

وعاودتها نوبة من التقيؤ . وأحسّتْ باحساس درامي معقّد . أهكذا الأمومة إذن مرتبطة كل الارتباط بالعذاب ؟ ما تكاد تسمع أن المولود صبيّ حتى يخيل إليها من الآلام أنها تقذف معدتها كلها إلى الخارج، تقيؤ يليه تقيؤ . ارتفع صوتها في حشرجة :

- ولكن أين المولود ؟ أين هو ؟

وقال لها الدكتور محمود في رفق .

- لم يزل في الرحم ، لم يخرجه الدكتور إلى النور بعد .

- وكيف إذن عرف أنه صبيّ ؟

- إن جنينك لم ينقلب كما تعلمين ففخذاه الي أسفل ، وما كاد المشرط

يفتح الرحم حتي عرفنا أنه صبى .

وسرحت بذهنها. ما أغرب هذا كله ! جنينها لا ينقلب فيضطر الطبيب إلي إجراء العملية القيصرية . فلنفرض أن هذا مقبول ما دام يحدث لطائفة من النساء غيرها، ولكن لماذا كان حظّها أن تعطى مخدراً موضعيّاً دون المخدر الكلىّ الذى يجعلها تغيب عن الوعى فلا تعانى ألما ولا عذاباً خلال الولادة . إن كل النساء اللواتى تجرى لهن هذه العملية ينمن ولا يشعرن بشىء إلاّ هى. لكأن الله أراد لها أن تمرّ بهذه التجربة المرّة لحكمة خفية لا تعرفها. وإذا زكام شديد يصيبها وهى على وشك الولادة . وأخبرها الدكتور سلام أنه لابد من شفاء هذا الزكام قبل اجراء العملية . وإلا ، اذا بقيت مزكومة فسيكون محتما أن تعطى مخدراً موضعياً . وحاول الأطباء شفاء الزكام سدى . وقالت لنفسها .

– لعل الله يريد أن أمر بتجربة تخصب نفسى ، وتمدّ ذهنى بفيض من الصور والانفعالات، وتوسّع آماد روجى .

إن العذاب يربطنا بالانسانية ويذيقنا طعم اللانهاية.

فالحمد لك ياإلهى .

وبدأ شىء رهيب يحدث لها . إن الطبيب يسحب شيئا فى داخلها . ما هذا الشىء الذى يسحبه ياترى؟ لعله المولود لا بل لا شك فى أنه المولود . ولكن لماذا أحسّ أنه يسحب قلبى وأحشائى كلها ؟ ياربّاه ،متى ينتهى هذا الشدّ الرهيب أنى أموت . دكتور سلام ! إنكم تسحبون الحياة من جسدى قفوا بالله . سلام ! أنى أموت

وقال لها سلام وفى صوته حنان يتدثر بالصرامة المعتادة لدى الجرّاحين:

– اصبرى قليلا ، نكاد ننتهى.

وانتهى الشدّ فجأة وأغمى عليها لحظات . واختلطت الصور والأفكار مع سورة الإغماء . رأت نفسها واقفة أمام أختها ليلى وهى تبكى بدموع حارّة غزيرة :

- ليلى، ليلى ، ما أتعس هذا الجنين الذى أحمله فى حناياى إن أباه لا يريده، ولن يحبّه ، لن يدلله، ولن يقبّله ولن يشتري له اللعب والحلوى .

وصاحت ليلى فى انزعاج .

- ماهذا الهُراء يا هدى؟ من قال لك هذا ؟

- نبيل قاله لى مراراً . يريد أن نعيش أنا وهو للأسفار والتآليف والأصدقاء دونما أولاد .

- هراء ، كلام فارغ . هل قال لك هذا بنفسه ؟ هل قاله نبيل حقاً أم أنت تبالغين على عادتك ؟

- قاله لى مراراً، والله ، صدقيني، أليس خيراً لى أن أسقط هذا الجنين البائس قبل أن يولد تعيساً لا ينال حبّ أبيه ؟

- اذا كان نبيل يقول لك هذا فاعلمى يا أختى أنه يجهل نفسه إن الأبوة أولاً إحساس غريزى ، وسترين كيف يحبّ ولده سترين يا هدى. اسمعى ما أقول وكفكفى دموعك، وكيف تصدّقين ما يقوله لك ؟ ألا ترينه يذوب حناناً حتى على الغرباء إن لك زوجاً مرهف الإحساس، رقيقاً كالشمعة فهل يعقل أنه يقابل ولده الحبيب بالبرود؟ كلام فارغ. قال ماذا ؟ لن يحبّ طفله . خذى! امسحى عبراتك وسترين صدق نبوءتى .

- ولكنه قد أكد لى هذا مراراً ، إنى أخيط الثياب للمولود القادم وأضعها على سرير نبيل وعندما يراها لا ينفعل ولا يفرح . فى حين أقبل أنا كل ثوب أخيطه للصغير المجهول .

... ...

افاقت من الإغماء ، وشعرت أن الشدّ والجذب قد انتهيا .

ورفع الدكتور سلام طفلا عارياً ، رفعه على كفيه إلى أعلى لتراه الأم الممددة على منضدة العمليات .

– هاهو ولدك . انظرى إليه .

وتطلعت هدى إليه : مخلوق صغير عارٍ ، صامت، كتلة من اللحم الأسمر المحمرّ بين يدى الطبيب . وشعرت أنها ترى كنزاً ثمينا . إن هذا ولدها . وأحسّت بسعادة غامرة . ثم صرخت – إنى لا أستطيع أن أتنفس . ساعدونى .

وصاح الطبيب :

– أوكسجين . أعطوها أوكسجين .

وسحبوا جهازا عالياً وأسلموها كمامة صغيرة ما كادت تقارب فمها حتى ارتدّت إليها الحياة . ترى ماذا كان يحدث لو أنها عاشت فى القرن التاسع عشر بدلا من العشرين ؟ كانت ستختنق وتموت . والآن وقد توافر الأوكسجين ، وانقطع التقيؤ ، أصبح كيانها كلّه متجها إلى الطفل المولود . رأت الدكتور سلام يسلمه إلى ممرّضة ملثمة إلى جواره . وحملته الممرضة ودارت حولها ، هي الأم ، واتجهت به إلى منضدة على يمينها .

وأدارت هدى رأسها بصعوبة وألم وراحت تحدّق فى الطفل أو حواليه فى الواقع لأنها لم تستطع أن تدير رأسها تماما . ورأت ممرّضتين تحمل أحداهما مقصّاً . وأدركت أنها تقص الحبل السُرِّى . ياإلهى ؟ هل هو حىّ ؟ لماذا لا يبكى إذن ؟ وتذكرت أستاذ الموسيقى الذى درّسها العزف على الكمنجة منذ سنوات بعيدة فقد روى لها هذا البيت ذات مرة :

لما تؤذن الدنيـــا بـه من صـــروفـــهـــا

يكون بكاء الطفل ســـــاعـــــة يـولد

وهذا الطفل لماذا لا يبكى؟ إن دنياه تؤذنه بصروفها حتى قبل مولده . إن أباه لا يحبّه ، ولن يستقبله بالأحضان والقُبَل . كلا ! لا أحضان أبويّة لك يا حبيبى الوافد ، ولن تجد لذّة فى النطق بكلمة

(بابا) . لماذا لا تبكى يا طفلى الحبيب ؟ ابك ، ابك يا صغيرى .

واختلط فى ذهنها الأمر . أتريد بكاء لأنّه علامة الحياة والبشرى لها هى الأم ؟ أم تطلب ذلك البكاء لأنّه علامة الحزن لدى مولود برىء لا يحبّه أبوه ؟

وبدأت تتقيأ من جديد وقال لها محمود وهى تشدّ على كفهّ بين أصابعها:

– إن سبب مواصلتك للتقيؤ هو أنك تبتلعين المواد ثانية حاولى أن ترفعى رأسك قليلا لتقذفى القىء وترتاحى منه وشعرت بعذاب هائل، لم تعد قادرة على التنفس إلا بصعوبة مع وجود الأوكسجين . وأحسّت أن الدنيا تغيم فى عينيها وأنها تقذف أحشاء ها كلها إلى الخارج . وكانت تضغط بأصابعها أشدّ وأشدّ على كّف الدكتور محمود الواقف إلى جوارها . وشحب وجهها ومال إلى الزرقة وقال محمود :

– لقد عانيت الكثير وبقى القليل . تشجّعى واصبرى .

وكان رأسها يدوى دوياً شديداً وكأنه يوشك على الانفجار يا إلهى ! إن الولادة عملية رهيبة . ولكن الخالق العظيم كان حكيماً عندما أراد أن تتعذب الأمّ وهى تلد طفلها . فنحن نحب الولد أشد وأشد كلما كان عذابنا فى سبيله أكثر وأعمق . يرتبط مولودنا بهذه الآلام القاتلة فنريد أن يحيا وأن يكون لنا ونسعد به وكأنه كفّارة عذابنا، والتعويض الهانىء عن آلامنا الموجعة، وتأوّهاتنا . ثم أن عذاب الأم فى الولادة هو سرّ إنسانيتها وعظمتها،

إذ تحسّ أنها تبذل ذاتها وكيانها وراحتها من أجل أن يستمرّ بقاء الإنسان على الأرض . إن تضحيتها تربطها بالله، وتلمسها بشعاع الألوهية . إنها تضحى بذاتها فى سبيل البشرية . ومن أجل المولود الحبيب القادم تحتمل أشد ألوان العذاب باسمة . ها أنا ذى . أنا هدى التى كانت مدللة ناعمة طوال حياتها لا تحتمل ألما مهما صغر . ألست أخوض عملية الولادة فى شجاعة لا مثيل لها وصبر ورضوخ وأحمد ربى مع ذلك ؟ ولكن يا إلهى، يا إلهى، لماذا لم يبك طفلى حتى الآن ، أتراه ولد ميتا؟ وأحسّت أن هذه الفكرة تطعنها بسكين وضاقت الدنيا فى عينيها وشعرت أنها تموت ...

– آه ... آآها ... آآه ... أآها ...

يا إلهى . إنه يبكى . الحمد لك يارب . ألف حمد لك ربىّ . إن طفلى حىّ وقد وهبتنى هذه النعمة .

وكانت أصابعها مازالت تضغط بقوة علي يد الطبيب المتمرن وقالت :

– خفت ألاّ يكون حيًا ...

وقال الطبيب :

– كل الأمهات يخفن هذا . الآن سيبدأ الدكتور سلام بخياطة الجرح .

... ...

كل الدموع التي ذرفتها عبر أشهر الحمل الطويلة عاد طعمها إلى شفتيها. كان نبيل حنوناً، وحنانه يحيط بها كل لحظة، وكان يحزنه أنه لا يحبّ المولود القادم ولا يستطيع أن يشارك زوجته الفرح به، كان لا يفتأ يعتذر إلى هدى :

– سامحينى يا هدى، كم أتمنى لو استطعت أن أكون والداً محباً لطفلنا المنتظر . ولكنى لا أستطيع . تبدو لى الأبوّة زوبعة فى فنجان . وأراك تتألمين

فيحز الألم قلبى . ولكن ماذا أفعل لنفسي؟ هذه مشاعرى وأنا أصارحك بها مصارحة أمينة لكى لا تؤذيك الصدمة فيما بعد . يجب أن أكون صادقاً معك فأعلمك مقدّماً أننى غير قادر على أن أحبّ هذا الطفل على قوة حبى لك أنت وسعادتى بهذا الزواج :

وصاحت به هدى فى حدّة :

– حبك لى ؟ لا تتحدّث عن حبك لى . إن من لا يحبّ طفلى لا يحبّنى أنا . ألا تدرى أن عليك واجباً نحو طفلك ؟ أنت أبوه ، والله والشرائع والمجتمع كلهم يفرضون عليك أن تؤدى واجبك نحوه . ووضع يده على شعرها وراح يربت عليه بحنان، ، وسالت دموعها وهى تزيح يده عن رأسها، ثم تدفع أصابعه عن شعرها وسمعتْه يقول :

– لا تبكى يا غالية . إنى سأؤدى واجبى أتمّ أداء نحو هذا الطفل الواجب عندى مقدّس ، وسأمنح الطفل كل شيء من تربية، ووقت، ومال . ولكني لن أستطيع أن أحبّه. هذه هى المسألة التى أريد أن تستوعبيها من الآن لكى لا تصطدمى فيما بعد .

– وهل تظن الواجب مجرد وقت ومال ؟ إنما الواجب شعورى . يجب أن تمنح هذا الطفل مكان الصدارة داخل قلبك. يجب أن تؤديه فى كيانك . هذا هو الواجب .

– يا هدى، هذا شيء لا أطيقه. فليغفر لى الله إذن . ولابد لى من أن أجعل هذا يدخل ذهنك فتصدّقيه قبل مولد الطفل .

وسكتت . كانت قد بدأت تستوعب الحقيقة المرّة. بدأت تتجرع كؤوسها كما يجرع المرء الحنظل مرغماً.

... ...

– انتهينا ، الحمد لله على السلامة.

كان هذا صوت سلام ابن خالتها :

– أما زلت محتاجة إلى الأوكسجين؟ دعينا نجرب رفعه عنك .

أبعدوا الأوكسجين .

– إنى أختنق . آه . أوكسجين . أوكسجين بالله عليكم .

– أعيدوا إليها الأوكسجين . خذوه معها إلى غرفتها .

ابتعد الدكتور سلام وأزاح اللثام عن وجهه . كذلك فعلت الممرضة وابتسم الدكتور محمود وقال :

– اتمنى لك وللمولود السعادة .

– شكرا لك من أعماق قلبى . لقد كنت لى أخاً كريماً .

وافلتت كفّه وارتخت أصابعها أول مرة . وبدأت الممرضة تغطيها بالشرشف الأبيض الكبير . ثم راحت تدفع الناقلة نحو الباب . وفتحت ممرّضة ثانية باب غرفة العمليات ، ودفعت الناقلة إلى خارجها . وفجأة رأت هدى منظراً غريباً .

أمام باب غرفة العمليات كان يصطفّ كل من نبيل وأخوتها الأربعة وخالتها أم سلام وابنتها إلهام . وكانوا يتطلعون إلى الناقلة بوجوه شاحبة قلقة يفيض منها الخوف . عيونهم كانت تنطق باليأس . ولم تدر هدى لماذا، فانها هى والمولودالحبيب بخير فما سرّ خوفهم إذن ؟ وتطلعتْ إليهم لحظات ثم ابتسمت لهم ابتسامة عريضة لتطمئنهم . ولكنّ أىّ أحد منهم لم يبادلها الابتسامة وبقى الخوف يصيح فى وجوههم . ولم تفهم هدى سبب هذا ، وندمت على أنها ابتسمت لهم . لعلها رعونة منها أن تبتسم فى هذا الموقف الصعب .

وقالت في نفسها : «إنهم يقلقون وتهزّهم المواقف الحرجة ، والأحداث المثيرة، وهم يضطربون ويخافون ويهتزّون ، فلم كنت أنا يا إلهي اختلف عنهم جميعا؟ أنا وحدى التي تضحك . ها أنا ذى ابتسم لهم مع أنني محمولة على نقّالة العذاب ، وبطني مبقور بلا مخدر، وسأتعذب طوال هذه الساعات القادمة فلماذا ؟ وما سرّ ضحكي وابتسامي؟

ولم يخطر لها أن تفكر في الحجاب الذي يحجز نفساً عن نفوس .

وهل يمكن أن تبتسم هدى بعد العملية لزوجها واخوتها وأهلها فلا يبادلونها الابتسامة؟ كيف يسوغ هذا ؟ لم يخطر لها أن تنتبه إلى أن جهاز الأوكسجين قد أخاف أحبابها . رأوها ملفوفة بالبياض لا يبرز إلا وجهها، وإلى جوارها يركض جهاز غريب الشكل يخفي نصف وجهها. ولم يدر أحد منهم أن المريضة كانت تضحك له وتؤنسه بابتسامة حارة كلّها سعادة . وهكذا تسدل الحياة حجبها بين الأحباب فتقع الملابسات وصنوف العتاب وضروب الجراح الشعوريّة .

وصلت الناقلة إلى الغرفة رقم ٨ غرفة هدى وتعاونت ممرضتان على تمديد المريضة على سريرها وضحكت إحداهما ضحكة بشاشة ومودّة وقالت:

– الحمد لله على سلامتك .

– سلّمك الله شكراً لكم جميعاً على عنايتكم بي .

وانصرفت الممرضتان إلى باب الغرفة ووقفتا هناك . هل ترى علم نبيل أنه قد ولد له صبيّ؟ وماذا كان موقفه من هذا ؟ وتنهدّت هدى تنهداً عميقاً وطفرت دمعة من عينيها. العوسج في حنجرتها العوسج في ذهنها. عوسج، عوسج في كل موضع من جسدها. طفل يولد فلا يحبّه أبوه ولا يفتح له

ذراعيه ولا يناغيه ولا يحمله . والعبرات تسيل على وجهها .

وسمعت صوت أختها ليلى من باب غرفتها تكلم الممرضة .

- هل تسمحين لنا برؤيتها الآن ؟

- ربع ساعة فقط، ثم نسمح لكم بالدخول ، إنها مازالت تحت الأوكسجين.

وسمعت خطوات ليلى وهى تبتعد . وعادت العبرات تغسل وجهها وتنزل فتمس شفتيها. وابتلّ حتى جهاز الأوكسجين . كانت قد سمعت من الناس أن الأمومة عذاب، ولكنها لم تكن تدرى أن العذاب سيكون حاداً بهذا الشكل، ناخراً على هذه الصورة وقالت للممرضة وهى تلهث تعباً :

- هل أستطيع أن أرى طفلى؟

وضحكت الممرضة :

- كلا يا عزيزتى . اليوم هو الثلاثاء وسنأتيك به أول مرة صباح الخميس لترضعيه الرضعة الأولى:

- وماذا يشرب الولد حتى ذلك الحين؟

- ماء دافئاً وحسب، لنغسل معدته لا لنغذيه. هذا هو المألوف عندنا .

- ألن يجوع إذن ؟

- أنه مكتفٍ بما كان قد تغذّى به وهو فى بيت الرحم .

ولن يجوع قبل صباح الخميس .

- وشعرت هدى أن هذه قسوة . كيف يدرون أن طفلى ليس جائعاً؟

واندفعت تقول :

- ليتكم تسمحون لى أن أرضعه صباح الغد على الأقلّ .

وضحكت الممرضة ثانية :

- أنت أم ملهوفة جداً. اعلمى أننا لو جئناك به غداً لما استطعت إرضاعه.

- ولماذا بالله عليك ؟

- لم يتكون الحليب لديك بعد . ولن تكونى قادرة على إرضاعه حتى صباح الخميس : اهدأى إذن واستريحى . والمولود عندنا بخير فى غرفة الحضانة .

لاحظت هدى فجأة أنها قد أبعدت كمامة الأوكسجين عن فمها وأنها كانت تتنفس تنفساً طبيعياً فأعطت الكمامة إلى المرضة .

- لم أعد احتاج إلي الأوكسجين .

- رائع . هاتها .

ودخلت هدى فى سورة أفكار على طريقتها المألوفة . كيف يبقى الطفل بلا حليب أربعين ساعة؟ ما دام الله قد جعل غدد الحليب عند الأم لا تفرز إلا بمرور هذه الساعات الاربعين، فهو سبحانه قد غذى الطفل بما يكفيه لعبور هذه الفترة. سبحانك ياربى كيف قدّرت كل شيء هذا التقدير الدقيق . تماماً كما أنك بحكمتك الإلهية قد تركت فى بيضة الدجاجة مقداراً صغيراً من الهواء يكفى الفرخ ليتنفس عندما تدبّ الحياة فيه فجأة ويبدأ ينقر قشرة البيضة ليخرج الى النور . وبهرتها روعة تقدير الله . وتذكرت الآية الكريمة «وكل شيء قدّرناه تقديراً».

وفجأة تنحّت المرضة وقالت : «ادخلى» واندفعت أختها ليلى داخلة وصاحت فى حماسة وفرح :

- هدى ! هدى ! عندى لك خبر مفرح عظيم . أوه اعذرينى الحمد لله على السلامة أولا .

وقبلّتها على عجل وعادت تقول:

– أتعلمين ؟ عندى نبأ جميل لا يصدّق .

– قولى بسرعة ، بالله عليك . ألا ترينني أبكى؟

وأسرعت ليلى تقول:

– كفكفى هذى الدموع فوراً . إن نبيلاً قد بكى من الفرح عندما أخبروه أنه قد ولد له صبىّ .

– أتكذبين علىّ؟ ليلى ! كيف تريدين أن أصدق هذا ؟ ولعله بكى لسلامتى أنا لا للمولود .

– سلامتك تفرحه ولا تبكيه ، إنما بكى انفعالا وفرحاً بالمولود .

سوف يخبرونك كلهم .

ودخلت في هذه اللحظة خالتها أم سلام وبعد أن قبلتها مهنئة بالسلامة قالت لها ليلى فى لهجة محمومة:

– خالتى ، انبئى هدى بما فعل نبيل.

وضحكت خالتها مقهقهة وكانت تعرف أقوال نبيل عن عدم حبه للأطفال، وقالت :

– جاء ت المرضة وقالت «أىّ منكم هو الزوج؟» وعندما دللناها على نبيل قالت : «لك البشرى. لقد أصبحت أباً والمولود صبىّ، وهو والأم فى صحة جيدة» وفجأة وبسرعة راحت العبرات تتحدر من عينى نبيل وأخرج منديله وراح يمسح دموعه وقال للممرضة «بشرك الله بالخير أرجوك أن تلاحظى ألا يتعرض الولد لتيار الهواء، دثريه بالله عليك. دثريه جيداً». وردت عليه المرضة : «لا تخف . إنّه مدثر جيداً. وليس فى غرفة الحضانة تيارات هواء. تعال لأريك ولدك لتطمئن عليه .» وسار معها يا هدى، وهو منذ ربع ساعة

واقف أمام زجاج النافذة يتطلع إلى ولده ولا يشبع. وقد أعطى للممرضة المسؤولة أكثر من مبلغ واحد وهو يرجوها بالحاج أن تعتنى بالطفل. إنه خائف عليه من عشرين شيئا والممرضات يمازحنه حول هذا الحرص المبالغ فيه على المولود ويضحكن فيما بينهن .

وفجأة أطل نبيل من باب الغرفة وهو كالخجلان، وبادرت خالتها وأختها بالخروج من الغرفة .

واقترب نبيل من هدى. وكانت شفتاه ترتعشان. وانحنى وقبّلها فى حرارة على خديها وجبينها ثم قبل ظهر كفّها.

وشعرت هى بسعادة لأنّه لم يقبلها على شفتيها. إن هذه علامة على أنه سعيد بالمولود وأنه يشعر شعور الأب . لقد رفعتْهُ ولادة طفله الى آفاق «المودة والرحمة» القرآنية . إن الطفل يهذب حسيّة الأبوين وينقّيها ويصفيها حتى تصبح فى بعض الساعات ضياء روحيّاً شفّافاً.

أما قبلته التى طبعها على ظهر كفّها فان هدى رأت فيها دون أن يقصد هو واعياً - احتراماً جديداً للأمومة . أنه الآن لا يقبلها لأنها زوجته المحبوبة وإنما يقبل يدها لأنها والدة طفله. وهو خاشع أمام شعاع الأمومة الذى يلوح على وجهها الشاحب المتعب بعد آلام الولادة . فى هذه القبلة على ظهر يدها تقديس نبيل الجديد للأمومة وسعادته بالأبوة . احترام وتقديس، لا حبّ حسّىّ ولا دوافع جنسيّة لقد ارتفع الزوج الى مرتبة الأب، واتّسعت الحسّية حتى أصبحت إنسانية . وصعدت الكرة الأرضية وصعدت وصعدت حتى أصبحت نجمة بين ملايين النجوم التى تموج بها الخليقة .

كل هذه الأفكار عبرت بذهن هدى فى لحظات . وبقى نبيل صامتاً لم يتكلم بحرف . كان منفعلاً بشكل غير مألوف . واندفعت هدى كالطفلة وهى

تلهث من التعب :

– نبيل ! هل أنت سعيد بالمولود؟

– أنا سعيد حفظك الله لى وحفظه .

– وهل تشعر أنك تحبّه ؟ قل لى بصراحة .

– الغريب أننى أشعر بحب عميق له .

– هل ستحمله إذن وتدلله وتلاعبه وتقبّله ؟

– هدى ، هدى . لا أعرف جواب هذه الأسئلة الحلوة . ولكنى أحس أنني أستطيع أن أبقى واقفاً أمام زجاج غرفة الحضانة طوال الليل . إنى متلهف عليه بشكل لم أكن أتوقعه .

عند هذا أشرق وجه هدى ولكنها قالت له معاتبة عتاباً شديداً .

– أيها الزوج اللئيم . كيف إذن أبكيتنى تسعة أشهر بقولك المصرّ أنك لن تحبّه ؟

قالت هذا وانفجرت دموعها وأدارت رأسها عنه . وانحنى وراح يقبلها .

– سامحينى أيتها الغالية . لم أكن أعرف أن الولد عزيز بهذا الشكل . كنت غرّاً، جاهلاً . ولم أدر أن الأبوة نعمة هائلة من الله على الأب .

أغمضت هدى عينيها وحمدت الله بلا كلمات . كان الجرح قد بدأ يصبح مؤلما . وتذكرت إنذار سلام :

– الأمر السيء فى المخدر الموضعىّ أن تأثيره يزول بعد نصف ساعة من مغادرتك لغرفة العمليات . وتبدأ الآلام المبرّحة وعليك أن تتحملى ياهدى. لقد كنت مزكومة إلى آخر لحظة . وأحياناً يكون على الانسان أن يتحمل العذاب مرغماً .

ولم تحب أن تزعج نبيلاً الفرحان بالأبوة بأنباء آلامها القادمة . كانت

تشعر بعطف كبير عليه وحبّ عميق له . وصمّمت أن تحتمل عذابها وحدها . يكفيها من السعادة أنها الآن أم وأن نبيلاً أب وأن المولود معافى . وقال نبيل:

– إنى خائف على طفلنا أن يختلط بالمواليد الآخرين .

– حقاً ، نبههم إلى هذا .

– لقد نبهت الممرضة فأكدت لى أن ذلك مستحيل ، فإنه نائم فى عربة عليها رقم غرفتك «٨» ولكنى أخشى أن تحمله الممرضة ثم تعيده إلى عربة أخرى غير عربته .

– لا يمكن أيها العزيز . سأطلب إلى الممرضة أن تحمينا من مثل هذا الاحتمال .

– سأذهب لأراه وأعود إليك .

وبدأت هدى تتلوى من الألم . كان ألم البطن المبقور قاتلاً . ولكنها قررت الصمود . وتذكرت ذلك الرجل المسلم الصابر العظيم الذى عاش زمن الأمويين فقد قرر الطبيب أن يبتر ساقه إنقاذاً لحياته، وعرض عليه أن يسقيه الخمر حتى يفقد وعيه لكى يتحاشى الشعور بالألم فرفض المريض قائلا «لا أستعين على وجعى بما يسخط الله تعالى.» واحتمل أن تُقْطع رجله دون أن يتأوه آهة واحدة.

ورنّ فى سمعها صوت الدكتور سلام :

– ستتحملين آلاما مبّرحة طوال الليل، ولكنّ الألم سيزول دفعة واحدة فى الصباح . إذ ستكون الأدوية التى نعطيك إياها قد أثرت تأثيرها .

ولاح لها أن فجراً برّاقاً يبزغ فى الأفق . وتذكرت ما قاله شللىِ فى قصيدته «بروميثيوس وهو طليق» : (إن عصور عذابى ستكون بلا حدود ،

ولكنها مع ذلك ستنتهى).

وفجأة تذكرت طفلها .

- صباح الخميس . صباح الخميس سأراه. إنه موعد مع حبيبى وسأتعرّف إليه أوّل مرّة .

وأحسّت أن آلامها تخفّ. وأغمضت عينيها . الحمد لله الذى وهب الطفل، ووهب الألم. الحمد لله الذى وهب الأب ووهب الحياة . إنى ابتسم واتحدّاك يا خفافيش العذاب فالصباح قادم . الصباح قادم .

تشرين الثانى ١٩٧٣

قناديل لمندلي المقتولة*

«قصة للعطاش»

انتهى الفلاحون من علمهم فى عز الصباح ذلك اليوم. وكانت الأرض متشققة تلهث من العطش، وهنا وهناك قد تساقطت حبات البرتقال الذابلة التى لا تجد فى الأرض ماء ولا حضنا حنونا ولا غذاء، فتتهاوى تحت ندى الصباح وهى تشهق بالبكاء . وماذا بقى للفلاحين من عمل فى مندلى؟ الاشجار كلها قد يبست وذبلت غصونها وأوراقها، ولم يعد هناك من يدفع أجرة للفلاح، لأن أكثر العائلات قد رحلت حزينة معذبة. أسرة بعد أسرة تركت مندلى لأن الماء قد انقطع ولم يعد يجرى. كان نهر السيبة قد جف ولم يعد يسقى تلك البساتين الروية الخضراء التى كانت ترقد فى أحضان التلال. منذ الأزل كان نهر السيبة يروى مندلى. وتعاقبت مئات الاجيال فى هذه المدينة الطيبة وهى تشرب من السيبة وتسقى حقولها ومراعيها. وكان الأطفال يولدون وما يكادون يبلغون السادسة من العمر حتى يتعلموا السباحة فى النهر الحنون . والآن لم تعد امرأة فى مندلى تجرؤ على الولادة فى المدينة اليابسة الميتة. كلهم يرحلون، كلهم يرحلون، النهر نفسه قد رحل .

وفى ذلك الصباح لاحت المدينة مهجورة لايمشى فى شوارعها الضيقة

---

* مجلة الآداب العدد الثانى عشر. كانون الأول ديسمبر ١٩٧٨ (السنة السادسة والعشرون).

أحد. وخرج أسعد وعمر يحملان كتبهما المدرسية قاصدين بناية المدرسة التي تقع على بعد كليو مترين عبر البساتين الظمأى.

قال عمر الذي يبلغ تسع سنوات من العمر:

ـ إلى متى نبقى نذهب إلى المدرسة وقد هجرها التلاميذ كلهم؟

ـ ياعمر ، ياعمر ، أما قلت لك إن حضور الدروس واجب وطني؟ إننا يجب أن نتعلم لكي ندافع عن مدينتنا التي قتلتها ايران.

وانحنى أسعد والتقط بيده برتقالة عجفاء زاهية اللون. ولكنها سقطت عن غصنها الذي لم يعد قادرا على تغذيتها. ورفعها إلى مستوى عينيه وهتف وهو يكاد يبكي:

ـ برتقالة مقتولة ذبحها العطش. لماذا تأتي ايران وتأخذ منا نهرنا؟ هل أسأنا إليها في شيء ؟

وأخذ ينشج . وتذكر العم محمود . الفلاح الذي يسكن إلى جوار بيتهم، وكان يخرج كل يوم إلى بعقوبا بعربته «البلشقة» ويرجع وقد عبأها أواني مليئة بالماء وراح يسقي شجرات البرتقال والرمان وهو يبكي ويهتف:

ـ لا أترك أشجاري تموت ولو قتلني التعب . يوميا أرحل سبعين كليو مترا لآتي بالماء . عيشي يا شجراتي واشربي ولو فتحت شراييني لاسقيك من دمي .

ويحزن أسعد ويهتف:

ـ حرام عليك ياعمي محمود! إن المسافة بعيدة والماء الذي تأتي به لايكفي.

ويقول الشيخ من خلال دموعه:

ـ سمعت أن الحكومة الايرانية قد ندمت وعذبها ضميرها على تحويل

مجرى النهر، ولذلك ستهدم السد الشرير وتعيد الماء إلى نهرنا .

ويهزّ أسعد، الذى يبلغ عمره خمسة عشر عاما، رأسه ويقول:

ـ ياعماه لاتحلم ! لقد حولوا مجرى النهر ولن يعيدوه.

ـ أموت إذن فى مندلى يا ولدى. أسقيها حتى أموت ولا يبقى فى عروقى دم . وادفنونى تحت شجرة الرمان الكبيرة هذه.

سار أسعد وعمر صامتين فترة ثم عاد الصغير يقول:

ـ أسعد ، يجب أن ننقطع عن حضور الدروس ونرحل مع أمى إلى بغداد. الا ترى الصفوف خاوية إلا من طلبة قليلين حزانى ولا يفهمون ما يقول المدرس؟

ـ ياعمر، يا حبيبى، إن أبى فى بغداد لم يجد عملا حتى الآن، ونحن لا نملك إلا بيتنا البالى هذا.

ـ ولماذا لانبيع بيتنا ؟ ألا ترى أنه لم يعد نافعا لنا ؟

وتنهد أسعد:

ـ أيها الصغير العزيز، ليس من أحد يشترى بيتا بلا ماء. إن مندلى كلها لاتصلح الآن للبيع، لأنه مامن أحد يدفع فيها دينارا. مدينة بلا ماء ياعمر، مدينة بلا ماء .

وتخطى الغلامان سياجا واطئا يفصل بين بستانين. وسقطت ثلاث رمانات جافة. وكانت خطى الولدين تقع على أوراق كثيرة صفراء يابسة وتحدث خشخشة رتيبة. ولاح الحزن على الصغير عمر وسكت .

وبعد ذلك لاح بناء المدرسة الفقيرة التى كانت تدرّس تلاميذ مندلى طيلة عشرين عاما. وكان الفراش عم مصطفى يجلس على دكة مفروشة بحصير ووجهه ذابل، وهتف بالغلامين:

ـ أسعد وعمر ، أنتما متأخران اليوم، وسيغضب المدرس عليكما.

قال أسعد وهو يتنهد :

ـ سمعنا أمس أن المدرسة ستقفل، وأظن درسنا هذا آخر درس فيها، ومع ذلك حضرنا لأن علينا أن نتعلم وننقذ نهر السيبة ومندلي.

ودخل الغلامان إلى أول غرفه على اليمين ، فابصرا الأستاذ رفعت بقامته الطويلة وسمعاه يقول:

ـ المفعول به منصوب هنا.

ثم حين رآهما:

ـ حسنا تفعل ياعمر إذ تحضر الدرس معنا، لأن صفك قد أغلق اليوم بسبب رحيل الطلاب. تعالى يا أسعد واجلس هنا ... و لكن ماذا؟ إن عينيك دامعتان.

ـ لاشيء يا أستاذ ، إنَّه ندى الصباح .

وجلس الغلامان، وأخرج أسعد كتاب قواعد النحو ودفترا أحمر اللون وراح يحاول أن يصغي إلى ما يدور في الصف .

وانحنى رفعت على كراسة أسعد وسأله : «هل حللت التمارين؟»

خجل أسعد وأطرق دون أن يرد . ياإلهى ! هل بقى لنا جلد وعقل لنحلّ التمارين؟ إن أمى عطشى لأن السقاء الذى يحمل إلينا ماء الشرب من بعقوبا مريض وقد انقطع عن المجيء . وهذا الصباح كان هناك كوب واحد من الماء وقد تقاسمناه نحن الثلاثة. خرجت من البيت وأنا أسمع نشيج أمى، فلا الماء يأتينا ولا أخبار أبى تصلنا . ومن أحد الأصدقاء القادمين من بغداد علمنا أن أبى لم يجد عملا لكى يشير علينا بالرحيل ولم يعد فى وسعنا أن نصبر .

لا، لم يرد أسعد ، وتزاحمت العبرات على أهدابه السوداء . وسقطت عينه على الجدار المقابل وعليه خريطة بالية للعراق. إن العراق هو بلاد ما بين النهرين وهو يدفق بالماء الغزير، ومن المحزن أن نهر السيبة هو وحده الذى ينبع من ايران، ولولا ذلك لما حوله أحد . وقال أسعد لنفسه:

– وحكومة ايران أليست مسلمة لتقطع الماء عن مندلى المسلمة؟ وأية عدالة هى هذه؟

ـ أسعد : هل أنت معنا؟ أتدرى ما يدور فى الصف؟

ـ نعم ، يبنى الفعل للمجهول ويتحول المفعول به إلى نائب فاعل .

وراح أسعد يبكى، ووجم التلاميذ وغص المعلم بريقه.

ـ اكمل يا أسعد، صحيح يا أسعد ، وماذا بعد؟

ـ أريد أن أفهم يا أستاذ : هل النهر ملك لايران؟

أنا أقول : لا . النهر ملك الله رب العالمين، هو أجراه وهو الذى حفر واديه . ونهر السيبة كان يجرى فى مندلى منذ أقدم العصور، فبأى حق ...

وصعق المدرّس واستولى الخوف عليه وابتلع ريقة عدة مرات وقال:

ـ يا أسعد ، لا شغل لنا فى موضوع النهر لأنه موضوع سياسى. ونحن هنا لدراسة النحو.

وقال تلميذ طويل القامة من آخر الصف بلهجة ساخرة لاتخلو من الحزن

ـ الحكومة تمنع الكلام فى هذا الموضوع وتعاقب من يفعل ذلك.

وصرخ أسعد :

ـ الحكومة تمنع ، الحكومة تمنع! دعونا نقول أنّنا عطاش يا ناس. دعونى أخبركم أننى تركت أمى تبكى لأننا عطاش .

وامتلأ وجه المدرس بكآبة مفضوحة . وخاف وحاول ألا يظهر عليه ذلك ،

لأن نورى السعيد يصادر حتى الكآبة، وكل الناس يعلمون ذلك . وراح أسعد ينشج وليس من عادته البكاء، لأنه يعتقد بما يقوله العوام من أن الرجل الحق يجب ألا يبكي، والبكاء والنواح مخلوقان للفتيات. وعاد الأستاذ رفعت إلى موضوع المفعول به ونائب الفاعل ، وراح يشرح للطلاب مستعينا بالأمثلة . وجرب أسعد بصعوبة أن يصغى ويستوعب .

البرتقالة كانت مكتنزة ثم امتصها الذبول قبل أن تكون ذات حلاوة . والبرتقال يموت، يموت فى كل مكان . المفعول به لا ينصب إلا بفعل متعدّ . يا إلهى، ما أطول أنف الأستاذ رفعت . عين نائب الفاعل فى الجملة الآتية: نهر السيبة جف جفافا تاما وماتت الأسماك فيه . أمي ، سيأتى السقاء بالماء ، لا تعطشى يا أمّى . لا تضرب الفقراء . الفقراء مفعول فيه يا ولد. أهو مفعول فيه أم مفعول به؟ البرتقال والرمان يتساقط. نهر السيبة هل هو قاس؟ نهر السيبة كان يجب أن ينبع من العراق لا من ايران .

والتفت رفعت إلى أسعد ورأى عينيه زائغتين دامعتين. وودّ لو ركع إلى جانبه واحتضنه. ولكن كيف يفعل ؟ لقد اعتقلت سلطة نورى السعيد سبعين من سكان مندلى لمجرد أنهم احتجوا على ايران لقطعها النهر. ويعلم رفعت جيدا أن شاه ايران دفع رشوة كبيرة إلى نورى السعيد لكى يسكت عن عملية قتل المدينة الرائعة الخضراء . وبالارهاب اسكت رئيس الوزراء كل احتجاج، ولم يعد احد يجرؤ على الكلام .

هل لنا من إنسان نشكو إليه ؟ وبمن نلوذ؟ لقد ذبحوا مندلى مسقط رؤوسنا وعروس البساتين وقطعوا نهرنا بلا رحمة . اقرأ يا ولدى . لايقع نائب الفاعل إلا بعد فعل متعدّ . عم محمود . لاتسق الشجرة واسقنا لأننا عطاش. أين نائب الفاعل ؟

لم تكن فى الصف حماسة للمفعول به . ونام نائب الفاعل وأغفى على لوحة الكتابة . وراح السقاء المريض يسعل سعالا شديدا .

ـ يا أستاذ رفعت ، أنا عطشان ، اسمح لى أن أذهب إلى عم مصطفى فإن عنده سراحية ماء .

ـ لا،لا ياعمر . لاتغادر الصف فان عندنا هنا جرة ماء . خذ هذا كوب تشرب به .

ونهض الصغير عمر ، وسكب الماء من الجرة فاذا هو مختلط بالطين . وحار كيف يشرب . وأخيرا أغمض عينيه وكرع الماء دفعة واحدة . كانت حبات الطين تصوت تحت أسنانه.

وعند هذا لم يعد أسعد يصغى إلى ما يدور فى الصف مطلقا. فقد خطر له حلم رائع جنح خياله ورفعه إلى أوج الحماسة . كان يحتاج إلى أربعة أو خمسة من زملائه التلاميذ ، وكلهم غاضبون ورافضون وموتورون، ويقودهم هو فى النصف الثانى من الليلة عبر الحدود الايرانية . وهو يعرف الطريق بين التلال جيدا ، وموضع تحويل نهر السيبة قريب من الحدود . ولسوف ينزل أسعد فى النهر وهو يتقن السباحة . ولسوف يفك السلسة فينفتح الباب الحديد ويعود الماء يجرى فى نهر السيبة .

هكذا راح اسعد يحلم بعنين مفتوحتين . وانبجست قطرة فرح فى تلك العينين . ونام المفعول به هانئا على خديه . آه لو تحولت كل المفاعيل الخمسة إلى جرة ماء يسقى بها أمه المسكينة العطشى . ونهر السيبة. ترى أين ذهب ماؤه ؟ وعبر أية حقول فارسية خضراء أصبح يجرى ؟ وهل تدرى يا نهرنا أننا نموت من العطش . وأن أشجارنا قد يبست وبرتقالنا لم يعد له عصير؟

ووضع أسعد كفه اليسرى على رأسه وعاد إلى حلمه الأول. هذه الليلة

بعد الثانية عشرة سيأخذ رفاقه ويعبرون الحدود الايرانية. ولكن أنى له أن يعرف مكان السد الذى حول نهر السيبة وقطعه عن مندلي؟ وأحس أن جبينه يشتعل بالحمى . ومسه بأصابعه فأحس أنه يكويه . تراه محموما؟ إن يديه ترتعشان للفكرة الرائعة . آه يا أمي سيكون ولدك منقذا لمندلى هذه الليلة . وسترتوين . سترتوين يا أمي بالماء الصافى !

قال الاستاذ رفعت:

ـ أسعد . اعرب هذه الجملة : «المروج قطع عنها السماد».

ورفع أسعد رأسه وراح يعرب :

ـ المروج مبتدأ مرفوع رفع عنه الماء ، وقطع فعل ماض مبنى للمجهول وهو راغم وحزين ومتشقق. وعنها جار ومجرور بالسلاسل والسد الحديدى. ما العبارة ؟ قطع عنها الماء . الماء نائب فاعل معذب يريد أن يركض ولا يستطيع .

ولاح الخوف على وجه المدرس وهتف برفق:

ـ يا أسعد ، سألتك أن تعرب (المروج قطع عنها السماد) ولايصح أن تغير العبارة عند إعرابها .

ـ اعذرنى يا أستاذ ، إنى تحولت إلى شظايا فعل مبنى للمجهول . ولو كان مبنيا للمعلوم لجرى الماء معطرا فى نهر السيبة الميت . ولكن الافعال كلها مقصوصة الأجنحة لا تستطيع الطيران . وأبى يحمل على كتفيه مائة نائب فاعل ثقيلة جدا وهى تعرقل بحثه عن عمل نعيش منه فى بغداد . ونحن ونهر السيبة والعم مصطفى كلنا عطاش . وأمى تسلق فى القدر مفعولا به لنتغدى به هذا اليوم ، وتسلقه بماء النار لأننا لانملك ماء .

وهتف الأستاذ رفعت :

ـ ولدى أسعد ، سوف تغلق المدرسة اليوم، وستعود كل المفعولات بها إلى كتاب القواعد ولا يعود أحد يمضغها .

وفى هذه اللحظة دق جرس المدرسة إيذانا بانتهاء الدرس الأول ، فنهض التلاميذ متثاقلين، ومضغ عمر بقايا الطين الذى شربه مع كوب الماء . واقترب أسعد من التلميذ المجاور له وهمس :

ـ أحمد ، أريد أن اتحدث اليك في موضوع مهم . ابق فى الصف معى .

واضطر أسعد إلى أن يصرف أخاه عمر ، ولكنه قال له :

- انظر يا عزيزى، هل تعرف غسان ومرتضى وابراهيم؟

ـ غسان هو التلميذ الطويل ؟

ـ أجل وهو هناك ، انظر ! ومعه إبراهيم .

أخبرهما أن يأتيا إلى هنا حالا ، وابحث عن مرتضى ودعه يحضر .

وانصرف عمر، وبعد لحظات وصل غسان وابراهيم . قال الأول :

ـ هل هو اجتماع صغير يا أسعد ؟ أنا وابراهيم نريد الذهاب الى بعقوبا لاحضار برميل كبير من الماء ، فالمدينة عطشى والسيبة أصبح يابسا تماما.

ـ عندى لكما عمل أهم من احضار الماء ، لان هناك فى الأماكن المنخفضة من السيبة بقع مياه يمكن الشرب منها. وأنا أريد أن نحل مشكلة الماء من أساسها .

وفى هذه اللحظة وصل مرتضى وهو شاب عمره خمسة عشر عاما ، وعندما رأى زملاءه لم يتكلم ، وجلس وعلى وجهه مسحة واضحة من الجد ، وكأنَّه رجل مكتمل يحمل أعباء الحياة.

وبدأ أسعد الحديث وشرح لهم خطته بلا تطويل:

ـ يا أصدقائى ! نحن فتيان مندلى وشبابها، وعلينا يقع عبء انقاذها من

الجفاف والموت ، وأنا سأذهب الليلة عبر حدود ايران ، واسبح وأكسر السد الذى حولوا به النهر عن مدينتنا.

وهتف إبراهيم :

ـ هذا عمل خطير يا أسعد ، وقد يقتلك حرس الحدود !

ـ أنى أعرف كيف أعبر الحدود دون أن يلاحظونى ، وقد فعلت ذلك مرارا لمجرد المتعة . ومهما يكن ، سأذهب الليلة لاعيد الماء إلى مندلى، وأنا أحب أن تصحبونى إلى هناك وأنتم شبان المدينة وسواعدها، فهل تأتون ؟

وسكت ونظر فى وجوههم واحدا واحدا ، فاندفع مرتضى وقال بهدوء:

ـ أنا أول من يذهب معك ، وسأحتمل كل النتائج الممكنة . والمهم أن تعلم السلطة الايرانية أننا عملنا شيئا ولم نخضع للجور والطغيان ساكتين .

ودبّت الحماسة فى صدر غسان وهتف :

ـ أنا أيضا معكما ، وعندى بندقية صيد أستطيع أن أحملها لاستعملها فى حالة تعرضنا إلى خطر عد نقطة الحدود .

ولاح أن غسان انفعل أيضا لأنه قال فى حسرة وحزن:

ـ القضية أكبر منا يا جماعة . وأنا مستعد لمصاحبتكم ، ولكن قلبى يحدثنى بأن كارثة تنتظرنا ، لأن عبور الحدود ليس أمرا سهلا ، وقد مات ما يقرب من عشرة أشخاص ببنادق الحرس الايرانى لمجرد أنهم تخطوا الحدود .

وهتف أحمد :

ـ لابد لنا من أن نعترف بأن رغبة الحرس الايرانى فى معاقبة من يجتاز الحدود بلا رخصة أمر طبيعى، وذلك من حقهم ، والايرانيون مسلمون مثلنا ، وهم يحبوننا ونحن نحبهم ، وهذا مع أننا غاضبون أشد الغضب على

حكومتهم التى سرقت نهرنا وأعطشت المدينة وقتلت بساتينها.

وصاح أسعد :

ـ اذا كانوا مسلمين حقا، فلماذا يقتلون مدينتنا الاسلامية؟

ـ يا أسعد ، يا أسعد ، ليس شعب ايران هو الذى حول مجرى السيبة ، وإنما فعلت ذلك الحكومة. والشعب هناك يكره الحكومة وهو ثائر عليها .

ـ أنا لا أكره الشعب الايرانى ، وإنما أحبه كما أحب كل الشعوب المسلمة . ويلوح أنك على صواب ، لأن تحويل نهرنا تم بأمر حكومة الشاة ، وقد قرأت منذ يومين مقالا مترجما عن اللغة الايرانية فى جريدة النهضة» التى تصدر فى بعقوبا فيه أن الشعب الايرانى غاضب لتحويل نهر السيبة عن مندلى .

وهتف غسان :

ـ هذا غريب . وكيف جرؤت «النهضة» على كتابة هذا دون أن تغلقها سلطة نورى السعيد؟

ـ لقد أوقفتها وهى الآن لا تصدر .

وهمس مرتضى :

ـ ياجماعة لاترفعوا أصواتكم . وما دمنا متفقين على القيام بالمغامرة فلنضع خطة كاملة تضمن نجاحنا وأسرع أسعد يقول :

ـ أول ما يجب أن نتفق عليه هو توقيت مغامرتنا . وأنا أقترح أن نتحرك فى نصف الليل تماما، لأن حرس الحدود لا يتوقعون أن يعبر إذ ذاك أى أحد .

وبادر الجميع يوافقون، إلا ابراهيم الذى لاح مرتبكا، وقال أخيرا:

- أيها الأخوة، أنا أحب أن أصحبكم ولكن اسمحوا لى أن آخذ موافقة

أبى وقال مرتضى بهدوئه الرائع :

ـ تأخذ موافقة أبيك ؟ لا يا إبراهيم. إنك بذلك تفشى سرنا، وإذا ما عرف آباؤنا خطتنا ، فسيمنعوننا بالقوة من الذهاب.

ـ إبراهيم ! هذه مسألة وطنية ، ويمكنك أن تتصرف بلا إذن من أبيك . ألا تحب أن تنقذ مدينة مسلمة مظلومة ؟

وقال الآخرون أشياء مماثلة لهذا، ووافق إبراهيم على الذهاب، وإن كان لم يتحمس . وكانت على جبينه سحابة حزن . هكذا كان إبراهيم دائما، وتلاحظ على عينيه شبه ضبابة من دمع تضفى جمالا كئيبا على وجهه الوسيم . لقد ترك أباه فى البستان يجمع أى رمان يجده لم يبلغ من الجفاف مبلغا يجعله غير قابل للأكل .

وقال إبراهيم لأبيه بلهجته الحالمة:

ـ يا أبى ، استرح ولا تتعب نفسك فى جمع رمان جف من العطش قبل أن يصبح حلوا .

ـ إبراهيم ، ابنى ، اذهب إلى المدرسة وستجد رمانا حلوا عندما تعود.

وكاد الولد يبكى . إن والده شيخ فان يتوكأ على عصا ، ويجب أن يقبع فى البيت ويرتاح . ثم إن هذا الرمان لانفع فيه .

وخلال هذا اندفع الصبى الصغير عمر ودخل الغرفة ركضا وهو يصيح :

ـ جاء ت الشرطة ، الشرطة يا أسعد .

ونهض الشبان اليافعون فزعين ، وأطلوا من النافذة فرأوا تلميذا لا يزيد عمره على ثلاث عشرة سنة وقد قبض عليه ثلاثة من رجال الشرطة واحدهم يضربه على رأسه والولد يبكى ويصيح . وكان يقف على باب المدرسة مديرها وبعض المدرسين، وقال أحد رجال الشرطة :

ـ يا مجرم، أليس عندكم ماء فى البئر ؟لماذا لا تشربون من البئر ؟

وصاح الولد وهو ينشج ببكاء شديد:

ـ إن ماء البئر شديد المرارة ، وهو لايصلح إلا لسقى شجرة التوت .

ـ يا حقير ، طويل لسانك وما زلت صغيرا ، لماذا تشتم شاه ايران ؟

وقال الصبى ببراء ة وهو يواصل البكاء :

ـ لأنه أخذ ماء السيبة وتركنا عطاشا بلا ماء .

وضربه الشرطى بمقبض بندقيته فى بطنه فسقط الولد على الأرض يتخبط ويدفر برجليه دفرا عنيفا .

وأغلق إبراهيم النافذة وجلس . وعاد الأربعة الآخرون وفى عيونهم شىء يغلى ، وهتف مرتضى:

ـ ماذا نستطيع أن نفعل أمام شرطة نورى السعيد ؟

قال له أسعد :

ـ ليس كل الشرطة قساة ومجرمين . إن الشرطة أفراد من الشعب مثلنا وهم مجرد مستخدمون لدى حكومة نورى السعيد ، وكثيرون منهم غاضبون مثلنا ولا حيلة لهم.

واتفقوا على الخطة فورا . تواعدوا أن يلتقوا فى نصف الليل عند أشجار الرمان القائمة فى آخر مندلى. وعندما انتهوا قال إبراهيم :

ـ سأذهب معكم وسأكون أنا الذى ينزل فى الماء ويكسر السلسة .

وبدا ينتحب ويبكى وقال:

ـ إن الولد قد مات .. اسمعوا الصراخ .

وكان يجىء من خارج النافذة عويل وصراخ . وكان صوت الشرطى يتعالى :

ـ مجرمون ، سفلة، منحطون . سنغلق هذه المدرسة اللعينة!

***

انتصف الليل. وكانت مندلي اليابسة الحزينة مطفأة الاضواء، ونسيمها الجميل يمر على الأشجار الجافة ويحدث صوتا . وكان في السماء قمر ذابل في النصف الثاني من الشهر . وخرج ابراهيم من بيت أبيه . وأقفل الباب بهدوء دون أن يحدث صوتا . وكان يسير مطرقا مغرقا في الحزن والتفكير . كانت لاتفتأ تعاوده مشاهد موت الولد الصغير فيغصّ . وتذكر كيف وقف ساعة إلى جانب الصبي المقتول وكانت أمه تعول عويلا يمزق القلوب وتنادى:

ـ أريد ولدى . أعطوني ولدى . أعطوني وليدى وحضر الطبيب، وانحنى على الارض يفحص الولد المقتول. وراح يقلبه ليعرف سبب الموت. واكتشف دماء غزيرة تسيل من جسد الصبي . ووقف حزينا وقال:

ـ نزيف في الامعاء ، نزيف حاد . بماذا ضربوه ؟

ـ بمؤخرة البندقية وكانت ضربة شديدة فسقط الولد حالا.

وصرخت الأم وهي تبكي بكاء شديدا :

ـ لماذا يموت ولدى بنزيف في الامعاء ؟ ولماذا لا يموت هذا الشرطي بالنزيف؟ يا رباه ! أعطوني ابني أريد ابني!

وقال رجل شيخ واقف مع الجمهور :

ـ يا أختي لا تأسفي ! إن الله عادل وهو ينتقم من المجرمين . ولابد أن يموت هذا الشرطي ميتة فظيعة .

وصل إبراهيم في سيره حافة النهر اليابس . وشعر برعشة برد فلفّ صدر المعطف حول رقبته وأسرع في مشيه . لاحت شجرات الرمان في آخر البلدة ورأى تحتها شبحين . وعندما اقترب تبين أسعد وأحمد . وأحسّ

برعشة فى فقرات ظهره من الخوف . كان يحس أن المغامرة رهيبة وأن الليل جاسوس يتصنت وسيطارد . وشعر أنه يود أو استطاع الرجوع إلى البيت لينام قرب أبيه الشيخ الذى لا يستطيع أن ينهض إلا إذا تؤكا على كتفه . وهتف أسعد :

ـ هكذا يا ابراهيم ، هكذا يكون التصميم والعزم . بعد ساعة واحدة يعود النهر يجرى فى هذه الأرض العطشى .

وهنا لاح شبح يتقدم نحوهم فى الظلام ، وسرعان ما تبينوا فيه غسان ، وكان يحل بندقيته . وقال أنَّه أخرجها من غرفه أبيه سرا فى الساعة الثامنة وأخفاها قرب باب الدار .

لم يبق إلا مرتضى ، وسرعان ما أقبل مسرعا يسير فى حيوية ونشاط . وهتف ابراهيم:

الآن اكتمل عددنا، فلنبدأ السير. وسنفتح باب السد بسرعة ونعود قبل الواحدة ويكون الماء قد اندفع فى وادى السيبة يروى مدينتنا العطشى.

وسار الفتيان الخمسة إلى جانب أشجار الرمان حذر أن يراهم الحرس الايرانى . وعندما بلغوا الحدود وجدوا أسلاكا شائكة ممدودة تمنع العبور ، وهمس أسعد :

ـ انعطفوا إلى اليمين . هناك كسر فى الاسلاك نستطيع العبور منه.

كان الليل نصف مظلم لوجود ضوء القمر . وكان السياج كثيفا أمامهم على الأرض . ولاحظوا أنهم يستطيعون المرور زحفا على البطون . فانبطحوا على الأرض وعبروا جميعهم دون أن يحدثوا جلبة . عندما صاروا فى الجهة الثانية من الاسلاك ، نهضوا واقفين وأنصتوا جيدا ، فتأكدوا أن الحرس لم يسمعوهم . وساروا فى هدوء وحذر ، وعلى بعد خمسين خطوه

رأوا نهر السيبة الجارى . كان هناك مجريان للنهر ، أحدهما قد جفّ وهو الذى يسقى مندلى . والثانى هو السيبة المدلل، نهر ايران . وفى نهاية الوادى الجاف باب من حديد مغلق يمنع الماء عن مندلى ويرسله كله إلى الأرض الإيرانية . واقتربوا من المكان ووقفوا .

كان الاحساس الأول لديهم هو السرور بالوصول إلى مكان الجريمة . وماذا يريدون بعد ؟ هاهو الحاجز وفى وسعهم أن يفتحوه بأيديهم فيجرى الماء فى نهر السيبة . وقال أحمد :

ـ يا أخوان ، ما فائدة فتح الماء على وادى مندلى ؟ إن حرس الحدود سينتبهون فى الصباح ويعيدون قطع الماء عنا .

وهتف مرتضى :

ـ كل ما يهمنا أن نشعر حكومة ايران بأننا لسنا أذلاء ولا جبناء بحيث نسكت على تحويل النهر ونرحل عن مندلى بلا احتجاج . أريد أن يحسوا بأننا غاضبون وأننا فعلنا شيئا .

وبدأ إبراهيم يخلع ملابسه ويبقى بالسروال فقط وقال :

ـ علينا ألا نطيل الحديث ولنبدأ بالعمل . سأنزل فى هذا الحوض وأحاول أن أفك السلسلة التى تفتح هذا الباب الحديد .

قال هذا وقفز فى الماء البارد الخريفى . وهم يعلمون كلهم أن إبراهيم أمهر سباح فى مندلى ، فقد تعلم السباحة ومارسها منذ طفولته . وهتف مرتضى :

ـ إبراهيم . السلسلة على يسارك ، اسحبها لينفتح الباب ...

ولاح لهم أن القدر كان معهم ، فان إبراهيم سحب السلسلة ، فانفتح الباب الكبير ، واندفع الماء إلى وادى مندلى . وظهر لهم فيما بعد أن

الحراس لم يقفلوا السلسلة بعد ، دون أن يخطر لهم أن فتيان مندلي سيجازفون بحياتهم ويفتحون الباب . ماذا بقي ؟ ولماذا تأخر إبراهيم تحت الماء ؟

كانت قدما إبراهيم بارزتين فوق الماء ورأسه وكتفاه تحت السطح . ووقف الرفقاء الأربعة ينتظرون . ولم يرفع إبراهيم رأسه ، وبقيت قدماه فوق سطح الماء . وقال مرتضى بصوت قلق :

– لماذا لا يصعد؟ إن الماء قد تدفق في نهرنا . إبراهيم ! إبراهيم! اصعد إلينا، بارك الله فيك!

ولم يرد إبراهيم ، وبقي رأسه تحت الماء . أخيرا قفز مرتضى إلى الحوض وراح يسحب إبراهيم ، فاذا رأسه لا ينسحب . وعاود مرتضى جره بلا جدوى . والتفّ حوله ومد يده ليرى سبب بقائه تحت الماء فاذا شعره قد ارتبط بالسلسلة ارتباطا يصعب فكه . وصرخ مرتضى :

– لقد غرق إبراهيم . يا إلهي . غرق ومات .

أخذ الاولاد يبكون بكاء صامتا وهتف أسعد :

– ياويلاه، يا ويلاه . ماذا سنقول لأبيه الشيخ العجوز الذي ليس له سواه؟

وخلال ذلك كان مرتضى مستمرا في محاولة فك الارتباط بين شعر الغريق والسلسلة ، ونجح أخيرا فرفع رأس إبراهيم على راحة كفة فوق الماء ودفعة صوب الشاطيء . وامتدت أيدي الشبان الثلاثة ورفعوه إلى الجرف وجسمه النحيل يقطر ماء، ووضعوه على الضفة، وكان وجهه مطمئنا لا خوف فيه. ولاح كأنه قد صادق الموت ووجد السعادة لديه . وصعد مرتضى إلى الضفة وهمس وهو يبكي :

ـ يا أخوان ، ياأخوان، كيف سنخبر أباه الذى يعبده؟

وقال أحمد

ـ له ثلاثة أخوة وأخت واحدة ، ولكن الشيخ يحب إبراهيم أشد الحب .

واستمروا يبكون ويتأوهون ، وصاح بهم مرتضى :

ـ تحركوا فورا، إن الموقف عصيب. تعالوا لنحمل الجثة بيننا ونحاول أن نعبر بها الأسلاك الشائكة .

وانحنوا وهم يتعذبون ، وحملوا بينهم جثة إبراهيم وكان الغريق وديعا فى موته كما كان وديعا فى حياته . كان خفيف الحمل وعلى ثغره ابتسامة غريبة ، ابتسامة فرح وكأنه عانق فى الموت صديقا حبيبا.

وعبروا الاسلاك الشائكة فى المكان المكسور ، وتنفسوا الصعداء عندما صاروا فى أرض عراقية وقد نجوا من حرس الحدود . وكان السيبة إلى يسارهم واديا تندفع فيه مياه غزيرة . وهتف مرتضى :

ـ رحمة الله عليك يا حبيبنا إبراهيم . لقد رجعت محمولا على الأيدى . لكنك لم تمت إلا بعد أن أجريت الماء فى أرضك اليابسة .

وزاد بكاء الفتيان بعد أن نجوا من الحدود . لقد عادوا بالماء ولكنهم رجعوا يحملون جثة . وستشرب مندلى من يد الشهيد الحبيب الذى وهب حياته لمدينته ولكن الأولاد عذبوا أنفسهم بفكرة واحدة . لقد ضحى إبراهيم بنفسه من أجل ليلة واحدة يندفع فيها الماء إلى وادى السيبة . مرة واحدة ترتوى مندلى ثم يغلق الحرس الايرانى الباب الحديد وينقطع الماء على عروس المدن مندلى الحلوة

ماذا بقى؟ المشهد الدراماتيكى، مشهد اللقاء بين إبراهيم وأبيه الشيخ وهو مشهد يعكس الأزل ، أزل فى عينى الاب الواله المفجوع، وأزل على بؤبؤ

الفتى الميت.

ويقف الأزل وينظر ، ويبقى الاستشهاد والتضحية والفداء ، وتبقى مندلى يابسة حتى مستقبل غير بعيد ويعيد إليها الماء والحياة والخضره وينتصر إبراهيم ، ينتصر إبراهيم أبدا . أجرى الماء فى مندلى ورواها ومات . وهل مات حقا ؟ لا لم يمت إبراهيم ولا ماتت مندلى . إن الحياة تحب إبراهيم لأنَّه أحيا مندلى وأعطاها الماء والنماء والبركات .

وساروا فى ظلام الليل يحملون أول شهيد على أرض النضال ، النضال من أجل الحياة .

ملاحظات

- ١ -

حول البيوت القديمة :

وردت فى القصة المعنونة «ظفائر السمراء عالية» أوصاف لبيت بغدادىّ قديم مازال محافظاً على طراز البناء فى القرن التاسع عشر وقد ورد فى القصّة ذكر غير قليل من مرافق هذا البيت مثل الليوان والأرسي وسرداب السنّ والرازونة والطارمة والكشبكان، وهى مرافق لم تعد البيوت العراقية المعاصرة تعرفها فقد زالت ونشأت فى العراق أجيال لم تسمع بها بحيث يحتاج القارىء إلى أن أشرح له معانيها وأنا أعترف بأنى غير خبيرة، وإنما وصفت ما أعرف من بيتنا العتيق أيام الطفولة، وبيوت العائلة والجيران المشابهة في بغداد القديمة . وقد لا تكون معلوماتى علمية أو قابلة للتعميم ، وإنما هى كلّها من وحى ذكرياتى وتجاربى الشخصية، وفيما يلى شروح قصيرة لتلك المرافق التي زالت أسماؤها حتى من اللغة العامية العراقية وسأشرح معها كلمات أخرى لم تعد مستعملة مما ورد ذكره فى قصة «ظفائر السمراء عالية»:

١ - سرداب السن :

غرفة محفورة تحت مستوى ساحة المنزل، عميقة تغور فى الأرض، وهى غالباً ما تنتهى إلي طبقة صخريّة يشقّها العمّال شقاً، وينحتونها نحتاً. وتستعمل هذه الغرفة للقيلولة فى ظهيرات الصيف الحارّة، لما تتصف به من برودة. وغالباً ما يكون سرداب السنّ مظلماً بلا نوافذ، اللهم إلا كوّة فى أعلاه، فيزيده الظلام والعمق وحشة. وكلمة «سرداب» كلمة فارسية مكونة من «سرد» ومعناها «البارد» و «آب» ومعناها «الماء» . أما السن فهو «الصخرة» .

٢ - الطاسة :

إناء معدنى واسع الفوهة لشرب الماء، أو لخزن السوائل وأشباهها .

٣ - الكبشكان :

غرفة من الخشب ، تقام فى النصف الأعلى من غرفة عالية السقف، ويصعد إلى الكبشكان بسلم خشبى، ويتميز بأن سقفه واطىء. وبعض الناس ينطق الكلمة «كشبكان» .

٤ - الروازين :

جمع «رازونة» وهى رفّ طولى مستطيل محفور فى الجدار ويستعمل لوضع التحف والزهور والحاجيات المنزلية. وقلّما كانت الغرف فى البيوت القديمة تخلو من الروازين التى كانت ظاهرة معماريّة ملازمة للبيوت العراقية

فى الستين سنة الأولى من القرن الرابع عشر الهجرى (القرن العشرين).

٥ - دورة السنة :

هى الاسم العربىّ العراقىّ الذى يطلق على «عيد النوروز» وعيد النورز يحتفل به الأكراد والايرانيون وهو عندهم بداية العام الجديد. وقد أخذت عنهم عائلات عراقية كثيرة الاحتفال به بعد أن أسقطت لفظ النورز وسمته «دورة السنة» ، وهم يعتقدون أن السنة تدور فى يوم النورز وأن الأرض تتحرك لحظة دورانها عندما تنتقل من أحد قرنى الثور الذى يحملها إلى القرن الآخر . والاحتفال بدورة السنة احتفال جميل يشعلون فيه شموعاً على عدد أفراد الأسرة، ويهيئون سلة كبيرة يقلبونها ويضعون تحتها أصنافاً من الطعام والخضروات والحلوى بينها سبعة أنواع تبدأ بحرف السين ويسمّونها «سبع سينات» منها السمسم والسمك والساهون والسماق والسبيناغ وسواها . وقد زال الاحتفال بهذا العيد لدى العائلات العربية فى بغداد فيما أعلم .

٦ - الأرسى :

غرفة متوسطة الاتّساع لها بالاضافة إلى الباب، شبابيك واطئة من الخشب، تقرب من الأرض فاذا فتحت - بالدفع إلى أعلى - بقيت قواعدها عتبات خشبيّة واطئة يمكن الجلوس عليها كما يمكن الدخول والخروج من هذه الشبابيك المطلة على «الطارمة» وللأرسى عادة روازين مزينة بالنقوش والألوان، أما سقفه فيكون مترف الشكل، مصنوعاً من الخشب الملون المزين بالحفر.

٧ - الزناديات :

جمع «زنادى» منسوب إلى الزند ، لأنّه سوار من ذهب على شكل ثعبان ملتفّ تلبسه الفتاة حول زندها.

٨ - الطارمات :

جمع «طارمة» وبعض العائلات تنطقها «طرمة» وهى تعنى شرفات كبيرة جداً، واسعة، تمتد أمام غرف الطابق الثانى جميعاً وتطلّ على صحن المنزل «الباحة». وللطارمة سياجات مصنوعة من الخشب والحديد يصل ارتفاعها إلى خصر الانسان الواقف. وتكون الطارمات مكشوفة حيناً، مسقوفة حيناً آخر.

٩ - اللواوين :

جمع «ليوان» وهو امتداد مسقوف عميق فى جانب من صحن المنزل، ويفرش عادة بالأرائك، ويستعمل بمثابة غرفة استقبال فى الصيف، حين يكون الطابق الثانى (الذى لا يستعمل إلا فى الشتاء) حاراً لا يسكن . وإذا كان الليوان غير عميق سمى «طراراً» . ويفرش الطرار كما يفرش الليوان ويستعمل للجلوس فى الصيف .

١٠ - البيتونة «البيت» :

غرفة متوسطة الاتساع، واطئة الأرضية بحيث تنخفض عدّة أقدام عن مستوى صحن الدار ، جدرانها من المرمر الذى يشعّ البرودة فى الصيف، ويُستعمل للقيلولة فى ساعات الظهيرة . فإذا كانت هذه الغرفة أوطأ أرضية وأكبر سمّيت «الرهرب» . وكان فى بيتنا القديم «بيتونتان» و (رهرب).

١١ - (سرداب سن) معاً . وأغلب الظن أن كثرة غرف القيلولة الصيفية ترجع الي ضخامة البيت الذى كانت تسكنه أسر كثيرة فيعيش الجدّ الكبير مع أولاده المتزوجين وأولادهم ، وكثيراً ما يتزوّج حتى الحفيد ويقيم فى المنزل نفسه. وهذا العدد الكبير من الناس يحتاج إلى أكثر من غرفة باردة خلال أشهر الصيف البغدادية اللاهبة .

- ٢ -

١٢ - حول امرىء القيس :

يرد حديث حول الشاعر الجاهلى امرىء القيس فى قصة (رحلة فى الأبعاد)، وفيها يسأل عبد السلام «هل فى التاريخ أن امرأ القيس عاش فى اليمن»؟ وتجيب زوجته «شوق» بطلة القصة قائلة «لاأدرى».

ولا ينبغى أن ينسب القارىء إلىّ - أنا المؤلفة - الجهل بهذه النقطة فإن هذا حوار يدور فى قصة ويتصل بطبيعة أحداثها . والواقع أن امرأ القيس كان من اليمن فعلا وأبسط دليل يخطر لى على ذلك قوله عندما بلغه نبأ مقتل أبيه :

تطاول الليل علينا دمّون
دمّون إنّا معشر يمانون
وإننا لأهلنا محبّسون

أما لماذا جعلت شوقاً وعبد السلام لا يعرفان هذه الحقيقة فلكى أمنح رؤيا شوق صفة الصدق العفوىّ، فهي ترى امرأ القيس من اليمن ، مع أنها لا تدرى ، ولا زوجها يدرى أنه يمانى .

١٣ - حول اللغة اللاتينية :

وردت عبارات لاتينية فى قصة «الشمس التى وراء القمة» وكانت بطلتها هدى ممدّدة على منضدة العمليات تجري لها العملية القيصرية وهي صاحية لأنها أعطيت مخدراً موضعياً. كانت تعانى معاناة شديدة مرهقة خلال ذلك فتطفح فى ذهنها أفكار غير واعية، لا سيطرة لها عليها، وعندما تذكرت قياصرة الرومان وقلة إحساسهم وقسوتهم، نبعت فى ذهنها عبارة لاتينية، لأن اللغة اللاتينية لغة هؤلاء القياصرة . وكان نص العبارة الأولى :

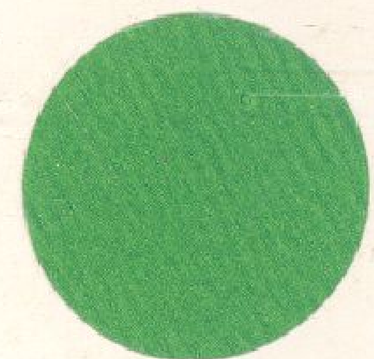
Laus sit Dio, qui tabulam et Calamum creavit, atque hominem docuit quod amtea nesciabat: et benedictio et pax suber Mohammed.

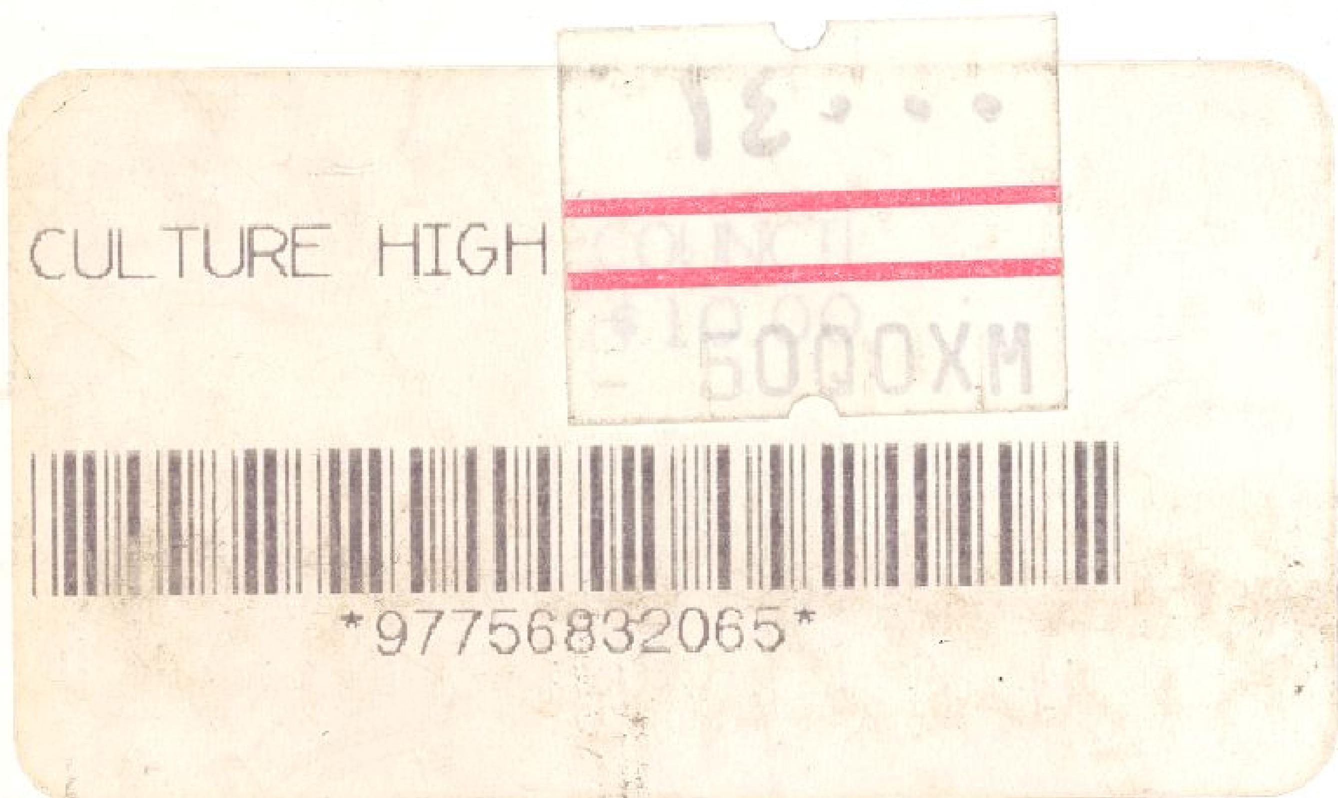
ومعناها «الحمد لله الذى خلق اللوح والقلم، وعلم الانسان ما لم يعلم والصلاة والسلام على محمد.» أما العبارة الثانية التي برزت فى ذهن هدى فهى "Cur rides" ومعناها «لماذا تضحكين» والمقصود أن تدل هذه العبارات على تيّار عدم الوعى الذى كان يعصف بتفكيرها إذ تنبعث عبارات بلا علاقة بالموقف . ويمكن للتحليل النفسى أن يجد تفسيراً لطروق هاتين العبارتين علي ذهن بطلة القصة وهي تتعذب خلال عملية الولادة.

كتب المؤلفة المطبوعة

اسم الكتاب			تاريخ الطبعة الأولى
عاشقة الليل	(شعر)	بغداد	١٩٤٧م
شظايا ورماد	(شعر)	بغداد	١٩٤٩م
قرارة الموجة	(شعر)	بيروت	١٩٥٧م
قضايا الشعر المعاصر	(نقد)	بيروت	١٩٦٢م
الصومعة والشرفة الحمراء	(نقد)	القاهرة	١٩٦٥م
شجرة القمر	(شعر)	بيروت	١٩٦٨م
مأساة الحياة وأغنية للإنسان	(شعر)	بيروت	١٩٧٠م
التجزيئية فى المجتمع العربى	(اجتماع)	بيروت	١٩٧٤م
يغيّر ألوانَهُ البحر	(شعر)	بغداد	١٩٧٠م
للصلاة والثورة	(شعر)	بيروت	١٩٧٣م
سايكولوجية الشعر	(نقد)	بغداد	١٩٩٢م
الشمس التى وراء القمة	(قصص)	القاهرة	١٩٩٧م

الفهرس







شركة الأمل للطباعة والنشر
ت : ٣٩٠٤٠٩٦